ليتفقهوا في الدين

حماة الوحي

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: إنما الأئمة قوام الله على خلقه وعرفاؤه على عباده، ولا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه، ولا يدخل النار إلا من أنكرهم وأنكروه

للمرجع الديني آية الله العظمى الشيخ محمد الفاضل اللنكراني دام ظله

والمرحوم آية الله الشيخ شهاب الدين الإشراقي رحمه الله

حماة الوحي

للمرجع الديني آية الله العظمى الشيخ محمد الفاضل اللنكراني دام ظله

والمرحوم آية الله الشيخ شهاب الدين الإشراقي رحمه الله

المترجم عبد الرحيم الحمراني

فاضل لنكراني، محمّد، ١٣١٠ ـ مؤلف.
[پاسداران وحى. عربى]
حماة الوحي / تأليف: محمّد الفاضل اللنكراني، شهاب الدين إشراقي ؛ مترجم: عبدالرحيم الحمراني . ـ قم: مركز فقه الأئمة الاطهار عليهم السلام، ١٤٢٥ق . = ١٣٨٤.
٣٢٨ص
بال ISBN 964-7709-21-8
فهرستنويسى بر اساس اطلاعات فيپا.
كتابنامه: ص. [٣١١] ـ ٣١٧؛ همچنين بصورت زيرنويس.
عنوان اصلى: پاسداران وحى.
عربى.
١. امامت ـ نقد و تفسير. ٢. ولايت. ٣. على بن ابيطالب عليه السلام، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت ـ ٤٠ ق. ـ اثبات خلافت. ٤. علم امام ـ نقد و تفسير. الف. اشراقى، شهاب الدين، ١٣٠٤ ش ـ ١٣٦٠ ش نويسنده همكار. ب. حمرانى، عبدالرحيم، مترجم. ج. مركز فقهى ائمة اطهار عليهم السلام. د. عنوان. هـ. عنوان: پاسداران وحى. عربى.
BP ٢٢٣ / ٢ف ٢پ ٠٤٣ ٢٩٧/٤٥
١٣٨٤

مركز فقه الأئمة الأطهار عليهم السلام

حماة الوحي

تأليف: .... محمّد الفاضل اللنكراني، شهاب الدين الإشراقي
المترجم: .... عبدالرحيم الحمراني
صفّ الحروف: .... مركز فقه الأئمّة الأطهار عليهم السلام
الطبعة: .... الأولى، ١٤٢٥هـ
المطبعة: .... اعتماد، قم
الكمّيّة: .... ٢٠٠٠ نسخة
السعر: .... ٢٠٠٠٠ ريال

حقوق الطبع محفوظة

شابك: ٨-٢١-٧٧٠٩-٩٦٤ ISBN 964-7709-21-8

بسم الله الرحمن الرحيم

شبكة الفكر
alfeker.net
يا علي يا فاطمة

شكر و تقدير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله ربّ العالمين العليم بجميع ما في السموات والأرضين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين وعلى أهل بيته الطيّبين الطاهرين، سيّما بقيّة الله في الأرضين عجّل الله تعالى فرجه الشريف، الذين جعلهم الله ولاة أمره وتراجمة وحيه وحججاً على عباده، وأودع عندهم علم الكتاب وأبواب الحكمة ومفاتيح العلم وضياء الأمر وفصل الخطاب، وارتضاهم لمكنون سرّه، وعلّمهم علوم ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة، بل وما في الآخرة من الجنّة والنار، بحيث قال أبو الأوصياء عليه السلام: لوكشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً.

وبعد، إنّ من نعم الله علينا أن جعل في كلّ زمان من العلماء حماةً لدينه ونجوماً لهداية خلقه وحرّاساً لعباده، احترازاً من بدع المبتدعين وانحراف المنحرفين، وسوء فهم من لم يوفّقه الله لدرك معارف الدين المبين، ومن أحسن مصاديقه سماحة

المرجع الديني الكبير آية الله العظمى الشيخ محمد الفاضل اللنكراني متّع الله المسلمين بطول بقائه، والمرحوم آية الله الشيخ شهاب الدين الإشراقي تغمّده الله برحمته، اللّذان ألّفا قبل ثلاثين سنة كتاب (پاسداران وحى) دفاعاً لحريم أهل البيت وجواباً لبعض ما في الكتب المنتشرة المنحرفة عن الصواب في حقّ العترة الطاهرة، شكّر الله مساعيهما وجعله الله ذخراً لآخرتهما حيث لاينفع مال ولابنون إلّا من أتى الله بقلب سليم.

وحيث كان الكتاب بالفارسية قام بتعريبها الأخ عبدالرحيم الحمراني تعميماً لفائدته وتنويراً لقلوب المهتدين من جميع الفرق الإسلامية من العرب والعجم، وإجابةً لبعض إخواننا المسلمين.

وفي الختام نشكر من المحققين الأعزّاء في هذا المركز بمراجعته وإخراج مصادره، ونسأل الله دوام توفيقهم إنّه خير ناصر ومعين.

مركز فقه الأئمّة الأطهار عليهم السلام

محمّد جواد الفاضل اللنكراني

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة
قيم الأمم عرى موثقة

قيمة السلعة:

الحديث المتداول في الوسط الاقتصادي إنّما يدور حول السلعة والسوق. والسؤال الذي يثيره الاقتصاديون هو ما ثمن سلعة ما؟ وعادة ما يتراوح ثمن السلعة بين الهبوط والارتفاع؛ الامر الذي يصطلح عليه بتأرجح القيمة. ويرتبط تأرجح القيمة بحاجة الأمّة بصورة مباشرة، فاذا كانت هناك من حاجة ارتفعت القيمة و بخلافه تنخفض، وعليه فهي خاضعة لقضية العرض والطلب، والقاعدة بينهما عكسية فإذا ازداد الطلب قلّ العرض بينما يزداد العرض إذا قلّ الطلب، ومن هنا تزداد القيمة إذا ازداد الطلب بينما تهبط في العكس.

إذن فالمشتري يشكّل أحد عناصر قيمة السلعة، ومن هنا تعمد البلدان إلى تقييم رفع مستوى قيمة سلعها وتبعث بخبرائها الذين يقيّمون التسويق من أجل مضاعفة عدد الزبائن وزيادة حجم الصادرات، لديمومة عجلة الاقتصاد بغيّة الحدّ من الهواجس التي يستبطنها الفقر.

السبب الأهمّ:

العنصر الأهمّ في قيمة الأشياء يكمن في نفس السلعة، فالسلعة ليست بذات أهمية إذا كان تأرجح قيمتها على ضوء الحاجة فهي تحمل قيمتها معها، وغلاء مثل هذه السلع إنّما يتوقّف على طلب الناس؛ ويعزىٰ ذلك إلى خلوّ السلعة في حدّ ذاتها من القيمة المطلوبة.

فالذهب من السلع الثمينة، وهو رصيد لسائر السلع، وليس للطلب من تأثير يذكر في ارتفاع سعره. فقد يقلّ الطلب إلّا أنّ سعره لا يهبط. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لِمَ كان الذهب غالياً في جميع البلدان ولا يفقد قيمته؟ ويبدو أن علل الإجابة على هذا السؤال تحظى بأهمّية فائقة نوكلها إلى علماء الاقتصاد، إلّا أنّنا نخوض في بعض الأمور بهذا الشأن: فالذهب معدن قوي و مقاوم في مختلف الظروف ولا يفقد خصائصه إلى جانب جماله وجذّابية لونه، فهو لا يتأثر بالماء وسائر العناصر المؤثّرة في خصائص المعادن، وبريقه يخطف الأبصار وإن دفن لسنوات تحت التراب، ولا يمكن مقارنته بالنحاس الذي يفقد صفاته إلى حدّ الصدأ إذا ما تعرّض لبعض الظروف المؤثرة كالرطوبة. وعليه يمكن القول بأنّ غلاء هذا الفلز نابعاً من كونه نفيساً.

قيمة الشخص:

الإنسان كالذهب ولابدّ من تعيين قيمته من خلال الالتفات إلى ثمن هذا الفلز وسبب غلائه. وللإنسان شخصيتان؛ إحداهما فردية، والأخرى اجتماعية. ويمكن تحديد شخصيته الفردية على غرار مثال الذهب فيقال: أي إنسان ذو قيمة؟ في حين لابدّ من استطلاع رأي الآخرين في تحديد شخصيته الاجتماعية، والعنصر المهمّ في تعيين موقعه وقيمته إنّما يتأتّى من معطياته على مستوى المجتمع، كما يكتسب المجتمع

قيمته العالمية من خلال موقعه. فالفرد القيّم من ذاع نبوغه ومجده في المجتمع، وتوقّفت عجلة تنميته على خصائصه وامتيازاته.

وأمّا المجتمع القيّم فهو ذلك الذي يتمتّع بخصائص بارزة تميّزه في المجتمع الدولي، والنظام الناجح للمجتمعات البشرية هو النظام الذي يتمتع بالزعامات التي يفرزها فكر ونضج ذلك المجتمع.

وقد التفتت الدنيا اليوم إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ البلدان إنّما تحتذي حذو الشعوب المقتدرة الحيّة في إعداد وبلورة شعوبها، حيث يشكّل هذا الاحتذاء البنية التحتيّة لخلق المجتمع المطلوب.

إلّا أنّ التحقيقات والدراسات التي قام بها علماء الاجتماع بشأن عناصر ظهور المجتمعات الناجحة أو الفاشلة تفيد أنّ الشعب الحي هو الشعب الذي يقود مسيرته الأفذاذ من الزعماء الحكماء والقادة النجباء يمسكون بمقدّراته ويتولّون ديمومته وحفظ حيويّته بفضل أفكارهم السامية وتطلّعاتهم النبيلة.

القرآن الكريم:

لقد قدّم القرآن الكريم ـ كتاب المسلمين ـ هذه الأطروحة العالمية العظيمة من أجل إرساء دعائم المجتمع الحيّ وحفظ سيادة المسلمين في الأسرة الدولية.

وقد عزا الكتاب الحكيم ظهور البلدان العامرة والمستقلة ذات الشعوب المقتدرة إلى وجود القادة الأكفّاء والثقة بالله والانفتاح على الغيب. وقد لفت القرآن أنظار المسلمين إلى أطروحته المذكورة المتمثّلة بالقادة الذين يتكفّلون بسعادة الأمّة في الدارين فقال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[1]. كما أرشدنا إلى تحقّق الأمّة المنيعة التي ينظر إليها العالم بعين

(١) سورة النساء: الآية ٥٩.

الإجلال والإكبار والتي تمتلك عناصر القوّة والفكر في ظلّ الزعامة الدينيّة الرشيدة فقال: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُلْكاً عَظِيماً﴾[١].

وعليه فالمدرسة القرآنية تولي أهمّية للزعماء الربّانيين في نشوء البلدان المستقلّة المرفّهة السعيدة.

أهل البيت:

وبناءً على ما تقدّم فإنّ هناك صفوة من أهل بيت النبي الأكرمﷺ تنهض من بعده بقيادة الأمّة وإيصالها إلى سعادتها وكمالها المنشود. هذه الصفوة الجليلة الحافظة للوحي والأمينة على العقيدة والناهضة بزمام أمور الإسلام، هي أهل البيت وولاة الأمر الوارد ذكرهم في القرآن وأطروحة القرآن هي أنّ زعامة أهل البيت تخلق الأمّة المقتدرة والرشيدة التي تسود العالم؛ وذلك لأنّهم صفوة عالمة، رشيدة، زاهدة، شجاعة، كريمة، مضحيّة، عالمة بأسرار القرآن، مستندة إلى الغيب، ربيبة مدرسة النبوة والمصطفاة من قِبل اللّه، فهم القادة الذين يتكفّلون بضمان سعادة الأمة، وهم الزعماء المفعمون بحبّ اللّه؛ رحماء بالأمّة لا يكنّون لها سوى الرأفة والشفقة.

لقد نعتهم القرآن وأثنى عليهم بمختلف الصفات، ومن هنا منحهم صفة الزعامة المطلقة: «أولي الأمر». فهم وبلطف اللّه وعنايته منزّهون عن كلّ آفة روحية، ذوو بصائر ثاقبة وصدور منشرحة وقلوب أوعية لعلم اللّه. هم من نسمّيهم الأئمّة الأطهارعليهم السلام.

(١) سورة النساء: الآية ٥٤.

طموحات المجتمعات:

تتطلّع المجتمعات الحيّة لمثل هؤلاء الزعماء في تحقيق أهدافها وسعادة شعوبها؛ لأنّها أيقنت بأنّ سعادتها مرهونة بوجود هؤلاء القادة البررة. وقد تفضّل البارئ سبحانه علينا بأن جعل الأئمّة الأطهار عليهم السلام قادتنا إلى السعادة والفلاح. وهكذا يتبلور المجتمع الشيعي اليوم وبالاستناد إلى هؤلاء البررة بما يلفت انتباه العالم إلى رشده وازدهاره وتربيته الصائبة الناجحة.

مهمّتنا:

إنّنا إنّما نواجه حدودنا واعتبارنا الإنساني إذا ما قصّرنا في تخليد أئمّتنا والاعتزاز بهم، فأنّى لهذه الطائفة الحقّة أن تبلغ الكمال والرقي ونيل الأهداف المقدسة إن غيّبت العدالة واندثر العلم وزال الورع والتقوى.

ولعلّ العدو الغاشم المتربّص ـ الذي يهمّ بشق عصا المسلمين و تجريدهم من عظمتهم ومجدهم ـ يرى أنّ أفضل سبيل يمكّنه من تحقيق أطماعه وسلب الأمّة هويتها إنّما يكمن فيما يوجّهه من ضربة قاصمة لزعامتها الربّانية، الأمر الذي ينبغي أن يلتفت إليه المسلمون ويتأمّلوا ما يستنبطه من أفكار هدّامة لا تضمر سوى توجيه سهامها المسمومة نحو زعمائنا الربّانيّين الأئمّة الأطهار عليهم السلام انطلاقاً من بعض المسمّيات الخلّابة من قبيل الثقافة والانفتاح و حرية الفكر وما إلى ذلك من المفردات القلقة.

فأعداء الإسلام لا يتورّعون في التشبّث بكلّ الوسائل من أجل الوقوف بوجه عناصر القوّة والشخصيات التي يعتمدها القرآن الكريم، فخوار عجل السامري ما زال يسترجع في حناجر الأجانب الطامعين.

وعليه فلاينبغي الانسياق وراء هذه الأطروحات الزائفة والأساليب العصرية التي لا تنوي سوى النيل من عظمة القرآن الكريم والقضاء على الإسلام العزيز.

الدافع من تأليف الكتاب:

إنّ الدافع الذي يقف وراء تأليفنا لهذا الكتاب هو ما برز اليوم في أوساط المجتمع الإيراني الذي يهدف إلى استغفال الشباب من خلال ما يسمّى بـ«الانفتاح الفكري» و«الدين الميسَّر» المغلّفة بشعار «حسبنا كتاب اللّه» الذي يعني الإسلام من دون زعامة النبي عليه السلام وهداية أهل بيته الأئمّة الأطهار عليهم السلام هم القادة والزعماء الأدلّاء على الطريق، فإن أصررتم على هذا الشعار كان عليكم الإقرار بزعامتهم على ضوء تأكيدات الكتاب، فزعامتهم ومكانتهم لا تخرج عن إطار القرآن ألبتة.

لقد حاولنا طرح المباحث العلميّة بأسلوب ميسّر، ليتسنّى لنا الردّ على الأسئلة والاستفسارات التي تدور في الأذهان. وقد استندنا إلى القرآن الكريم في كلّ بحث، أمّا التمسّك بأخبار أهل البيت في بعض الموارد فإنّما كان على سبيل تأييد ما ورد في القرآن، في حين غضضنا الطرف عن مثل هذه الأخبار في إثبات إمامة الأئمّة عليهم السلام.

يشتمل الكتاب على أربعة أقسام، يقتصر الهدف الأصلي للكتاب على الأقسام الثلاث الأولى منه، بينما يتكفّل القسم الرابع ببحث علم سيّد الشهداء ومعطيات نهضته المباركة و... فهو ليس بأهميّة الأقسام الثلاث التي تتعرّض لقضية الإمامة من وجهة نظر القرآن. وبالطبع فإنّ بحث الإمامة ليس من الأبحاث الجديدة، فقد ألّف كبار علماء الشيعة ومحدّثيهم عدّة مؤلّفات بهذا الشأن من قبيل:

١ ـ كتاب الشافي للسيد المرتضى علم الهدى، المتوفّى عام ٤٣٦.

٢ ـ كتاب الألفين لآية اللّه جمال الدين العلّامة الحلّي المؤلَّف تلبية لطلب ولده الجليل فخر المحقّقين المتوفّى عام ٧٢٦.

٣ ـ إحقاق الحقّ للقاضي نور اللّه، المتوفّى سنة ١٠١٩.

٤ ـ غاية المرام للسيّد هاشم البحراني، المتوفّى سنة ١١٠٧ أو ١١٠٩.

٥ ـ الصراط المستقيم إلى مستحقّي التقديم لعلي بن يونس النباطي البياضي،

المتوفّى عام ٨٧٧.

٦ـ عبقات الأنوار للمير حامد حسين الهندي، المتوفّى عام ١٣٠٦.

٧ـ الغدير للعلّامة الأميني، المتوفّى عام ١٣٩٠، وعشرات الكتب الحديثة بلغة بسيطة.

آملين أن توفّر مطالعته بعض الفوائد لكافّة الإخوة من الباحثين والمحقّقين والمثقفين والشغفين بمقام الإمامة. سائلين الإخوة من العلماء الأعلام والمطّلعين الغضّ والإغماض عمّا بدر منّا من زلل وخطأ. ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا.

شهاب الدين الإشراقي ـ محمّد الفاضل اللنكراني

الإمامة

على ضوء القرآن الكريم

قبسات من شرائط الإمامة

علم الإمام عليه السلام

علم الإمام سيد الشهداء عليه السلام بحادثة كربلاء

الإمامة على ضوء القرآن الكريم

ترى الشيعة أنّ الإمامة منصب إلهي، فهم يقولون: ليس للدين من خلود وبقاء إذ كان هناك فراغ يعقب النبيﷺ لا وظيفة للدين فيه، كيف يجوز على الله الذي ارتضى الإسلام للناس ديناً خالداً إلى الأبد أن يترك الناس سدىً بعد الرسول الأكرمﷺ دون أن يعيّن لهم وظيفتهم في حفظ أساس الدين وتطبيق التعاليم الإسلامية؟

وبناءً على هذا، لابدّ أن تكون هناك صفوة تنهض بمسؤولية زعامة المسلمين وتتولّىٰ بيان الأحكام والتعاليم القرآنية للأُمّة الإسلامية وتتكفّل بحفظ الشريعة السمحاء وإرشاد المسلمين والعمل على حلّ مشاكلهم ورعاية ديمومة الدين.

إذن فالإسلام يتطلّب وجود الإمام بعد النبيﷺ، فإذا فوّضت الإمامة إلى الناس كان معنى ذلك تزلزل أركان الدين الإسلامي القائم على أساس بسط العدل والقِسط وإشاعة التوحيد وسلب روح الفضيلة وأُسس الوحدانية؛ وذلك لأنّه

أوكل الأمّة لنفسها وخوّلها انتخاب الإمام، رغم وجود البعض من عبدة الأهواء وحبّ الجاه والرئاسة الذين لا يتورّعون عن اعتماد الحيلة والخداع من أجل الحكم والأخذ بزمام الأمور؛ وهذا لن يؤدّي بالتالي إلّا إلى سيادة الظلمة والطُغاة الذين يتّخذون عباد الله خولاً وماله دولاً.

وعليه وبحكم العقل والمنطق فإنّ الله الذي أراد لدينه المُبين أن يكون الدين الخاتم والخالد إلى يوم القيامة، والذي أسّس بُنيانه على أساس حكومة العدل والقِسط وبثّ العلم وإشاعة الحريات والحياة الخالدة والعيش الهنيء الذي تسوده المساواة والمواساة، قد فرغ من تحديد تكليف المسلمين لمرحلة ما بعد رحيل النبي، حذراً من الهرج والمرج والفوضى التي تخلّفها حكومة الطُغاة، والتي تقود في خاتمة المطاف إلى زوال الدين.

وهذا ما دفع بالطائفة الحقّة لأن تؤمن بأنّ الولاية والإمامة منصب إلهي ربّاني كالنبوّة، حيث أوجبها الله وحصرها في صفوة من أجل خلود الدين وبقاء كلمة التوحيد وسيادة حكومة العدل العالمي.

هذه خلاصة مقتضبة من حكم العقل الذي يرىٰ ضرورة وجود الإمام بعد النبي من أجل زعامة الأمّة الإسلامية وإدارة شؤونها، كما يدرك هذا العقل بأنّ الله سبحانه قد أودع هذا المنصب لمن هم أهليّة القيام بمسؤوليته.

القرآن والإمامة:

ما يُفهم من القرآن الكريم أيضاً هو أنّ الإمامة منصب إلهي، ولابدّ لنا من أجل توضيح هذا الأمر أن نستعرض النصوص القرآنية.

فالذي يفيده القرآن هو أنّ إمامة الأُمّة والولاية عليها إنّما تفوق النبوّة، أي أنّ صلاحية الإمامة متوفّرة في النبي، حيث إنّ مجابهته للأحداث والوقائع المريرة

جعلت مقام النبوّة أعظم ثقلاً فأمدته بالأرضية الخصبة لممارسة منصب زعامة الأُمّة وإمامتها.

وعليه فلا ينبغي أن يسيء أحد فهم هذه القضية ليتصوّر بأنّنا نريد أن نقول: إنّ الإمام فوق النبي. كلّا، بل المقصود هو أنّ الإمامة فوق النبوّة وأنّ النبوّة قد تشتمل أحياناً على الإمامة.

ومن هنا يتّضح بأنّ كلّ نبي في نفس الوقت الذي يبلغ فيه مقام النبوّة ويخبر عن المغيّبات فهو إمام للأُمّة قد محّص بالبلاء ليكون جديراً بتولّي منصب الإمامة.

فالنتيجة التي نخلص إليها أنّ القرآن في الوقت الذي يُعتبر فيه الإمامة منصباً إلهياً، يلفت الإنتباه إلى مزيّتها التي تفوق النبوّة، والآن نتناول بالبحث، الآيات القرآنية الواردة بهذا الخصوص:

الدليل الأوّل من القرآن

قال سبحانه في كتابه العزيز: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ﴾[1].

دراسة الآية الكريمة:

«الكلمة» أحياناً تطلق هذه اللفظة ويُراد بها المعنى، كما تُطلق أحياناً أُخرى على الكلام «وكلمة بها كلام قد يؤم»، وقد أطلقها القرآن الكريم على لسان آياته على نوع من الحقائق، كما عبّر عن عيسى عليه السلام بأنّه كلمة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾[2].

فعيسى عليه السلام حقيقة قيّمة وإنسانية مدهشة عجيبة، وأنّ اسم هذا الإنسان العجيب هو «عيسى بن مريم».

إذن فالكلمة إشارة إلى تلك الحقيقة والحدّ الوجودي لعيسى، واسم هذا

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٤٥.

الموجود أو الكلمة هو عيسى، وتوكل التفاصيل إلى محلّها[1].

«الابتلاء» الامتحان والتمحيص، ولمّا كان أصله هو البلاء، فكلّ تمحيص وامتحان اشتمل على البلاء والمصاعب كان ابتلاءً.

«الإتمام»: الإكمال والإتقان.

الهدف من الامتحان:

الهدف من الامتحان هو دراسة قوى الشخص الممتحن والوقوف على استعداداته بالنسبة للمادّة التي تخضع للامتحان، فلو امتحن شخص في مسألة رياضية، فإنّه يكون موفّقاً في الامتحان ويُكتب له النجاح إذا تمكّن من حلّ المسألة بصورة صائبة، أمّا إذا عجز عن حلّها وفشل عن الإتيان بالإجابة الصحيحة، إلّا أنّه كتبها بخطٍّ واضح جميل فإنّ درجته في الامتحان صفر رغم أنّه أجاد كتابتها بخطٍّ لطيف.

لقد محّص إبراهيم بعدّة حقائق مريرة وقد اجتازها بقوّة، وقد خرج مرفوع الرأس أمام الحقّ المطلق في هذا الاختبار والتمحيص.

نعم ما محّص به إبراهيم كان بعض الحقائق الصعبة المريرة، أمّا الغرض من ذلك التمحيص فقد تمثّل بالوقوف على صموده وتجلّده تجاه تلك الحقائق، وحيث نجح في الامتحان، فقد اتّضح بأنّه عالم ثابت الجِنان صلب بالنسبة لمواد الامتحان.

النبي إبراهيم والتمحيص:

١ ـ لقد محّص إبراهيم بالإنابة إلى الله والتوكّل على الحقّ والحقيقة والتوحيد، فخرج من هذا التمحيص مطمئنّ القلب ذا يقين خالص؛ وعليه فإبراهيم كان رجلاً

---

(١) أنظر تفسير «كلام الحقّ» لآية الله الإشراقي.

موقناً وثابت الجنان منقاداً للحق مسلماً للذات الإلهية المقدّسة.

٢ ـ إنّ إبراهيم كان يعتمد على علم جمّ في إثبات مفهوم التوحيد ووجود واهب الوجود بحيث بهت خصمه ولفّته الحيرة من منطق إبراهيم وأدلّته وبراهينه المحكمة.

٣ ـ كانت شخصية إبراهيم لا تعرف للقومية والوطنية والقبلية من معنى في قبال الذوبان والفناء في الله والثبات على العقيدة.

٤ ـ أبدى إبراهيم غاية الصبر والصمود والمقاومة من أجل عقيدته ودافع عنها مستميتاً.

٥ ـ كان خلع حبّ الدنيا عن قلب إبراهيم ـ وعدم اغتراره بزبرجها ـ هيناً عليه في جنب طاعة الله والتسليم لأوامره.

٦ ـ كشف إبراهيم عن مدى شجاعته وعمق شخصيته الذاتيّة في إطار مواجهته لطاغوت عصره نمرود.

٧ ـ أثبت إبراهيم باستجابته لذبح ابنه مدى زهده في الدنيا وعشقه للجمال الإلهي المطلق، وأنّه لا يملك لنفسه من خيرة تجاه أمر الله سوى الطاعة والتسليم، وليس هناك من علاقة أسمى من العلاقة بالله والرغبة بامتثال أوامره، وليس هنالك من أثر يمكنه الحدّ من هذه العلاقة حتّى رابطة الأب بابنه وإن كان وحيده، فقد ملئ قلبه بحبّ الله ولم يدع فيه مثقال حبّة من خردل لحبّ غيره.

مواد التمحيص:

يتبيّن من النقاط آنفة الذكر أنّ المواد التي مُحّص فيها إبراهيم، وقد اجتازها بنجاح هي عبارة عن: اليقين التامّ والإدراك الكامل للحقّ والحقيقة وخالق العالم،

والصبر والاستقامة لإثبات وجود الله، وامتلاكه الحجّة القاطعة والعلم الذي يدعو للحيرة والذهول، والحلم والتضحية والزهد والتغاضي عن زخارف الدنيا وزبرجها، والشجاعة والمروءة واحتمال الصعاب، ومحاربة الأفكار الضالّة وعدم التأثّر بعواطف العوامّ إلى آخر ما هنالك.

أجل لقد مُحّص إبراهيم بهذه المواد وقد وفّق فيها جميعاً، وهو نبيّ، فلمّا مُحّص بهذا التمحيص وكُتب له النجاح والتوفيق جعله الله إماماً مُفترض الطاعة على الناس.

إذن: فالإمامة لا تتوقّف على قوميّة الشخصية أو روابطها النسبية، وهي ليست تفويضية، كما أنّها ليست خاضعة لآراء الأمّة ووجهات نظرها من أجل تحديد مصير البلاد والإسلام، ولا يمكن لرأي أفراد الأمّة أن يعيّن الزعامة على الأمّة على ضوء النظرة الإسلامية، بل الإمامة في عرض النبوّة وتابعة للإرادة الإلهية وهي منصب ربّاني رفيع لا يشغله إلّا من كان له علم كافٍ ودراية بالأحكام والتعاليم الإلهية وإشاعة روح التوحيد، ليتسنّى له الردّ علىٰ الشبهات والإشكالات التي تثيرها سائر الأديان ضدّ الله والدين، وتفنيد النظريات والفرضيات الجديدة التي تهدف إلى زعزعة أساس التوحيد.

وعلىٰ هذا فلابدّ أن يكون عالماً بأفكار الناس وعقائدهم وأُسلوب تفكيرهم، إلىٰ جانب وقوفه على العلوم التي من شأنها تهديد الدين الإسلامي الحنيف.

بل الإمام هو الشخص الذي لا تأخذه في الله لومة لائِم ولا يخشىٰ القِتال من أجل الإسلام، وألّا يُكلّف سوىٰ نفسه في هذا الشأن.

والإمام هو الشخص الذي لا تزحزحه الشدائد والويلات والمصائب المروّعة عن الاستقامة والثبات على الحقّ، فهو مثال الصبر والحلم.

والإمام هو الشخص الذي ليس لزخارف الدنيا وزينتها من سبيل إلىٰ روحه الآمنة ونفسه المطمئنّة.

والإمام هو الشخص المُستقيم والصامد المضحّي الذي ليس لأفكار العامّة وخرافاتها وانصياعها للأراجيف والأوهام أن تبعده عن الدفاع عن العقيدة، ويعيش الاستقامة والصلابة تجاه العواطف الطائشة البعيدة عن التعقّل والمنطق.

وأخيراً فالإمام هو الشخص الذي يمتلك الشجاعة والإقدام الذي لا يدعه يصمت مقابل القوّة الجبّارة التي تناهض الله والحقّ، بل تدفعه شجاعته لإحقاق الحقّ والإفصاح عن حقائق الدين.

ما مرّ معنا كان قبسات مقتضبة من شرائط الإمامة، وسنخوض بصورة أكثر تفصيل في هذا الموضوع من خلال دراسة الآيات الأُخرى الواردة بهذا الشأن.

الدليل الثاني من القرآن

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[1].

كلمة «أمر» لفظ عامّ يشمل جميع الأقوال والأفعال، ويمكن اعتباره هنا بمعنى أعمال المجتمع وشؤوناته.

ولا يُستبعد هنا أن يكون المُراد بالأمر المعنى الاصطلاحي، فيكون المُراد بأولي الأمر في هذه الحالة الأفراد الذين لهم صلاحية الآمرية أو إصدار الأوامر، وكأنّ أوامرهم على درجة من الاعتبارية ووجوب الاتّباع بحيث عرفوا في القرآن بهذه الصفة «أُولي الأمر» أي الأفراد المطاعون في كلّ ما يأمرون به، فالصفة المذكورة ملازمة لهم، وهي من قبيل الصفة التي ينعت بها بعض الناس الذين ينشطون في مجال الصناعة والاستثمار، حتّى صارت صفتهم التي يعرفون بها فيطلق

(١) سورة النساء: الآية ٥٩ .

عليهم أصحاب الصناعة.

وبناءً على ما تقدّم فإنّ هناك جماعة من الناس تميّزت في إسلاميتها بحيث وجبت طاعتهم فيما يأمرون وينهون، ومنصبهم هو منصب إلهي يتميّز بالإمرة حتّى عرفوا بأنّهم «أُولي الأمر».

وبالطبع فإنّ هنالك مسألة لم يلتفت إليها البعض من أولئك الذين خاضوا في مِصداق أُولي الأمر أو استغرقوا في مفهومه، فذهبوا إلىٰ أنّ الأمر بمعنى شأن من الأفعال والأقوال، ففسّروا أُولي الأمر على أنّهم الأفراد الذين تكون كافّة الشؤون والأُمور تحت تصرّفهم وولايتهم.

بحث في الآية المباركة:

الطاعة هي اتّباع الأمر، إذن فمفهومها يفيد صدور الحكم والأمر من المطاع، طبعاً الأصل الأوّلي هو عدم وجود حكومة وإمرة لفرد على فرد آخر. فالإنسان كائن خُلِق حرّاً، وينبغي أن يعيش الحرية في الفكر والعمل، فالحرية جزء من فطرة الإنسان والأصل الابتدائي لخلقته الإنسانية، وذلك لأنّه مجهّز بالفكر والعقل والإرادة، ولا معنى لسلبه حرية التفكير والإرادة، فهو إنّما يستطيع اتّخاذ القرار في تقرير مصيره وأعماله وأفعاله على ضوء العقل، الفصل المميّز للإنسان، فهو يشخص الأمور بقوّة العقل ثمّ تأتي إرادته في تحقيق الصالح من الطالح من الأعمال.

وبناءً على هذا فهو حرٌ ومختار في تقرير مصيره وأعماله وأفعاله علىٰ ضوء إدراكه وعقله، وليس للآخرين من سبيل لأنْ يجرّدوه من حريته في الفكر والعمل واتخاذ القرار وأن يفرضوا قوّتهم على إرادته. أضف إلى ذلك أنّ الفرد الذي يرىٰ نفسه خاضعاً لتشخيص الآخرين وامتثال أوامرهم ونواهيهم إنّما هو فرد ذليل؛ لأنّه ليس هنالك من امتياز لأحد علىٰ آخر في الخلقة الأُولى حتّى يستسلم فرد

لآخر، ولذلك نقول بأنّ الأصل الأوّلي هو عدم حكومة فرد لفرد آخر أو عدّة أفراد.

وعلى ضوء ما تقدّم فإن كان هنالك بعض الأفراد الذين يتمتّعون ببعض السمات والامتيازات فهم يتمتّعون ببُعد الآمرية قطعاً.

كالأفراد الذين يضاعفون من قواهم العقلية إثر كثرة الدراسات والتحقيقات العلمية والتجارب في الحياة، فتكون لهم قدرة تميّزهم عن الآخرين في تشخيص الأمور وتحديد العناصر الأساسية التي تلعب دوراً في تحقيق سعادة الإنسان وفلاحه، فمثل هؤلاء الأفراد وبفضل كونهم أكثر دراية وبصيرة وأعظم قوّة واقتداراً وملكة عقلية في إدراك الأمور بما لا يسع الآخرين دركه أن يكون لهم حقّ الإمرة والحكومة على الأفراد الذين يفتقرون لتلك المواصفات.

ولذلك نرى الفطرة تقود إلى هذا النهج والأُسلوب، فالطفل الذي يقصّر عن تشخيص الأشياء أو يفتقر لهذا التشخيص يطيع والديه ويمتثل ما تقتضيه مشيئتهما، وهذا ما عليه الحال بالنسبة للجاهل تجاه العالم، والفرد الخام إزاء الناضج، والقلق الخاوي حيال المستقرّ المحكم، فهو يطيعه ويقتفي أثره في طريقة حياته.

إذن فالأصل الأوّلي يفيد عدم تميّز الأفراد على بعضهم البعض، والحرّية في العمل، وعدم حكومة فرد لآخر، إلّا أنّ هذا الأصل قد يخرق في بعض الحالات ولا يمكن تطبيقه، فإذا كان هناك شخص أو أشخاص يتمتّعون بقدرات فكريّة وعقليّة تفوق الآخرين، فإنّ الفطرة تقتضي في هذه الحالة بضرورة تبعيّة الجاهل للعالم والناقص للكامل والضعيف للقوي.

أمّا الأمر المهمّ الذي لا ينبغي أن يغيب عنّا هنا هو أنّ طاعة الجاهل للعالم لا تقتصر على علمه فقط، وانقياد الفرد البسيط للناضج الحكيم إنّما يختص بما له فيه الحكمة وهكذا دواليك.

ولكن إذا فرضنا فرداً كان نموذجاً للآخرين في تجاربه، ويفوق جميع الناس

علماً وعملاً وقدرة وبصيرة وفكراً وإحاطة بدقائق الأُمور، وكان وجوده علماً وإدراكاً ودراية وحكمة، ولم يقصر ببصره على الدنيا، بل امتدّ نظره إلىٰ الآخرة بما يجعله قادراً علىٰ إرشاد الناس وهدايتهم إلى الفلاح والسعادة والفوز بالحياة الأبديّة، بل إذا كان علمه خارقاً محيطاً بجميع الكمالات والسعادات الأبديّة، وكان له عقل نوراني ليس معه ظلمة، بل كان كائناً ملائكياً ومنبعاً للفضائل والخصال الحميدة، فهل ترىٰ الفطرة في هذه الحالة أن تكون طاعته محصورة في حدود معينة، كأن يُطاع في مورد ويعصى في آخر؟ أم أنّ الفطرة تقتضي التسليم له واتّباعه حيثما حلّ والاستسلام إلى حكومته وتفويضه كافّة مقدّرات حياته، ليتسنى له أن يبلغ الكمال الإنساني، وبالتالي يكون المجتمع مجتمعاً مقتدراً فاضلاً يسوده العدل والقسط حتّى تصبح البلاد في ظلّ طاعته بمثابة المدينة الفاضلة؟

لاشكّ أنّ حكم العقل واقتضاء الفطرة يرى أنّ طاعة مثل هؤلاء الرِجال العِظام لابدّ أن تكون طاعة مطلقة عمياء، وسوف لن تعدّ هذه الطاعة مذمومة، ولا تتعارض مع الوجدان والعقل ولا تتضارب والطبيعة الأُولىٰ في عدم أحقيّة حكومة فرد لآخر، بل هي طاعة سليمة كما يراها العقل ويدعو إليها.

فالذي نخلص إليه ممّا سبق أنّ الأصل الأوّلي وإن أفاد عدم حكومة وإمرة فرد على آخر، إلّا أنّ هذا الأصل لا يصدق في بعض الأحوال؛ لأنّ العقل يحكم بلزوم طاعة الأُمّة لأفرادها من ذوي الفضل والكمال، لكن إذا كان فضله وامتيازه محدوداً كانت طاعته محدودة أيضاً، وإن كانت امتيازاته مطلقة كانت طاعته مطلقة في كلّ شيء.

لمن الطاعة ؟

سؤال: إنّ ما قيل علىٰ سبيل الفرض هو عين الصواب؛ لأنّ العقل يقضي

بالطاعة المطلقة للإنسان بالصيغة المذكورة سابقاً، أي إذاكان المُطاع هو فرد أكمل من الجميع في كافّة الكمالات وأعلمهم في جميع العلوم الإنسانية وأعرفهم بسبيل سعادة الإنسان وفلاحه، فإنّ العقل يحكم بجواز بل بوجوب طاعته، ولكن أين مثل هذا الفرد؟ ولمن ينبغي أن يسند هذا المقام لنطيعه؟

جواب: لقد تكفّلت الآية القرآنية ـ آنفة الذكر ـ بحلّ إشكالية هذا السؤال، فالطاعة المطلقة لله، والله هو الذي عدّ طاعة الرسول كطاعته، كما أنّ الله هو الذي أوجب طاعة أُولي الأمر.

وعليه فمصداق ذلك الفرد ليس سوى رسول الله وأُولي الأمر، لكن يبدو أنّ هناك نقطة مهمّة وردت في الآية لابدّ من الالتفات إليها، فقد وردت لفظة «الطاعة» مكرّرة في الآية، حيث قالت: ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ ونفهم من هذا التكرار أنّ طاعة رسول الله في طول طاعة الله، فطاعة الله لا ينبغي أن يتخلّلها أيّ تأمّل ولا يشوبها أيّ توقّف، أمّا طاعة الرسول الواقعة في طول طاعة الله فهي إنّما تنتهي إلى إرادة الله وتؤدّي إلى تحقّق التوحيد والعدل والفضائل، وإلّا فإنّ طاعة الرسول ليست لازمة قطّ إذا كانت على الخلاف من ذلك، وكان السبيل الذي يسلكه لا ينتهي إلى الله والفضيلة وتحقيق السعادة للناس ولا يقود إلى الكمال، بينما قال سبحانه ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي أنّ ما يقوله إنّما هو الشيء الذي يجب أن يؤول إليه البشر، والحكومة التي ينهض بها إنّما تمثّل الحكومة التي يجب أن تنضوي كافة الإنسانية تحت لوائها، لتتمكّن الأُمّة في ظلّ تلك الحكومة وزعامة ذلك القائد أن تنال الحياة الآمنة والوادعة المستقرّة المشتملة على السعادة، وأن تجعل دنيا الناس حرّة سعيدة متّصلة بالآخرة بعيدة عن كلّ خمول وتخلّف، سواء في الحياة الدنيوية أو في كسب الفضائل والتزوّد للحياة الأُخروية الأبديّة.

ثمّ أردفت عبارة الآية ﴿وأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلِي الْأَمْرِ﴾ ولم تتكرر

كلمة «الطاعة» ويعود عدم تكرار الطاعة إلى تساوي ووحدة هدف طاعة الرسول وطاعة أُولي الأمر، فكما أنّ طاعة الرسول تؤدّي إلىٰ السعادة والفلاح وحكومته تبسط الاستقرار وتشيع الخير والصلاح فإنّ طاعة أُولي الأمر كذلك.

إذن فطاعة الرسول هي طاعة أُولي الأمر، وليس هنالك أدنى تفاوت واختلاف في الآثار والفوائد التي تترتّب على كلّ طاعة، سواء كانت طاعة الرسول أم طاعة أولي الأمر.

وعوداً إلى الآية الشريفة، فإنّها ذكرت طاعة النبي وأُولي الأمر وأوجبتها بصورة مطلقة، وحيث أوردتها علىٰ نحو الإطلاق، فإنّ ذلك يعني أنّ طاعتهم لازمة في كلّ الأُمور.

وعلىٰ ضوء هذا الإطلاق وما ورد في المقدّمة يتحصّل أنّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر إنّما هم أفراد يتمتّعون بقوى وقدرات تفوق سائر البشرية، كما يتبيّن أنّهم في قمّة السموّ وذروة الكمال الإنساني، وهم أعظم من غيرهم في العقل والإدراك والبصيرة والخبرة بكافّة حوادث الدنيا وطرق السعادة والفلاح، بحيث يحكم العقل وتقضي الفطرة بوجوب تسليم كافّة العُقلاء والعلماء والمجرّبين فضلاً عن سائر شرائح الأُمّة لهم في كافّة شؤون حياتهم الدنيوية والأُخروية.

خلاصة البحث:

١ ـ الأصل الأوّلي يقتضي عدم أحقيّة حكومة فرد أو أفراد لفرد أو أفرادٍ من الآخرين.

٢ ـ المبنى الأساس لصحّة هذا الأصل هو عدم وجود التمايز بين شرائح الأُمّة من حيث قوىٰ العقل والإدراك وسائر الصفات والخصائص المميزة، وليس هناك من معنى للطاعة في هذه الحالة سوىٰ صورة واحدة، وهي «الترجيح بلا مرجّح» وهذا الترجيح مرفوض بحكم العقل.

٣ـ يشذّ هذا الأصل في بعض الحالات ولا يصحّ تطبيقه، أي في الحالات التي يكون فيها امتيازات لفرد أو بعض الأفراد على الآخرين من حيث الفضائل المعنوية والقوى العقلية والبصيرة بالأُمور، فإنّ طاعة مثل هؤلاء الأفراد طبيعية بل ضرورة لازمة بحكم العقل والفِطرة، إلّا أنّ هذه الطاعة إنّما تكون بمقدار الامتياز وموارده.

٤ ـ إذا كان هناك أفراد يتمتّعون بامتيازات مطلقة غير محدودة في كافّة الكمالات، فإنّ طاعة الآخرين لهؤلاء الأفراد بحكم العقل مطلقة لا تعرف الحدود، أي لابدّ من اقتفاء آثارهم في كلّ أمر والائتمار بأوامرهم ونواهيهم والتسليم والانقياد التامّ لهم.

٥ ـ طالما أقرّت الآية الكريمة طاعة الرسول وأُولي الأمر في طول طاعة الله وأوجبت على الأُمّة مطلق الطاعة، فالذي يتبيّن على هذا الضوء أنّ ولاة الأمر في الإسلام كرسول الله في أنّهم ممتازون مطلقاً في جميع الصفات الإنسانية والكمالات الروحية.

وهنا نقول بعد هذه الخلاصة: إنّنا نعرف رسول الله وهو محمّدبن عبدالله ﷺ، ونعلم أيضاً بأنّه محيط من خلال الوحي بكافّة الأسرار التي تتضمّن سعادة البشرية، حتّى أوجب القرآن الكريم طاعته المطلقة فقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾(١).

ولكن من هُم أُولي الأمر الذين جعل الله طاعتهم في طول طاعته، ثمّ قرنَ طاعتهم بطاعة رسول الله ﷺ؟

فإن قُلنا ـ علىٰ ضوء ما تقدّم ـ: إنّ القرآن والإسلام لا يرى أنّ كلّ فرد يمكنه أن يكون من ولاة الأمر وإن تمّ اختياره مِن قبل الأُمّة فإنّنا لم نقل جزافاً؛ وذلك

(١) سورة الحشر: الآية ٧.

لأنّنا ذكرنا سابقاً بأنّ لأُولي الأمر كما للرسول طاعة مطلقة، كما قلنا بأنّ الطاعة المطلقة مساوقة وملازمة للاشتمال على الامتيازات المطلقة، أي لابدّ من القول ـ علىٰ ضوء هذه الآية دون تفسيرها وتعيين مصداقها ـ بأنّ أُولي الأمر لابدّ أن يكونوا أفراداً ممّن يستند علمهم إلى معدن الوحي، وإلّا يكون علمهم جهلاً مركّباً، وألّا يقتصر على مائة آية أو أقلّ أو أكثر، كما لا يكون علمهم مستنداً إلىٰ تجارب معينة أو دراسات وأبحاث اجتماعية محدودة، بل لابدّ أن يكونوا قد نهلوا العلم ورضعوه من ثدي الوحي، وأن يكونوا عالمين بالقرآن والسُنّة محيطين بجميع أسرار الدين ومصير المسلمين وسبل السعادة وطرق الشقاوة، ولابدّ أن يكونوا أفراداً ذوي بصائر مطلقة وتامّة بأوضاع المجتمع وروحيّات الأُمّة وفي أُسلوبهم في الحكم وزعامة المسلمين.

ويجب أن يكونوا علىٰ درجة من الزهد والورع والتقوىٰ بحيث لا تحرفهم زخارف الدنيا وزِبرجها وحلاوة رئاستها عن جادّة الصواب وسبيل الحقّ، وينبغي أن يكونوا علىٰ درجة من التوسّم وقوّة التشخيص بما يحول دون خطأهم وزللهم، حتّى لا يصدروا جِزافاً الأحكام الخاطئة والقوانين المخالفة للقرآن والسُنّة فيخرّبوا البلاد ويُهلكوا العباد، كما لابدّ أن يكونوا معصومين من الذنب والخطأ والاشتباه، وأخيراً ينبغي ألّا يبخلوا بالتضحية بالغالي والنفيس والجود بالنفس من أجل عظمة الإسلام وتحقيق عزّة المسلمين ورفعتهم، وألّا تأخذهم في الله لومة لائم في إحقاق الحقّ واستيفاء حقوق المسلمين، وألّا يألوا جهداً في الدفاع عن القرآن والإسلام وتطبيق الأحكام والتعاليم الإسلامية.

إذن وعلىٰ ضوء سياق الآية وما يفهم منها نعرف مَن هم أُولي الأمر؟ فالذي يمكن فهمه من قوله تعالىٰ: ﴿وَأُوْلِى الْأَمْرِ﴾ أي وأطيعوا أُولي الأمر ـ فإنّ طاعتهم هي طاعة رسول الله، وأنّ طاعة رسول الله إنّما هي بمثابة طاعة الله ـ هو أنّ أُولي الأمر الذي أوجبت الآية الكريمة طاعتهم ليسوا إلّا أُولئك الذين رضعوا من ثدي

الوحي عرفوا كتاب الله، وعلموا بما يجري على المسلمين من حوادث، وأحاطوا بكافّة أحكام الإسلام استناداً إلىٰ منطق الوحي.

نعم، لا يمكن أن يكون ولاة الأمر سوىٰ أولياء الله الذين يتّصفون بالورع والتقوىٰ والزهد والبصيرة والدراية والزهد والعصمة والشجاعة والسماحة والمروءة والتضحية من أجل حفظ كيان الإسلام والذود عن أحكام القرآن.

مزيد من الضوء على آية أُولي الأمر:

ذكرنا آنفاً أنّ الآية الكريمة تفيد عدّة أُمور:

١ ـ كون الطاعة المطلقة ومطلق طاعة الله والرسول وأُولي الأمر واجباً وفريضة.

٢ ـ هناك سنخية بين طاعة الرسول وطاعة الله، أي أنّ الرسول لا يهدف في آمريته سوىٰ رضا الله وتحقق التوحيد وسعادة الأُمّة، وأنّ كلّ ما يأمر به إنّما يستند إلىٰ حقيقة الوحي والبصيرة التامّة والعلم الشامل بمصير البشرية والصراط المستقيم الذي ينبغي أن تسلكه الإنسانية جمعاء.

٣ ـ طاعة أُولي الأمر مساوقة لطاعة رسول الله، وعليه فلابدّ من الإذعان لهذه الحقيقة، وهي أنّهم يستندون في منطقهم علىٰ غرار رسول الله إلى الوحي، وهم يحوزون علىٰ ذات البصيرة والعصمة عن الخطأ التي حاز عليها رسول الله، وإلّا لما جازت طاعتهم المطلقة في كافّة شؤون الحياة الدنيوية والأُخروية.

ولكن هناك نقطة لابدّ من عدم إغفالها؛ وهي أنّ ولاة الأمر لا يتلقّون الوحي ـ كالرسول ـ إلّا أنّ علمهم إنّما يأتي عن طريق مجاري الوحي وتعاليم رسول الله لهم، ولكن حيث قرنت طاعتهم بطاعته فإنّ ذلك يوجب علمهم ومعرفتهم بكافّة الحوادث الخفيّة التي يعلمها الرسول ويحيط بها.

أجل، إنّ مغزىٰ هذا الكلام هو تعيين مصاديق أُولي الأمر، ولا نرىٰ من حاجة إلىٰ التعيين من خلال سائر الأدلّة، وعلىٰ هذا الضوء لابدّ من القول بأنّ جميع الأخبار والروايات المتواترة التي صرّحت بأنّ أُولي الأمر هم الأئمّة الأطهار عليهم السلام، لا تعتبر من قبيل الأدلّة التعبديّة التي تفرض علينا التعبّد بها دون الحاجة إلىٰ إقامة البراهين العقلية؛ ولابدّ من القول أيضاً بأنّ الأئمّة الأطهار عليهم السلام قد أشاروا لما من شأنه أن يفيده التأمّل والتمعّن في مفاد الآية الكريمة، ولم يستندوا في ذلك إلىٰ علمهم بالمغيبات لعدم وجود ضرورة تدعو إلىٰ مثل ذلك.

وبعبارة أُخرىٰ: فإنّ كون الأئمّة الأطهار مصداقاً لعنوان «أُولي الأمر» إنّما هو تعيين قهري لا تعيينهم هم أنفسهم، وإذا تتبّعنا الأخبار فهي ليست سوىٰ إضافة وتصريح لما أفادته الآية الكريمة، ولا يسعنا هنا إلّا أن نذكر بعض النماذج من الروايات التي صرّحت بولاة الأمر، لعلّنا نتوقّف بصورة أعمق وأكثر جديّة علىٰ الحقائق، وإليك ما ساقه الأئمّة الأطهار عليهم السلام بشأن هذه الآية وسائر الآيات المماثلة:

الحديث الأوّل:

ابن بابويه الصدوق قال: حدّثنا غير واحد من أصحابنا قالوا: حدّثنا محمّد ابن همام، عن جعفر بن محمّد بن مالك الفزاري، عن الحسن بن محمّد بن سماعة، عن أحمد ابن الحارث قال: حدّثني المفضّل بن عمر، عن يونس بن ظبيان، عن جابر بن يزيد الجعفي قال: سمعت جابر بن عبدالله الأنصاري يقول: لمّا أنزل الله علىٰ نبيّه محمّد صلى الله عليه وآله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ قلت: يارسول الله عرفنا الله ورسوله فمن أُولو الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك؟

فقال عليه السلام: هم خُلفائي يا جابر وأئمّة المسلمين من بعدي، أوّلهم علي بن أبي

طالب، ثمّ الحسن ثمّ الحسين، ثمّ علي بن الحسين، ثمّ محمّد بن علي المعروف في التوراة بالباقر، وستدركه يا جابر، فإذا لقيته فأقرأه منّي السلام، ثمّ الصادق جعفر بن محمّد، ثمّ موسىٰ بن جعفر، ثمّ علي بن موسىٰ، ثمّ محمّد بن علي، ثمّ علي بن محمّد، ثمّ الحسن بن علي، ثمّ سميّي محمّد وكَنِيّي حجّة الله في أرضه وبقيّته في عباده ابن الحسن بن علي»[1].

ملاحظة:

في الرواية عدد من النقاط الجديرة بالاهتمام، وهي:

١ ـ لقد فهم جابر من الآية الكريمة عين ما ذكرناه كراراً سابقاً، كما ذهب إلىٰ أنّ طاعة أُولي الأمر مماثلة ومشابهة لطاعة رسول الله ﷺ.

٢ ـ لقد عبّر رسول الله ﷺ عن ولاة الأمر بخلفائه وأئمّة المسلمين بعد رحيله، والحال ليس هنالك من معنى للخليفة سوىٰ الخلافة في المناصب والوظائف الرسالية.

٣ ـ لقد ذكر رسول الله ﷺ أسماء الأئمّة من بعده الذين لم يلدوا ذلك الحين، كما ذكر خصال إمامين منهم، وأنّ تسميتهم بأسمائهم وذكر بعض صفاتهم والإخبار عن لقاء جابر للإمام الباقر عليه السلام إنّما يدلّ علىٰ أنّ ذلك الإخبار كان مستنداً للوحي، وأنّ الوحي هو الذي صرّح بأسمائهم وولايتهم؛ فالذي نخلص إليه من هذه الرواية هو أنّ الله عيّن هؤلاء الأئمّة لا رسول الله ﷺ.

بعبارة أُخرىٰ: هناك فرض يصرّح بأنّ الإمامة بعد النبي ﷺ كانت متروكة له، فالنبي يستخلف من يشاء، حيث فوّض الله له ذلك. كما هناك الفرض الآخر الذي يذهب إلى أنّ الله سبحانه هو الذي عيّن الأئمّة وبيّن صفاتهم للنبي ﷺ،

---

(١) كمال الدين: ٢٥٣ ح ٣، وعنه تفسير كنز الدقائق ٢: ٤٩٣.

والرواية دليل علىٰ صحّة الفرض الثاني، وبناءً علىٰ هذا فإنّ الأئمّـة الأطـهار هـم خُلفاء النبي وقادة الأُمّة وزعماء الدين إلىٰ يوم القيامة، وأنّ خلافتهم تسـتند إلىٰ نصب إلهي، وأنّ رسول الله ﷺ لم يذكر أسماءهم وصفاتهم إلّا عن طريق الوحي.

تحقيق آخر في الآية:

ما المُراد بالطاعة التي يؤخذ بنظر الاعتبار في مفهومها الأمـر والآمـر؟ هـل تختصّ طاعة ولاة الأمر ببيان أحكام الله والحلال والحرام، أي هل يجب على الأُمّة أن ترجع إليهم وتطيعهم في الواجبات والمحرّمات والمستحبّات؟

وبعبارة أُخرى: هل أنّ الأمر بالطاعة هو أمر إرشادي يقتصر علىٰ رعـاية امتثال الأحكام الإلهية وتطبيقها علىٰ أقوال ولاة الأمر والأئمّة الأطـهار عليهم السلام، وأن ليس هنالك أيّة طاعة خارج بيان الأحكام؟ فـيكون مـعنىٰ الآيـة الكـريمة، أن ارجعوا في تشخيص الواجبات والمحرّمات إلىٰ النبي والإمـام وأطـيعوهما؟ أم أنّ ولاية الأمر تعني ولايتهم للـمسلمين في كـافّة الشـؤون الاجـتماعية والسـياسية الفردية والجماعية التي تتعلّق بمصير وتعيين أُسلوب الحكم، وأنّ ولايتهم في هـذا الحكم إنّما ترتكز علىٰ تعاليم الإسلام؟

أم أنّ الطاعة المُـفترضة أبعد من هذين الاحـتمالين، أي لابـدّ مـن وجـوب طاعتهم في الواجبات والمحرّمات والمستحبّات والمكروهات والمباحات، كما تجب طاعتهم والإذعان لهم في كافّة الشؤون الاجـتماعية والسـياسية وشـؤون الحكـم وتطبيق الإسلام علىٰ أنّهم قادة المسلمين وزعماء الحكومة الإسلامية؟.

يبدو أنّ الاحتمال الثالث هو الأقوىٰ والأتمّ، أي أنّ الأئمّة الأطـهار عليهم السلام هـم زعماء وأدلّاء علىٰ الطريق مطاعون في الأحكـام التـعبديّة، كـما أنّهـم رؤوسـاء الحكومة الإسلامية والحاكمون علىٰ مقدّرات العالم الإسلامي ومطبّقو الأحكـام

والتعاليم القرآنية؛ لأنّ ظاهر الآية ﴿أُولى الأمر﴾ يقول: وأطيعوا أُولي الأمر، ولو اقتصرت طاعتهم علىٰ الأحكام التعبديّة لما كان هناك من انسجام بين هذا الأمر والتعبير عنهم بولاة الأمر، فالأمر الذي يُعنى به الشأن أو ذلك المعنى الاصطلاحي لايمكن الاقتصار به علىٰ أحكام الإسلام، بل يمكن القول: إنّهم ليسوا آمرين في تفسير أحكام القرآن وبيان السُنّة النبويّة، إنّما هُم مفسّرون وشارحون.

ومن هنا يتبيّن أنّ ولاية الأمر تشتمل علىٰ معنى أكثر شمولية من تفسير القرآن الكريم وتبيين الحلال والحرام. وعليه: فإنّ طاعة ولاة الأمر تعني الانقياد لهم في كافّة الشؤون الاجتماعية والمهامّ السياسية للبلاد الإسلامية، وإذا أصبحوا هم القادة والزعماء وجب أن تكون للإسلام مؤسّساته وجمعياته وحكومته التي تستند إلى القرآن والسُنّة النبويّة، فالأئمّة الأطهار هم رؤوساء هذه الحكومة، وكما استطاع رسول الله ﷺ أن يشكّل الحكومة الإسلامية ويدير شؤون البلاد، فقد تزّعمها كذلك أمير المؤمنين علي عليه السلام معتمداً نفس الأُسس والخطط التي اعتمدها النبي ﷺ.

ولدينا بعض الروايات التي تؤكّد هذا الأمر:

فقد صرّحت بعض الروايات المعتبرة في كتاب الكافي وغيره بهذا المضمون: «نزلت: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول... فقال رسول الله ﷺ في علي عليه السلام: ألا من كنت مولاه فعليّ مولاه»[1].

إذن فالآية «أطيعوا الله....» بانية دعامة الوحدة الإسلامية والحكومة الإسلامية، ومعتبرة الأئمّة الأطهار زعماء هذه الحكومة.

الحديث الثاني:

محمّد بن يعقوب الكليني، عن علي بن إبراهيم، عن محمّد بن عيسى، عن

(١) الكافي ١: ٢٨٦ ح ١، وعنه تفسير كنز الدقائق ٣: ٤٩٦ ـ ٤٩٧.

يونس، عن حمّاد بن عثمان، عن عيسى بن السري قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: حدّثني عمّا بنيت عليه دعائم الإسلام إذا أنا أخذت بها زكى عملي ولم يضرّني جهل ما جهلت بعده، فقال: «شهادة أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمّداً رسول الله صلى الله عليه وآله، والإقرار بما جاء به من عند الله، وحقّ في الأموال من الزكاة، والولاية التي أمر الله بها ولاية آل محمّد صلى الله عليه وآله ـ إلىٰ أن قال: ـ قال الله عزّوجل: ﴿أَطِيعُوا اللَّـهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ فكان عليّ عليه السلام، ثمّ صار من بعده حسن، ثمّ من بعده حسين، ثمّ من بعده علي بن الحسين، ثمّ من بعده محمّد بن علي، ثمّ هكذا يكون الأمر، إنّ الأرض لا تصلح إلّا بإمام»(١).

الحديث الثالث:

محمّد بن يعقوب الكليني، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن محمّد بن أبي عمير، عن عمر بن أُذينة، عن بريد العجلي، عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّوجل: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾(٢) جعل منهم الرسل والأنبياء والأئمّة، فكيف يقرّون في آل إبراهيم عليه السلام وينكرونه في آل محمّد صلى الله عليه وآله؟ قال: قلت: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾؟ قال: الملك العظيم أن جعل فيهم أئمّة، من أطاعهم أطاع الله ومن عصاهم عصى الله، فهو الملك العظيم(٣).

وهنا لابدّ من الالتفات إلىٰ أنّ «الملك» بمعنى البلاد بضمّ الميم وبكسرها يعني المال، كما يُقال: المَلِك لصاحب البلاد؛ والمالك لصاحب المال؛ ولذلك فالله سبحانه هو ملك الوجود ومالكه ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ...﴾(٤) وحيث كانت مالكيّة الحقّ

---

(١) الكافي ٢: ٢١ ح ٩.

(٢) سورة النساء: الآية ٥٤.

(٣) الكافي ١: ٢٠٦ ح ٥، وعنه تفسير كنز الدقائق ٢: ٤٨٢ ـ ٤٨٣.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٢٦.

تبارك وتعالىٰ على الإطلاق مالكية حقيقية لا اعتبارية؛ لذلك يُقال له: «مالك الملك».

إذن فقولنا: صاحب المُلك وصاحب المِلك لا يتنافى والآية القرآنية الكريمة، وهناك الآيات القرآنية الأُخرىٰ التي تؤيد هذا المعنى في أنّ الملك بالضمّ يعنى به البلاد، فقد صرّحت الآية قائلة: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[1] إلّا أنّ هذه الآيات التي تتحدّث عن الملك لا تقتصر علىٰ الإشارة إلىٰ البلاد، بل الأهمّ من ذلك: أنّها تتحدّث عن صاحب البلاد، فمثلاً هذه الآية التي تقول بخصوص نبي الله داود: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ تفيد أنّ البلد الذي يقوده داود﵇ قد أصبح بلداً قوياً إثر زعامته وقيادته، وكأنّ الذي يتبادر من الآية أنّ قوّة البلاد إنّما تكمن في قيادته وزعامته القويّة والعالمة المقتدرة، إذن فالملك العظيم هو البلد القوي الذي يحكم من قبل زعيم قوي ومقتدر وعالم، بحيث إذا قيل: البلد الفلاني هو بلد قوّي وواسع وعامر، كان لابدّ من الإذعان إلىٰ أنّ هذه المَنَعة والقوّة إنّما تعود إلىٰ زعامة ذلك البلد.

إذن فالملك العظيم من وجهة نظر القرآن إشارة إلىٰ امتلاك الزعامة الناجحة، وهذا بدوره يزيح السِتار عن أمر عظيم في العثور على بلد عامر وقوي ومستقلّ من شأنه أن يلعب دوراً عالمياً من خلال إعتماده علىٰ ذاته ومقوّماته، أي أنّ رمز ظهور مثل هذه البلدان ليس سوىٰ امتلاكها لزعيم قوي مقتدر.

وبناءً علىٰ هذا فإنّ قول الباقر﵇ هو عين الصواب، وحقاً إنّه لباقر علوم الأوّلين والآخرين إذ قال﵇: «الملك العظيم أن جعل فيهم أئمّة...» ومن هذه الجهة فإنّ هذه الآية دليل واضح على وجوب كون الأئمّة الأطهار هُم زعماء البلاد وقادة الأُمّة، فإذا ما كانوا قادة الأُمّة كانت بلاد المسلمين قويّة مقتدرة.

---

(١) سورة ص: الآية ٢٠.

الحديث الرابع:

من الروايات المشهورة والمعروفة بين الفريقين التي لا يشكّ أحد في تواتُر صدورها عن النبي الأكرمﷺ رواية الثقلين، والتي يمكن الجزم بأنّ دلالتها صريحة في وجوب طاعة الأئمّة الأطهارعليهم السلام.

وقد صرّح العالم النحرير شيخ المشايخ وأُستاذ الفُقهاء الشيخ مرتضى الأنصاري في كتاب الرسائل ـ الذي يعدّ من الكتب النفيسة في أُصول الفقه ـ في فصل حجيّة ظواهر الكتاب[1] قائلاً: «ليس لخبر الثقلين من ظهور سوىٰ في وجوب طاعة القرآن والعترة وحرمة مخالفتهما».

وهنا لابدّ من القول: بأنّ النبي الأكرمﷺ إنّما قال حديث الثقلين تأييداً وبياناً لقوله سبحانه: ﴿أَطِيعُوا اللهَ﴾ وعلىٰ ضوء الخبر فإنّ العترة لابدّ أن تكون في عرض القرآن الكريم، فالقرآن مُطاع والعترة مُطاعة كذلك. والقرآن كتاب سماوي محيط عليم بكافّة الحوادث والوقائع التي يعيشها المسلمون، وقوانينه جارية إلى يوم القيامة، وهي أساس تشكيل الحكومة الإسلامية علىٰ مدىٰ التأريخ، والعترة المُرادفة للقرآن كذلك، ولذلك حين تطالعنا الأخبار المتظافرة التي تصف أمير المؤمنين عليعليه السلام بأنّه القرآن الناطق[2] والكتاب السماوي هو القرآن الصامت فبالالتفات إلىٰ آية ﴿أَطِيعُوا اللهَ﴾ وحديث الثقلين، ولا ينبغي أن يكون هناك شكّ وترديد في هذا الأمر.

ورغم كون هذا الأمر غنيّاً عن التوضيح وأنّ مفاد خبر الثقلين هو ذات مفاد آية ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ ولحصول المزيد من الاطمئنان، لابأس بتسليط الضوء علىٰ هذا الأمر، فنقول: هناك نوع من تجريد الفرد المطيع من الاختيار في حياته في ظلّ الطاعة

---

(١) فرائد الأصول، المعروف بـ«الرسائل» ١: ١١٩.

(٢) بحار الأنوار: ٣٩ / ٢٧٢.

المطلقة، وذلك لأنّ المطيع إنّما يجعل فكره وإرادته وعمله تحت تصرّف المُطاع، وقد ذكرنا بأنّ علّة طاعة المُطاع بنحو مطلق هي كون المُطاع يمتلك علماً مطلقاً، وبصيراً وذا دراية بكافّة سبل الهداية وطرق السعادة والفلاح، وهو عارف بنمط الحياة التي يسودها الأمن والاستقرار والسكينة، والتي لا تعرف القلق والاضطراب، كما أنّه خبير بكلّ ما يؤدّي إلىٰ السعادة والشقاوة، وحيث تحكم الفطرة بضرورة التسليم لمثل هذا الفرد، كان لابدّ من القول بأنّ الآية ﴿أَطِيعُوا اللهَ﴾ إنّما توجب علىٰ الناس الانقياد والتسليم إلىٰ الله والرسول وولاة الأمر، بالشكل الذي تكون فيه إرادة الناس تابعة إلىٰ إرادة ذلك الفرد، فلم تعد لهم من إرادة، وهذا ما يمثّل منتهى الإدراك والعقل والدراية بحيث يكون الإنسان علىٰ هذا النوع من التسليم تجاه معلّميه من ذوي العلم والبصائر ليظفر بسعادته وفلاحه.

هذا هو المعنى الذي نفهمه من الآية الشريفة، وهو نفس المعنى الذي يفيده حديث الثقلين، لاسيّما بالالتفات إلىٰ كلمة «التمسّك» الواردة في الحديث «إنّي تارك فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا أبداً: كتاب الله، وعترتي...»[1] فالتمسّك يعني التسليم والانقياد للمتمسّك به، فهي لا تفيد سوىٰ الطاعة المطلقة للمُطاع التي صرّحت بها الآية الشريفة.

وأخيراً فإنّا نرى أنّ رسول الله ﷺ قد خلّف للمسلمين ثقلين: الأوّل هو القرآن الكريم الذي يُعتبر دستور الحكومة الإسلامية وركنها الركين وقائدها، فإنّ الأئمّة الأطهار هم أساس الحكومة وزعماؤها وليس للأُمّة من سبيل سوىٰ الانصياع لقيادتهم والانقياد لهم.

خلاصة التحقيقات:

علىٰ ضوء الرواية المنقولة عن ابن بابويه القمي فإنّ النبي الأكرم ﷺ قد عيّن

---

(١) بحار الأنوار ٢٣: ١٠٤ ـ ٢٠٥ ب ٧.

ولاة الأمر، وقد كان مفاد الرواية ـ التي وردت بشأن الآية القرآنية ـ ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ ـ أنّ الأئمّة عليهم السلام هم اثنا عشر وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نصبهم بوحي من الله، أي أنّ الله هو الذي نصبهم وجعلهم أئمّة، فما كان من رسول الله صلى الله عليه وآله إلّا أن أبلغ المسلمين الخبر.

كما اتّضح من «التحقيق الآخر في الآية الكريمة» أنّ وظيفة الأئمّة لا تقتصر على شرح وبيان الحلال والحرام، بل هم زعماء الأُمّة وقادة البلاد ورؤساء الحكومة الإسلامية، وأنّ رسالتهم هي تطبيق التعاليم الإسلامية والأحكام القرآنية في العالم الإسلامي، والأُمّة مأمورة بطاعتهم ليتمكّنوا من إجراء الأحكام الإسلامية ويأخذوا بيد الأُمّة إلى شاطئ السعادة والفلاح، كما أنّ زعامتهم أبدية خالدة، كما ذكرنا بعض الروايات التي تؤيّد بل تشكّل الدليل القطعي علىٰ هذا المدّعى، وقلنا بأنّ طاعة الأئمّة لا تعني سوىٰ آمريتهم وزعامتهم للحكومة الإسلامية، كما فهمنا من رواية بريد العجلي عن الإمام الباقر عليه السلام بأنّ الأُمّة إذا أقرّت بمثل هذه الزعامة للأئمة، كانت حصيلة هذه الزعامة بلاد واسعة ومستقلّة وحرّة قائمة علىٰ أساس العدل والقسط، وقد ذكّر الإمام بأنّ شرط الحكومة الإسلامية العالمية والملك العظيم إنّما يكمن في زعامة الأئمّة الأطهار وحاكميتهم المطلقة.

كما ذكرنا بأنّ مفاد حديث الثقلين هو نفس مفاد آية الطاعة، أي أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قد جعل القرآن والعترة الركيزتين الأساسيتين لقيام الحكومة الإسلامية.

وبناءً علىٰ ما تقدّم فليست هناك من حاجة لأن نستعرض سائر الروايات لإثبات ماذا تعني ولاية الأمر؟ ومن هُم ولاة الأمر؟ وما هي وظيفة ولاة الأمر؟

إلّا أنّنا نذكّر بقضية مهمّة أشرنا إليها سابقاً، وهي أنّ شخصية الإمام ليست شخصية علمية شارحة ومفسّرة لأحكام القرآن الكريم والسُنّة فحسب، بل

الإمامة مساوية للنبوّة ومن المناصب الإلهيّة، أي أنّ الله سبحانه قد جعل صفوة من الناس بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أئمّة الدين وجعل لهم الحكومة التي يصرفون شؤونها بالاستفادة من علومهم التي ورثوها عن النبي صلى الله عليه وآله ولم يجعل الله الزعامة والإمامة الإسلامية إلّا إلى الصفوة التي اتّصفت بالزهد والبصيرة والعصمة والشجاعة والمروءة والتضحية، العالمة بأوضاع الأُمّة والتي ليس لعلمها حدود بالحوادث الواقعة، ليبقىٰ الدين خالداً أبدياً والأُمّة قويّة مستقلة سعيدة في دينها ودنياها، كما أنّ بقاء دين الحقّ وشعور المسلمين بالحياة الحرّة الكريمة والاستقلال من شأنه أن يفجّر طاقاتها ويجعلها تعيش الحياة الهانئة وتسعى لنيل الحياة الأُخرويّة.

الإمام في رسالة سيّد الشهداء عليه السلام

أشار الإمام الحسين عليه السلام إلىٰ مقام الإمام في رسالته التي بعثها ردّاً علىٰ رسائل أهل الكوفة الذين كتبوا إليه مطالبين بزعامته وتشكيل الحكومة الإسلاميّة تحت لوائه فقال عليه السلام: «فلعمري ما الإمام إلّا الحاكم بالكتاب، القائم بالقسط، الدائن بدين الحقّ، الحابس نفسه علىٰ ذات الله والسلام»[1]، فالرسالة تشير إلى لحاظين مهمّين بالنسبة للإمام:

اللحاظ الأوّل: ما هو مقام الإمام في الأُمّة؟ فالإمام ليس ذلك الفرد الذي يقبع في زاوية وينأىٰ بنفسه بعيداً عن التدخّل في شؤون الأُمّة وتحقيق مصالح عامّة الناس، بل لابدّ أن يكون الإمام هو الآخذ بزمام الأُمور وعلىٰ رأس الحكومة، وهو حاكمها المطلق الذي يسعىٰ لاستيفاء حقوق الضُعفاء من الأقوياء.

---

(١) الإرشاد لأبي عبدالله محمّدبن محمّدبن النعمان العكبري البغدادي، المعروف بالشيخ المفيد (م٤١٣). تحقيق مؤسسة آل البيت لتحقيق التراث، مجلّدان. نشر وطباعة دار المفيد ج ٢ ص ٣٩.

اللحاظ الثاني: إنّ وظيفة الإمام في هذه الحكومة هي العمل بالقرآن وتطبيق أحكامه وتعاليمه، فالقرآن لم ينزل لتقتصر الأُمّة علىٰ تلاوته، وتحتكم في عملها ووظائفها للقوانين الوضعية التي يبتدعها بعض الأفراد بما لديهم من أفكار وآراء؛ الأفراد الذين لا يسعهم النظر إلىٰ أبعد من الواقع الذي يعيشون فيه ويفتقرون للإحاطة التامّة بجميع المصالح والمفاسد، فالمجتمع في ظلّ حكومة هؤلاء الأفراد يعيش في دوامة من القلق والاضطراب والفساد والانحراف، فهي حكومة الأهواء والشهوات التي تحرق الأخضر واليابس من قيم الأُمّة.

أجل لابدّ أن يكون القرآن هو المنهج الذي تستمدّ منه القوانين في الدولة الإسلاميّة التي يتزعّمها الإمام، فتكون وظيفته الانتصار للمظلوم وبسط القسط والعدل، بحيث لا يطمع القوي في حيفه ولا ييأس الضعيف من عدله، ولا ينبغي أن ينحرف الإمام قيد أنملة في إجرائه للقوانين الإسلامية التي تضمن العدل وتزيل الظلم والجور، وأن يحبس نفسه لله ولا يرىٰ سوى رضاه.

وبناءً علىٰ هذا لا ينبغي لأيّ عنصر سوىٰ الحقّ أن يؤثّر علىٰ الإمام في بسطه للعدل والقسط، من قبيل النسب والحصول على الجاه، والقبلية والقومية، وما إلىٰ ذلك، وإلّا فهو أسير بيد الشيطان، وليس لمثل هذا الفرد أهلية زعامة الإسلام والمسلمين.

هذه هي وظائف الإمام، ولذلك قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام حين ولي أمر الخلافة: «ليس أمري وأمركم واحداً، إنّي أُريدكم لله وأنتم تريدونني لأنفسكم، أيّها الناس أعينوني على أنفسكم، وأيم الله لأنصفنّ المظلوم من ظالمه ولأقودنّ الظالم بخزامته حتّى أورده منهل الحقّ»[١].

فأمير المؤمنين إنّما يحكم من أجل الله، وحكومته إجراء العدل والانتصار

---

(١) نهج البلاغة /لمحمّد عبده: ص ٣٠٦.

للمظلوم من الظالم، لا يرىٰ سوىٰ الله وليس للهوىٰ من سبيل إليه.

وبناءً على ذلك فمن وجهة نظر أمير المؤمنين وولده السعيد الحسين الشهيد عليهما السلام أنّ الإمام هو ذلك الشخص الذي يهيّئ نفسه لقيادة المسلمين وزعامتهم، وأنّ الإمام هو الشخص الذي يتربّع على كرسي الحكم ويكوّن حكومة اجتماعية فعّالة تستهدف تجسيد العدالة والوقوف إلى جنب المظلوم، وتطبّق القرآن الكريم في المجالات المختلفة للحياة.

والإمام في تطبيقه لهذه البرامج يكون شخصيّة إنسانيّة متسامية، لا يفكّر بغير الله تعالى، ولا مجال للأهواء والشهوات في إدارة تلك الحكومة، ولا يحكم إلّا من أجل رضا الله تعالى.

وإذا لم يتّخذ القرآن الكريم برنامجاً لعمله، لا لأجل تثبيت سلطته الشخصية، التي تجد طريقها إلى قلوب الناس من خلال إشاعة العدل والتوحيد، ومن خلال هذا الطريق يحاول أن يثبّت سلطته ويُحكم سيطرته، بل تطبيق العدالة لأجل العدل وإصلاح البلاد وإعمار المدن، وإيواء المظلومين والأخذ بحقّهم، وإحياء آثار النبوّة، وحفظ كتاب الله، وأخيراً لإحياء اسم الله ودعوتهم إليه سبحانه وإقبالهم على الله تعالى بقلوب متيّمة بحبّ الذات الأقدس.

ولذلك يصف عليه السلام هدفه من الحكومة وزعامة المسلمين: «اللهمّ إنّك تعلم أنّه لم يكن الذي فينا منافسة في سلطان ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنردّ المعالم من دينك ونظهر الصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك وتقام المعطّلة من حدوك»[1].

(١) نهج البلاغة /لمحمّد عبدة: ص ٣٠٠.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة المائدة: الآية ٥٤)

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾(سورة المائدة الآية: ٥٥).

وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾

(سورة المائدة: الآية ٥٦)

الدليل الثالث من القرآن

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[1].

الولاية لله والرسول، ثمّ لعدد من المؤمنين، وكلمة «الذين آمنوا» ذات دائرة واسعة، ممّا حدا بالقرآن لقصرها علىٰ طائفة خاصّة من المؤمنين فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾.

فليس لجميع المؤمنين الولاية علىٰ الآخرين، بل الولاية لفئة منهم، فإن قيل بأنّ «الذين آمنوا» لها ظهور في عامّة الأفراد، وهي تشمل كافّة المؤمنين علىٰ نحو القضية الحقيقية، ولا تُشير على نحو القضيّة الخارجيّة إلىٰ طائفة معينة، نقول: ليس لهذا الكلام من معنى قابل للإدراك والتعقّل؛ لأنّه لا يمكن أن تكون الولاية لجميع المؤمنين علىٰ أنفسهم، فولاية الجميع علىٰ الجميع لاتكون سوىٰ الفوضى والهرج والمرج وانهيار النظام الاجتماعي، في حين وردت الآية القرآنية في مقام جعل

---

(١) سورة المائدة: الآية ٥٥.

منصب الولاية، أي كما أنّ الرسول هو ولي الأُمّة الإسلامية والقائم على تدبير شؤونها؛ فإنّ لبعض المؤمنين ـ بنص الآية ـ مثل هذا المنصب، والقرائن التي وردت قبل هذه الآية وبعدها إنّما تؤيّد صحّة هذا المدّعى.

فقد خاطبت الآية السابقة جميع المسلمين قائلة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ...﴾.

وصرّحت الآية اللاحقة بنفس المضمون قائلة: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

توضيح المُراد:

الادّعاء القائم هو أنّ العبارة «والذين آمنوا» ـ في الآية التي نحن بصدد بحثها ـ مقتصرة علىٰ جماعة معيّنة من المؤمنين، فولاية المسلمين بعد رسول الله لهذه الجماعة، والشاهد علىٰ صحّة وتماميّة ذلك الآية التي سبقت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ والآية اللاحقة ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾، فالآية الشريفة خطاب لكافّة المسلمين، فالمراد بالضمير المتّصل في جملة ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهَ﴾ هؤلاء المسلمون، والمعنى: «أيّها المسلمون إنّما وليكم الله ورسوله وبعض من المؤمنين».

أمّا إذا قلنا إنّما وليّكم الله ورسوله وأنتم المسلمون جميعاً، فإنّ هذا المعنى ليس بمعقول، فإنّه لا يمكن أن يكون للمسلمين جميعاً الولاية علىٰ أنفسهم، أفليس مثل هذا الجعل للحكم والمنصب لغواً؟ أو لا يوجب مثل هذا الأمر تصدّع وانهيار النظام الاجتماعي؟!.

أمّا الآية اللاحقة ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ...﴾ أي أنّ كلّ من امتثل حكومة وولاية هؤلاء الأفراد بعد الله ورسوله، فإنّ ذلك سيؤدّي إلىٰ ظهور مجتمع قوي مقتدر وحزب يعرف باسم حزب الله وستكون له الغلبة علىٰ الدوام.

بناءً علىٰ هذا فإنّ هناك طائفة تقرّ بهذه الولاية «ومن يتولّ الله ...» وهناك طائفة يجب أن تكون هي المتولّية للأُمور، وعليه: فعبارة «ومن يتولّ الله» إنّما تعيّن وظيفة المسلمين في الانقياد للجماعة ذات الولاية، والعبارة «والذين آمنوا» تعيّن ولاة المسلمين «إنّما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا». وبناءً علىٰ ما ذكر فإنّ العبارة «والذين آمنوا» حصرت ولاة الإسلام في جماعة خاصّة وطبقة معيّنة محدودة، إضافة إلى ما ذكرنا من أنّ الآية الكريمة ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ...﴾ قد حثّت المؤمنين على الانضواء تحت ولاية تلك الجماعة المعيّنة وتشكيل حزب هو حزب الله الذي يتمتّع المسلمون في ظلّه بالقوّة والمنعة بحيث لن تناهم الهزيمة أبداً.

فالذي نستفيده من الآيات الثلاث:ـ

١ ـ تحذير الأُمّة من التراجع والنكوص عن دينها وخسارتها للمقام الذي حباها الله تعالى به، وتذكيرها بعناصر القوّة من جهة أُخرى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ...﴾.

٢ ـ أنّ الأُمّة الإسلاميّة محتاجة إلىٰ مَن يقودها، ووليّ الأمر والقيّم على أُمورها هو الله والنبي ثمّ طائفة من المؤمنين.

٣ ـ الاستجابة لهذه الولاية ستؤدّي ـ قهراً ـ إلى ظهور حزب قوي يتكفّل بغلبة الأُمّة علىٰ أعدائها وعدم الفشل والهزيمة.

قضية مهمّة:

كان بحثنا السابق يدور حول ظاهر الآية الشريفة. أمّا إذا أردنا أن نخوض في سبب النزول فإنّ المُسلّم به هو أنّ الآية المُباركة قد نزلت بشأن أمير المؤمنين علي عليه السلام. فقد ذكر أبو ذر الغفاري: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله صلّى الظهر بالمسلمين، فدخل فقير المسجد وسأل فلم يجبه أحد، فرفع السائل يده إلىٰ السماء وقال: اللّهمّ اشهد

إنّي سألت في مسجد نبيّك فلم يعطيني أحد شيئاً، وكان عليّ عليه السلام راكعاً، فأشار إلىٰ السائل بيده فانتزع خاتمه، فلمّا رأىٰ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وفرغ من الصلاة قال: اللّهمّ إنّي أسألك ما سألك موسىٰ عليه السلام في أخيه هارون فاستجبت له، اللّهمّ اجعل عليّاً عليه السلام خليفتي، اشدد به أزري وأشركه في أمري. قال أبو ذر: فوالله ما أتمّ رسول الله صلى الله عليه وآله دعاءه حتى نزل عليه جبرائيل بالآية ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ ...﴾[1].

هذه واحدة من عشرات الروايات التي أشارت صراحة إلىٰ مصداق قوله . ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولا نرىٰ حاجة للخوض في الروايات التي وردت في سبب النزول؛ لأنّها صرّحت علىٰ سبيل القطع بأنّها نزلت في عليّ عليه السلام، علماً أنّ منهج الكتاب إنّما يستند إلى القرآن لا الروايات. أمّا الحديث، فقد أكّد أنّ «والذين آمنوا» إنّما هم عدّة خاصة، وليس للجميع النهوض بهذه الوظيفة الخطيرة المتمثّلة بالزعامة، ولا ينبغي التصدّي لها إلّا من قِبل أولئك الذين لهم صلاحية وأهلية التصدّي، وأفضل نموذج للتصدّي لها هو عليّ عليه السلام .

إذن فالقرآن الكريم في هذه الآية المُباركة قد عيّن أئمّة المسلمين، كما أشار إلىٰ زعامة علي بن أبي طالب عليه السلام، ولا يقتصر هذا الكلام علىٰ عُلماء الشيعة وكبار المحدّثين، بل ذهب مفسّرو العامّة إلى أنّ هذه الآية قد نزلت في عليّ عليه السلام .

فقد شحن تفسير ابن كثير بعدّة روايات عن عتبة بن أبي حكيم، وعن سلمة بن كهيل. وكذلك عن مجاهد وابن عباس بعدّة طرق، وعن السدّي أنّ الآية قد وردت بحقّ عليّ عليه السلام[2]، ومن أراد المزيد فليراجع ما سطّرته العامّة من كتب بهذا الشأن.

وبناءً علىٰ ما سبق فإنّ الآية ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ قد أشارت إلىٰ موقع بعض

(١) مجمع البيان ٣: ٣٤٦ـ٣٤٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢: ٧١.

المسلمين الذين لهم كفاءة التصدّي لأُمور المسلمين، وهذا ما عليه عُلماء الشيعة والسُنّة في أنّ الآية نزلت بشأن علي عليه السلام وزعامته.

وحيث لا يعقل نهوض جميع المسلمين بمنصب الزعامة والإمامة، وكان من القطع أن تكون آية ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ محصورة في بعض الأفراد الأكفّاء، وترىٰ الشيعة بأنّ علي عليه السلام من هؤلاء الأفراد، كما ترىٰ العامّة أنّ المُراد بالآية هو مولىٰ المتّقين علي عليه السلام، كان لابدّ من القول علىٰ ضوء اعتراف الفريقين وبالاستناد إلىٰ عدم معقولية كون المُراد بالآية ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ عموم المسلمين، أنّ القرآن الكريم قد صرّح في هذه الآية بإمامة المسلمين وقلّدها ربيب النبوّة علي بن أبي طالب عليه السلام.

إشارة إجمالية إلى بعض الروايات الواردة في تفسير الآيات الدالّة على الإمامة

يسرّنا هنا أن نتناول بالبحث بعض الروايات لنستمع من خلالها إلىٰ ما صرّح به نفس الأئمّة عليهم السلام بشأن ما أوردناه سابقاً من زعامتهم وإمامتهم:

١) وردت في كتاب وسائل الشيعة رواية عن الصدوق بسند معتبر عن المعلّى ابن خنيس، عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قلت له: قول الله عزّوجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾[١] فقال: «عدل الإمام أن يدفع ما عنده إلىٰ الإمام الذي بعده، وأُمرت الأئمّة أن يحكموا بالعدل، وأُمر الناس أن يتّبعوهم»[٢].

٢) كما وردت رواية عن الكليني:

محمّد بن يعقوب عن عدّة من أصحابنا، عن سهل بن زياد، عن محمّد بن عيسى، عن أبي عبدالله المؤمن، عن ابن مسكان، عن سليمان بن خالد، عن أبي

---

(١) سورة النساء: الآية ٥٨.

(٢) الفقيه ٣: ٢ ح ٢، وعنه وسائل الشيعة ٢٧: ١٤، كتاب القضاء، أبواب صفات القاضي ب ١ ح ٣٣٠٨٤.

عبدالله عليه السلام قال: «اِتّقوا الحكومة؛ فإنّ الحكومة إنّما هي للإمام العالم بالقضاء العادل في المسلمين لنبيّ أو وصيّ نبيّ»(١).

٣) وروى العياشي أنّ سعد قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن الآية الشريفة: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن أَبْوَابِهَا﴾(٢) فقال: «آل محمّد صلى الله عليه وآله أبواب الله وسبيله والدعاة إلى الجنّة والقادة إليها والأدلّاء عليها إلىٰ يوم القيامة»(٣).

٤) نقل حمزة بن الطيّار أنّه عرض علىٰ أبي عبدالله عليه السلام بعض خطب أبيه حتّى إذا بلغ موضعاً منها قال له: «كفّ واسكت، ثمّ قال أبو عبدالله عليه السلام: إنّه لا يسعكم فيما ينزل بكم ممّا لاتعلمون إلّا الكفّ عنه والتثبّت والردّ إلىٰ أئمّة الهدىٰ حتّىٰ يحملوكم فيه علىٰ القصد ويجلوا عنكم فيه العمى، ويعرّفوكم فيه الحقّ. قال الله تعالىٰ: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٤)»(٥).

٥) ونورد هنا بعض ما أوصىٰ به أمير المؤمنين علي عليه السلام لكميل: «يا كُميل لا تأخذ إلّا عنّا تكن منّا... يا كُميل هي نبوّة ورسالة وإمامة، وليس بعد ذلك إلّا موالين متّبعين أو عامِهين مبتدعين، إنّما يتقبّل الله من المتّقين»(٦).

٦) الحديث المتواتر والمتّفق عليه من العامّة والخاصّة والمعروف بحديث الثقلين الذي لم ينكره أحد، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قاله علىٰ سبيل اليقين، فقد عيّن رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الحديث وظيفة المُسلمين إلىٰ يوم القيامة، معتبراً فيه القرآن

---

(١) الكافي ٧: ٤٠٦ باب أنّ الحكومة إنّما هي للإمام ح ١.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٩.

(٣) تفسير العيّاشي ١: ٨٦ ح ٢١٠، وعنه بحار الأنوار ٢: ١٠٤.

(٤) سورة النحل: الآية ٤٣ وسورة الأنبياء: الآية ٧.

(٥) الكافي ١: ٥٠ باب النوادر ح ١٠.

(٦) تحف العقول: ١٧١ و ١٧٥.

والعترة الثقلين الذين لن تضلّ الأُمّة إذا ما تمسّكت بهما إلىٰ يوم القيامة، فقال صلى الله عليه وآله: «إنّي تارك فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي وإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض»(١).

٧) هناك رواية صحيحة أو حسنة في كتاب الوسائل عن محمّد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه وعن عبدالله بن الصلت جميعاً، عن حمّاد بن عيسى، عن حريز بن عبدالله، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام في حديث في دعائم الإسلام، قال: «أما لو أنّ رجلاً قام ليله، وصام نهاره، وتصدّق بجميع ماله، وحجّ جميع دهره، ولم يعرف ولاية ولي الله فيواليه، ويكون جميع أعماله بدلالته إليه، ما كان له علىٰ الله حقّ في ثوابه ولا كان من أهل الإيمان»(٢).

فالذي يتّضح من هذا الحديث أنّ الإتيان بالتكاليف والوظائف الإسلاميّة لابدّ أن يكون من خلال إرشادات وولاية الأئمّة الأطهار عليهم السلام، فهم زُعماء الدين وقادة المُسلمين، ولابدّ من تفويض الأعمال إليهم بهدف حفظ النظام الاجتماعي ومنع الفوضىٰ والهرج والمرج.

٨) ورد في الكتاب المذكور عن محمّد بن يعقوب، عن عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمّد، عن الحسين بن سعيد، عن النضر بن سويد، عن عاصم بن حميد، عن أبي بصير يعني المرادي، عن أبي عبدالله عليه السلام ـ في قول الله عزّوجل: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾(٣)ـ «فرسول الله صلى الله عليه وآله الذكر، وأهل بيته المسؤولون وهم أهل الذكر»(٤).

---

(١) كفاية الأثر: ٨٧؛ مختصر بصائر الدرجات: ٢١٣ ح ٢٥٤؛ المراجعات: ٢٧٩.

(٢) وسائل الشيعة ١: ١١٩ ح٢٩٨ نقلاً عن الكافي ٢: ١٩ ح٥.

(٣) سورة الزخرف: الآية ٤٤.

(٤) وسائل الشيعة ٢٧: ٦٢ ح٣٣٢٠٣.

دراسة ضروريّة

استفاضت لدينا الروايات ـ كهاتين الروايتين ـ التي صرّح فيها الأئمّة عليهم السلام قائلين: نحن أهل الذكر وحملة القرآن، وعلىٰ الأُمّة أن تأخذ بهدينا في عملها بالقرآن، فهذه الروايات تفوّض المسؤولية للأئمة عليهم السلام، وعليه: فلابدّ أن يُناط حلّ المشاكل وإرشاد الأُمّة والأخذ بيدها ـ مع الأخذ بنظر الاعتبار تفسير الأئمّة عليهم السلام للآية الكريمة ـ بزعماء الدين.

أمّا ما ورد في الآية الشريفة ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ فإنّه يدعونا إلىٰ التأمّل في سورة الزخرف حيث تقول: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾(١)، فقد قال الإمام الباقر والصادق عليهما السلام: نحن قوم النبي صلى الله عليه وآله.

فالآية تصرّح بأنّ الصراط المستقيم هو القرآن، وقد قلّدك القرآن ـ والأئمّة من بعدك ـ مسؤولية خطيرة، كما أفاض عليكم هذا الكتاب علماً وإدراكاً ليس لكم أن تنهضوا بعبئه ومسؤوليته.

أفلا نفهم من هذه الآية وبضميمة الرواية أنّ المسؤولية التي كلّف بها رسول الله صلى الله عليه وآله قد كلّف بها الأئمّة الأطهار عليهم السلام أيضاً؟ أو ليست هذه الآية في مقام نصب الأئمّة كهداة للأُمّة الإسلامية علىٰ غرار النبي الأكرم صلى الله عليه وآله؟

بلىٰ، الآية الكريمة علىٰ ضوء تفسير الإمام قد جعلت الأئمّة كرسول الله صلى الله عليه وآله هداة أدلّاء على الطريق، وأنّ الصراط الذي يسلكونه هو الصراط الذي أوحاه لهم القرآن الكريم، وأنّ هذه الهداية وظيفة خطيرة ومسؤولية عظيمة بحيث إنّهم يُسألون عنها يوم القيامة: «وسوف يُسئلون».

إذن فهم الأئمّة والزُعماء إلىٰ يوم القيامة، وعليهم أن ينهضوا بهذه المهمّة

---

(١) سورة الزخرف: الآيتان ٤٣ ـ ٤٤.

ولا يتوانوا في أدائها، وذلك أنّهم مسؤولون عنها يوم القيامة.

وبناءً على ما تقدّم فالذي نستفيده من الآية الكريمة ورواية التفسير:ـ

١ ـ أنّ الأئمّة عليهم السلام كالنبي صلى الله عليه وآله هم هُداة وأدلّاء على الطريق.

٢ ـ أنّهم إنّما يستندون إلى الآيات القرآنية في هذه الهداية.

٣ ـ أنّ وظيفة الأئمّة كوظيفة النبي بالتمسّك بالقرآن من أجل الهداية.

٤ ـ أنّ هذه الوظيفة ـ أي هداية الأُمّة بالقرآن ـ هي وظيفة أبديّة إلى يوم القيامة.

٥ ـ أنّ مسؤوليّة الأئمّة كالنبي في القيام بهذه الوظيفة، فهي مسؤولية كبيرة وليس لهم أن يقصّروا في أدائها.

٦ ـ الأئمّة كرسول الله صلى الله عليه وآله سيسألون يوم القيامة عن القيام بهذه الرسالة الخطيرة.

٧ ـ للأئمة كما لرسول الله صلى الله عليه وآله إحاطة تامّة بالقرآن وأسراره؛ لأنّه ذكر لهم كما هو ذكر لرسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾. وعليه: فإنّ الأئمّة الأطهار عليهم السلام هم زُعماء مسؤولون، وأنّ القرآن قد حباهم بشرائط الإمامة وألهمهم الإحاطة بأُمور المسلمين، وعليهم أن يقوموا بوظيفتهم بإمامة كافّة شؤون المسلمين وحلّ مشاكلهم وتلبية متطلّباتهم، وأن يأخذوا بأيديهم من خلال التمسّك بالقرآن إلى شاطئ الأمان والسعادة والفلاح.

ملاحظة: لقد تواترت الروايات التي تجاوزت حدّ الاستفاضة في تفسير هذه الآية، ومن أراد المزيد من أجل الوقوف على صحّة هذا الإدّعاء فليراجع الأخبار الواردة بهذا الشأن.

٨ ـ ورد في الكتاب المذكور والباب المذكور عن الصدوق في كتاب الأمالي وعيون الأخبار، عن علي بن الحسين بن شاذويه، وجعفر بن محمّد بن مسرور

جميعاً ، عن محمّد بن عبدالله بن جعفر الحميري ، عن أبيه ، عن الريّان بن الصلت ، عن الرضاﷺ ـ في حديث ـ أنّه قال للعلماء في مجلس المأمون: أخبروني عن معنى هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[١]، فقالت العلماء: أراد الله بذلك الأُمّة كلّها ، فقال الرضاﷺ: «بل أراد الله ـ عزّ وجلّ ـ العترة الطاهرة»[٢].

بحث مختصر:

الاصطفاء : علىٰ وزن الافتعال وأصله من الصفو ، والصفو يعني الخالص ، وعليه : فإنّ الاصطفاء يعني الانتخاب الخالص ، والمصطفى يعني المنتخب الخالص «صفوة الشيء : خالصه».

عباد جمع عبد ، والعبد هنا بمعنى العابد ، لا بمعنى المملوك ؛ لأنّ جمع العبد بمعنى المملوك هو عبيد .

قال الراغب الإصفهاني في المفردات: «وجمع العبد الذي هو مسترقّ عبيد ، وجمع العبد الذي هو عابد عباد» .

ويؤيّد القرآن الكريم قول الراغب ، فقد نعتت جميع الآيات القرآنية التي تحدّثت عن الكُفّار الذين اتّبعوا هوى أنفسهم والأوثان بالعبيد ، بينما أطلقت لفظ «العباد» علىٰ من عبدالله سبحانه ، ولم تستعمل لفظة «العباد» في مقابل «الإماء» إلّا في آية واحدة هي ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾[٣] ، ولا يبعد هنا أن تكون لفظة «العباد» قد جاءت من أجل التشاكل اللفظي .

---

(١) سورة فاطر: الآية ٣٢.

(٢) وسائل الشيعة ٢٧: ٧٢، كتاب القضاء، أبواب صفات القاضي ب ٧ ح ٣٣٢٢٣ عن أمالي الصدوق: ٦١٥ ح ٨٤٣ و عيون أخبار الرضاﷺ ١: ٢٢٨ ب ٢٣ ح ١.

(٣) سورة النور: الآية ٣٢.

ويؤيّد ذلك ما ورد في النصوص الفقهيّة وآثار الأئمّة عليهم السلام، حيث وردت كلمة «العبيد والإماء» حيثما كان الكلام عن العبد المملوك. على كلّ حال فإنّ العباد في الآية الشريفة هي جمع عابد.

فقد ردّ الإمام الرضا عليه السلام على العُلماء الذين قالوا: إنّ المراد بالآية الشريفة الأُمّة كلّها، بأنّ الله أراد بها العترة الطاهرة، فاحتجّ عليه السلام بالآية ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ حيث المصطفى من العباد غير جميع العباد، فهو أضيق دائرة، ولمّا كان المصطفى يعني المنتخب الخالص، فإنّهم من العباد المخلصين والموحّدين، ولذلك لابدّ أن يكون هؤلاء الأفراد مصطَفين تامّي الإخلاص في عبادة الحقّ.

وبعبارة أوضح: أنّ مُراد الآية: أخلص الناس في عبادة الحقّ من بين عباد الله الموحّدين، وليس هناك بين الناس أخلص في عبادة الله تعالى ـ بعد النبيّ صلى الله عليه وآله ـ غير الأئمّة عليهم السلام.

ولذلك قال عليه السلام: ليس المراد بالعباد ـ هنا بقرينة الاصطفاء ـ سوى العترة الطاهرة، فالقرآن يقول: ليس لكلّ فرد وراثة القرآن، وإنّ وراثته مختصّة بمن اصطفينا من العباد، وقال الرضا عليه السلام: نحن ورثة القرآن، فالأئمّة هم ورثة الكتاب، ولمّا كان الانتقال مُعتبر في مفهوم «الإرث» يتبيّن أنّ ما أفاض القرآن على النبي صلى الله عليه وآله إنّما ينتقل إلى الأئمّة الأطهار عليهم السلام، ونحن نعلم أنّ القرآن إنّما أفاض على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله العلم والحكمة والإمامة والولاية والمسؤولية وأمثال ذلك، وعليه: فالأئمّة إنّما يرثون هذه الأمور عن النبي صلى الله عليه وآله. فكما أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله عالم بدقائق القرآن وأسراره، فالأئمّة عليهم السلام عالمون بها بالوراثة، وكما أنّ النبي يدرك بالوحي بطون القرآن، فإنّ للأئمّة مثل هذا الإدراك والإحاطة بالوراثة.

وأخيراً فكما أناط القرآن بالنبي صلى الله عليه وآله وظيفة الزعامة وتفسير الأحكام وبيان التعاليم وإمامة الأُمّة الإسلامية فإنّ الأئمّة عليهم السلام قد ورثوا عنه هذه الوظائف، ولذلك

لمّا كان يوم الدار ـ أوائل بعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ـ جعل النبي صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام خليفته ونصبه إماماً، فقال: «هذا أخي ووارثي ووزيري وخليفتي فيكم بعدي»[1] وقد صرّحت بعض الروايات بأنّ علياً عليه السلام قال: «يا رسول الله وما أَرِثُك؟»، قال: «ما ورثت الأنبياء قبلي: كتاب الله وسنّتي»[2].

خلاصة ما مرّ:

إنّ الإسلام ليس دين الاعتزال والرهبة، بل دين يشتمل علىٰ برامج وتعاليم من شأنها تنظيم حياة البشرية وضمان المعيشة الهنيئة التي يسودها العدل والإنصاف والمساواة والإخاء والتساوي في الحقوق الاجتماعية المقرّرة لكلّ طبقة بما يصونها عن السلب والنهب، وإنّ هناك حاجة ماسّة في هذا الدين لتدوين دستوره المتين الذي يقف حائلاً أمام الظلمة، فلا يدعهم يمدّون أيديهم ليعتدوا علىٰ حقوق الأُمّة، كما يتكفّل بحفظ الشخصية الإنسانية لكلّ فرد في المجتمع من سطوات الجبابرة وعداونهم، وتتحقق في ظلّه العدالة الاجتماعية والتمتّع بالحقوق الفردية والجماعية وارتفاع المستوىٰ العلمي والثقافي للناس ونيلهم السعادة الدنيوية التي تؤهّلهم لنيل الخلود واستثمار الإيمان الذي يدعو إلى كسب الفضائل الأخلاقية والمعنوية، وممّا لا شكّ فيه أنّ القرآن الكريم هو دستور الإسلام الذي تكفّل بتحقيق هذه الأهداف: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِيَ أَقْوَمُ﴾[3].

إلّا أنّ هذا القرآن قد تعرّض لشؤونُ حياة الأُمّة من خلال آياته الشريفة، ولا تتفق هذه الآيات بأجمعها في كيفيّة شرحها لمفردات الحياة التي تعيشها الأُمّة،

(١) علل الشرائع ١: ١٧٠، ب ١٣٣ ح ٢، وعنه بحار الأنوار ١٨: ١٧٨ ح ٧.

(٢) تفسير فرات الكوفي: ٢٢٧ ح ٣٠٤، بحار الأنوار ٣٨: ٣٤٦ ح ٢١، تفسير الميزان ٨: ١١٧.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٩.

فهناك بعض الآيات القرآنية التي وردت بصيغة الرمز والإشارة والكناية، بل وردت مُبهمة متشابهة بحيث قد تكون أحياناً أقرب إلى خلاف المراد في دلالتها اللفظية، وهذا ما أشارت إليه الآية: ﴿هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[1].

فالقرآن شأنه شأن سائر القوانين، حيث وردت بعض نصوصه مجملة، وواضح أنّ المجمل يحتاج إلىٰ ما يُفسّره ويوضّحه. والقرآن كسائر القوانين، قد يصدر أحكامه علىٰ نحو العموم ثمّ يخصّصها بينما يصدرها علىٰ نحو الإطلاق لكنّها تتضمّن التقييد. فأحكامه على أنواع من قبيل العام والخاص والمطلق والمقيّد و....

والقرآن يتطرّق أحياناً إلىٰ قصص الأمم الماضية من أجل تحقيق بعض الأهداف الكُبرىٰ وإثبات دعوى النبوّة، فيورد حقبة تأريخية عميقة في جملة قصيرة مقتضبة، بالشكل الذي يتطلّب الوقوف علىٰ تلك الحقائق إلىٰ مؤرّخ عالم بنشوء الأديان وقصص سالف الأُمم ومتخصّص بلغة القرآن، والقرآن قد يصدر حكماً معيناً لمدة استناداً للمقتضيات السياسية والمصالح الإسلامية العليا ثمّ ينسخه بحكم حقيقي آخر لابدّ من مراعاته وتطبيقه، والقرآن قد عيّن المقنن والمنفذ من أجل بسط العدل والقسط وتحقق الوحدة والتضامن والمجتمع الإسلامي، ليتسنىٰ للأُمّة أن تقيم الحكومة العادلة في ظل ولاية وزعامة هؤلاء الأفراد.

وأخيراً فإنّ بعض الآيات القرآنية تحمل رسالة دعوىٰ الناس إلى الصراط المُستقيم الذي يؤدّي إلىٰ السعادة الأبديّة والجنّة الخالدة، إلىٰ جانب كسب الفضائل الإنسانية وبلوغ السموّ والكمال.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧.

إذن فدستور الإسلام هو القرآن، وإنّ الحياة الحرة الكريمة المـقرونة بـالرفاه والسعادة في القرآن. والقرآن طائفة من الآيات التي تشكّل موادها أساس النظام الداخلي للحياة، غير أنّنا رأينا أنّ آياته قد تكون مجملة وأحياناً مُتشابهة كما قـد تكون أحياناً أُخرى مُطلقة أو مقيّدة وناسخة أو منسوخة، كما فهمنا أنّ القرآن هو دعامة حكومة العدل والقسط بالنسبة للأُمّة الإسلامية، وعليه شئنا أم أبينا؛ فإنّ القرآن يتطلّب أُستاذاً ماهراً ودليلاً عليماً ليوضّح مجمله ويحلّ معضله ويبيّن مطلقه من مقيّده ويفسّر متشابهه، وأن يكشف النُقاب عن قـصص الأُمـم السـابقة بمـا يخرجها عن حالة الإجمال التي أوردها القرآن، وبالتالي عليه أن يميط اللـثام عـن أسراره ويميّز ناسخه من منسوخه، ليجعل الأُمّـة تـقف بمـا لا يـقبل الشكّ عـلىٰ مفردات دستور الإسلام من أجل تشكيل الحكومة الإسلامية، ليتمكن المسلمون في ظل حكومة العدل القرآني من العـيش بأمـن وسـلام في حـياتهم الدنـيويّة، بالشكل الذي يمهّد السبيل أمامهم لنيل سعادة الآخرة.

وبناءً علىٰ ما تقدّم فإنّ إدراك جميع حقائق القرآن ـ بغضّ النـظر عـن آيـاته الصريحة أو الظاهرة ـ بحاجة إلىٰ مـعلّم ودليـل، وكـذلك الحكـومة الإسـلامية المستندة للقرآن بحاجة إلى إمام وولي أمر.

فالذي نخلص إليه هو أنّ القرآن محتاج إلىٰ مرشد، والمسلمون أيضاً محتاجون إلىٰ الإمام، وهنا لابدّ أن نسأل: من هو المرشد إلى القرآن وإمام الإسلام؟

لقد دلّت الآيات والروايات التي أوردناها في هذا الفصل أنّ المرشد الأبـدي والإمام الواقعي للمسلمين بعد النبي صلى الله عليه وآله وفي ظلّ تعاليمه هم الأئمّة الأطهار عليهم السلام كما صرّحت الأخبار بأنّ الزعامة قد فوّضت إليهم إلىٰ يوم القيامة [١]، وعليه فلن يسع

---

(١) الكافي ١: ٢٦٥ـ٢٦٨.

المسلمون قطّ أن يشكّلوا الحكومة العادلة والمدينة الفاضلة دون هؤلاء الهداة الذين لهم ولاية الأمر.

فإن قال قائل: لسنا بحاجة لهذه المدينة الفاضلة الإنسانية، كما لا نريد الحكومة القائمة علىٰ أساس القرآن، فالبشرية قد شكّلت الحكومة علىٰ أساس قدراتها العلمية والعقلية والتي حقّقت لها السعادة.

فإنّا نقول: لابدّ ـ علىٰ ضوء هذا القول ـ من غضّ الطرف عن القرآن واعتبار الإسلام دين العزلة والرهبنة، في حين لابدّ لمن يؤمن بالقرآن والإسلام أن يذعن بأنّ القرآن والإسلام من شأنهما فقط إدارة شؤون الحياة الإنسانية، وأن يقرّ أيضاً أن ليس هنالك من زعامة للحكومة الإسلامية وهداية بالقرآن وإحاطة بحقائقه ومعارفه سوىٰ للأئمة الأطهار عليهم السلام، ولا يمكن للقرآن ـ بما أوردناه من خصائص ـ أن يكون هادياً للبشرية دون أولئك الهُداة الذين يهدون بأمر الله، كما لا يمكن القول بأنّ الحكومة العادلة مطلوبة، لكن دون الحاجة إلى زعماء الدين ومجسّدي أحكام وقوانين القرآن؛ لأنّ الأخبار والآيات دلّت علىٰ أنّ أئمّة الدين وهُداة المسلمين هم تلامذة الرسالة وربيبي مدرسة النبوّة الأئمّة الأطهار عليهم السلام.

إذن، فلا يمكن ألّا يكون هؤلاء ممن توفّرت فيهم شرائط الهداية بالقرآن وإمامة الأُمّة الإسلامية إلىٰ يوم القيامة، وبناءً عليه فلابدّ أن يكونوا محيطين بجميع رموز القرآن وأسراره، عارفين بمحكمه ومُتشابهه ومطلقه ومقيّده، عالمين بجميع الحوادث التي تواجه المسلمين؛ وإلّا فأنّى لهم أن ينأوا بالمجتمع بعيداً عن آفات تلك الحوادث؟ فهل يسع ربّان السفينة أن يتكفّل بضمان سلامة ركّابها وهو يشقّ عباب البحر دون علم بأمواجه وجزره ومدّه والحوادث التي يمكن أن تطرأ عليه ؟!

خلاصة البحث:

يمكن خلاصة ما مرّ منّا خلال البحث في ما يلي:

١ ـ لا يستغني الدين الإسلامي عن إمام، كما لا يستغني القرآن ـ الذي يُعتبر دستور وقانون المجتمع الإسلامي ـ عن شارح ومفسّر.

٢ ـ لا يقتصر الإسلام علىٰ كونه سلسلة من الصفات الأخلاقية والمعنوية المكملة للخصائص الإنسانية السامية فحسب، بل هو دين ينطوي علىٰ تعاليم شاملة تستهدف بناء المجتمع الإسلامي المقتدر في ظلّ الحكومة الإسلامية التي تنشد تربية الإنسان الصالح.

٣ ـ تستند الحكومة الإسلامية إلى أُسس القوانين والتعاليم القرآنية ومبادئ السنّة النبويّة الشريفة.

٤ ـ يتعذّر التعامل مع النصوص القانونية القرآنية دون توضيحها وشرحها من قِبل ذوي الاختصاص من زعماء الدين.

٥ ـ تفيد الآيات والأخبار أنّ للأئمّة صلاحية وأهلية الخوض في التعاليم والبرامج القرآنية وتوضيحها وسبر أغوارها.

٦ ـ أنّ الأئمّة الأطهار عليهم السلام هم زُعماء الأُمّة الإسلامية بعد النبي صلى الله عليه وآله، وأنّهم مكلّفون بالنهوض بمسؤولية هذه الزعامة إلىٰ يوم القيامة.

٧ ـ نتيجة هذه الخلاصة هي أنّ الأئمّة يملكون شرائط الزعامة والإمامة، وحيث إنّ أحد شروط زعامة المسلمين إلىٰ يوم القيامة يتمثّل بالعلم التام والوقوف علىٰ جميع الحوادث والأخبار الخاصّة، والإحاطة بأسرار القرآن، والمعرفة بما غاب عن فهم الأُمّة وإدراكها من الأُمور، كان من اللازم القول بأنّ للإمام علماً وإحاطة تامّة بخفايا القرآن والسُنّة، وبخلافه فليس بوسعه أن يكون زعيماً للأُمّة إلى الأبد ومفسّراً للقرآن هادياً به.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (سورة البقرة: الآية ١٢٧)

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة البقرة: الآية ١٢٨)

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (سورة البقرة: الآية ١٢٩)

الدليل الرابع من القرآن

لم نتعرّض في الآيات السابقة إلىٰ جذور الإمامة ولا إلىٰ الصفوة من بني هاشم التي تتمثّل بشكل واضح بالأئمّة الأطهار عليهم السلام، بل أشرنا إلىٰ أنّ «أُولي الأمر» هم الأئمّة الأطهار عليهم السلام، كما ذهبنا إلى أنّهم مصداق قهري لهذا العنوان من خلال التأمّل في آيات القرآن الكريم، وقلنا في خصوص الآية «والذين آمنوا»: إنّها تشير إلىٰ شكل الزعامة والإمامة، ثمّ خلصنا إلى أنّ أمير المؤمنين علي عليه السلام هو مصداق هذه الزعامة، بالاستعانة بالروايات وأسباب النزول، أمّا الآيات التي نعرض لدراستها الآن فهي تتناول أصالة الإمامة وتجذّرها في القرآن الكريم إلى جانب تأريخ تبلور ونشأة إمامة أئمّة الإسلام منذ زمان إبراهيم الخليل عليه السلام.

أجل، إنّ إبراهيم عليه السلام سأل الله أن يرزقه من ذريّته إماماً يتزعّم شؤون الأُمّة الإسلامية، وذريّة صالحة تتولىٰ من بعده زعامة الأُمّة. وبعبارة أوضح: فإنّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام سألا الله أن يبعث رسولاً من بني هاشم، وأن تكون لهذا النبي ذريّة تتولىٰ هداية الأُمّة وإمامتها.

إذن، فالآية القرآنية المُباركة قد خاضت بوضوح في أصالة الإمامة وضخامة ثقلها في المجتمع، وأشارت بصراحة إلى صفوة من بني هاشم من شأنها زعامة وإمامة الأُمّة الإسلامية.

يبدو أنّ إثبات هذا الادّعاء يتطلّب مزيداً من الدقّة والتأمّل في عدّة آيات من سورة البقرة وردت بهذا الشأن، راجين من القُرّاء الأعزّاء الالتفات إلى النقاط التي بحثت سابقاً، ليصدروا بعدها أحكامهم المنصفة بهذا الخصوص.

دعوة النبي إبراهيم عليه السلام:

ماالذي أراده إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام من الحقّ تبارك وتعالى؟

يقول القرآن: إنّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هما رافعا قواعد بيت الله والكعبة، فقد كان إبراهيم يبني البيت وكان إسماعيل يساعده في هذا البناء، بينما كان إبراهيم منهمكاً بالبناء ـ يساعده في ذلك إسماعيل ـ سأل الله تعالى أن يتقبّل منهما هذا العمل.

إذن فالبنّاء هو إبراهيم، والعامل إسماعيل، والمقاول هو الله جلّ وعلا. فالبناء كان يهدف إلى إنشاء مركز التوحيد والعبادة وهذا المركز هو الكعبة، ويصرّح القرآن بأنّ لإبراهيم وإسماعيل خمس دعوات سألاها الله سبحانه، وهي:

١ ـ ربّنا اجعلنا مسلمَين لك.

٢ ـ ومن ذرّيتنا أُمّة مسلمة لك.

٣ ـ أرنا مناسكنا وتُب علينا.

٤ ـ وابعث فيهم رسولاً منك.

٥ ـ يتلو عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم.

الآيات والالتفاتات:

تطالعنا في هذه الآيات عدّة أُمور، منها:

١) فنّدت الآية مزاعم اليهود بشأن الكعبة وقبلة المسلمين حين كثر اللغط الذي يصرّح بعدم صحّة نبوّة النبيﷺ فهو يصلّي الصبح صوب بيت المقدس، ثمّ يستقبل الكعبة في صلاة العصر، وإنّ مثل هذه الأعمال لا تصدر من عاقل، وإلّا لما غيّر القبلة، فقد كان الهدف المهم هو بيان أصالة الكعبة؛ لأنّ إبراهيم هو الذي بناها ورفع قواعدها، وإن كان النبيﷺ قد اِستقبل بيت المقدس لمدّة قصيرة فإنّما كان ذلك طبقاً لمقتضيات المصالح الإسلامية العُليا لا على أساس عدم العلم والإحاطة بالمغيبات.

٢ ـ نبيّنا محمّدﷺ شخصية أصيلة متجذّرة تستند رسالته ونبوّته لدعاء إبراهيم وإسماعيلعليهما السلام، إبراهيم وإسماعيلعليهما السلام الّذان أعادا بناء مركز التوحيد، وهما عبْدا الله، الذين أخلصا له العبوديّة والطاعة، فسألاه تبارك وتعالى أن يبعث من ذريّتهما رسولاً ينطلق من قاعدة الإخلاص والعبودية والطاعة، وعليه فاليهود ينظرون أعمق من غيرهم إلى أصالة محمّدﷺ.

٣ ـ أنّ محمّداًﷺ الذي ينتمي إلى ذريّة إبراهيم وإسماعيلعليهما السلام هو من طائفة بني هاشم، وقد سألا الحقّ سبحانه أن يبعث هذا النبي من تلك الطائفة لينهض بمسؤولية تعليم وتزكية هذه الطائفة: ﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ...﴾.

وبعبارة أُخرى: أنّهما سألا الله أن يبعث رسولاً من بني هاشم يتولّى تعليم وتزكية جماعة من بني هاشم، أمّا كيف ندّعي أنّ الرسول المطلوب من بني هاشم وأنّه يعلّم ويزكّي جماعة من بني هاشم، فمّا لاشكّ فيه أنّ إبراهيم وإسماعيلعليهما السلام طلبا رسولاً من عقبهما لتعليم وتزكية ذريّتهما، حيث سألا أن يكون

ذلك الرسول المبعوث هو معلّم تلك الذريّة، فقد قالا: ﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ ...﴾ وحيث استجيب الدعاء المطلوب؛ وهو بعث محمّد ﷺ كنبيّ، ومحمّد من نسل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ومن نسل بني هاشم، فالطائفة التي يتوجّه إليها التعليم والتزكية لابدّ أن تكون تلك الطائفة الصالحة المُنقادة لله من نسل بني هاشم.

فالخلاصة، تفيد الآية: ﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ...﴾ أنّ نبي الإسلام ﷺ يجب أن يتلو آيات القرآن علىٰ بني هاشم ويعلّمهم القرآن وأسرار الدين، لينتهي بهم إلىٰ التزكية والطهر والنزاهة.

دليل حي:

قلنا: إنّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام سألا الله سبحانه أن يبعث من ذريّتهما رسولاً من بني هاشم، ثمّ سألاه أن يعلّم هذا الرسول طائفة من بني هاشم خفايا الدين وأسرار القرآن ومعالم الإسلام.

أمّا شاهدنا على ذلك فرواية وردت في تفسير العياشي وهو من الكُتب المعتبرة، ففيه: عن أبي عمرو الزبيري، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قلت له: أخبرني عن اُمّة محمّد ﷺ من هم؟ قال: اُمّة محمّد بنو هاشم خاصّة، قلت: فما الحجّة في اُمّة محمّد أنّهم أهل بيته الذين ذكرت دون غيرهم ؟ قال: قول الله عزّوجل: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ...﴾[1] فلمّا أجاب الله إبراهيم وإسماعيل وجعل من ذريتهما اُمّة مسلمة، وبعث فيها رسولاً منها ـ يعني من تلك الاُمّة ـ يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة[2].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٧.

(٢) تفسير العيّاشي ١: ٦٠ ح ١٠١.

مزيد من التوضيح:

نورد مزيداً من الإيضاح رغم أنّ الحديث المذكور صريح في ما ادّعيناه، فالواو في الآية المُباركة: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾[1] عاطفة، أي واجعل من ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ نسألك لبعض هذه الذريّة ما سألناك لأنفسنا أن اجعلنا مسلمين لك، فاجعلهم مسلمين لك، وبناءً على هذا فكلمة «من» في قوله: «ومن ذريّتنا» تفيد التبعيض، أي بعض هذه الذريّة.

إذن، فسنخ تسليم هذه الطائفة من سنخ تسليم إبراهيم وإسماعيل، ومن هنا يعلم أن عطف طلب إبراهيم وإسماعيل، يعود إلى ظهور طائفة مصطفاة من الأُمّة الإسلامية تكون في مصاف آبائها إبراهيم وإسماعيل في الخشوع والطاعة والتسليم.

وعليه: فدعاء إبراهيم وإسماعيل لا يشمل كافّة ذريّة إسماعيل ليكونوا على هذه الدرجة من التسليم، ليصدق ذلك على جميع قريش، وذلك لأنّنا أشرنا إلىٰ أنّ «من» تفيد التبعيض لا التبيين، أضف إلى ذلك ـ كما ذكرنا ـ أنّ الرسول المبعوث من ذريّة هاشم، وذلك الرسول هو معلّم هذه الذريّة طبق ظاهر الآية، وهذا ما ذكّر به الإمام الصادق عليه السلام.

كشف النقاب عن أصالة الإمامة:

قلنا: إنّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام سألا الله سبحانه طائفة من الذريّة تكون بمستوى آبائها في الإخلاص والطاعة والتسليم، كما قلنا: إنّ هذه الطائفة ليست إلّا الصفوة من بني هاشم، وهنا تتضّح حقيقة أُخرىٰ؛ وهي أنّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كما سألا الله بعث رسول لهداية الأُمّة، قد سألاه أيضاً مثل هذه الهداية لطائفة من بني هاشم، سألاه أن يبعث رسولاً من بني هاشم، وأن تتربّىٰ وتتلمّذ علىٰ يديه

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٨.

هذه الطائفة المتّصفة بالعبوديّة والإخلاص والتسليم الكامل لله، لتكون جديرة مؤهّلة وصالحة لزعامة الإسلام وإمامة المسلمين، وإلّا لما كان هناك من هدف لسؤالهما الله ظهور تلك الطائفة التي تضاهي آباءها في الطاعة والتسليم، وسؤال الله تعليمهم وتزكيتهم من قِبل الرسول المبعوث.

ما نخلص إليه من هذه الآيات:

بعد أن رفع إبراهيم وإسماعيل قواعد البيت بأمر الله ومن أجل الله وإعادة بناء مركز التوحيد، سألا الله ثلاثة أُمور أساسية مهمّة من أجل تحقيق السعادة والفلاح لذريتهما علىٰ مدى التأريخ، وهي:

١ ـ سألاه أن يبعث رسولاً من ذريّتهما.

٢ ـ أن يكون هذا الرسول من بني هاشم، وقد قال النبي ﷺ: أنا دعوة إبراهيم عليه السلام[١].

٣ ـ أن تكون طائفة من بني هاشم مطيعة ومسلمة تنهض بزعامة وإمامة الأُمّة الإسلامية، وأن تستند في إمامتها إلى تعاليم النبي ﷺ وتعليمه وتزكيته لهم وإلى القرآن وآياته الحكيمة.

نتيجة هذه الدراسات:

كما أنّ رسالة النبي ﷺ أصيلة متجذّرة ليست حادثة طارئة؛ فإنّ إمامة الأئمّة هي الأُخرى أصيلة متجذّرة، وهي استجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. وعلىٰ ضوء هذا المشروع الذي تضمنه الدُعاء، كان لابدّ لرسول الله ﷺ أن يخضع تلك الطائفة من بني هاشم لتعليمه المُباشر ويحيطهم علماً بكافّة أسرار وخفايا القرآن،

(١) الفقيه ٤: ٣٦٩، بحار الأنوار ٣٨: ٦٢.

بفضل ما منحهم الله من أهلية واستعداد، ليعدّهم لإمامة المسلمين، وعليه: فإنّ هذه الطائفة حائزة على شرائط الإمامة من خلال تعليم النبي وما أفاض الحقّ عليهم من إخلاص وتسليم.

فالذي نخلص إليه من هذه الأبحاث هو أنّ الإمامة أصيلة متجذّرة كالرسالة، وليست الإمامة سوىٰ للطائفة المصطفاة من بني هاشم.

سؤال يطرح نفسه:

هنالك سؤال يطرح نفسه علىٰ ضوء الشرح الذي أوردناه علىٰ الآيات، وهو هل أنّ رسول الله مبعوث لبني هاشم فقط ليجتهد في إرشادهم وهدايتهم وتزكيتهم؟ وهل سأل إبراهيم الله سبحانه نبياً عائلياً لتعليم وتربية أولاده وذريّته؟ حتّى يقال: إنّ الله استجاب دعوة إبراهيم من أجل تعليم وتربية أولاده، إذن فهو معلّم خصوصي من أجل طائفة خاصّة من ولد إسماعيل.

جواب:

لاشكّ أنّ النبي ﷺ إنّما بعث لكافّة الناس إلىٰ يوم القيامة، فقد اعتبره القرآن الكريم خاتم الأنبياء[1]، ومنذر من بلغ[2]. فما الذي حدث ليدعو إبراهيم بأن يكون النبي المبعوث من ذريّة إسماعيل لتزكية وتعليم طائفة من ذريّتها؟ فإبراهيم عليه السلام يعلم بأنّ رسول الله محمّد المصطفى ﷺ سيبعث بالرسالة، وأنّه من ذريّته وهو خاتم الأنبياء، ودينه ناسخ لكافّة الشرائع ومكمّل لكافّة الأديان، وأنّه سيصبح إماماً للبشرية جمعاء، وهذه ليست من الأُمور التي لا يعرفها إبراهيم عليه السلام، فالقرآن

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٤٠.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٩.

يصرّح بأنّ موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام يعلمان بأنّه النبي الخاتم، وهذا ما تشهد به سائر الكُتب السماوية، بل أبعد من هذا هو أنّ الأُمم الماضية ـ وبغضّ النظر عن الأغراض ـ تعلم بوضوح كافّة خصائص آخر قائد للعالم، فلِمَ كانت هذه الدعوة من إبراهيم وإسماعيل؟

الجواب علىٰ هذا السؤال هو ما أوردناه سابقاً من أنّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام سألا الله أن يبعث نبياً من ذريّتهما، وأن يقوم هذا المبعوث بتربية وتزكية طائفة ليبلغ بها السموّ والكمال الذي يؤهّلها لزعامة الأُمّة الإسلامية، وعليه فقد بلورا وأسّسا مبدأ الإمامة، وسألا تحقيق وتفعيل هذا المبدأ الحيوي من أجل الزعامة الإسلاميّة.

وبناءً على ما تقدّم لم يكن هناك ما يستدعي لأن يكون هذا المبعوث لطائفة معيّنة، بل كان ذلك يستدعي أن يكون مبعوثاً للعالم كافّة، يكون من ذريّتهما، وأن يعدّ طائفة معيّنة من تلك الذرّية لبعض الأهداف والغايات العليا السامية.

وبعبارة أُخرى: فإنّ الدعوة كانت لجعل النبوّة والإمامة في ذريّة بني هاشم، وهي في ذات الوقت تفيد كون النبوّة والإمامة زعامة عالمية إلى الأبد.

جدير بالذكر أنّ دعوة إبراهيم عليه السلام ليست جديدة، فقد سأل الله بشأن منصب الإمامة في ذريّته لما استكمل شرائط الإمامة وبشّره سبحانه: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾، فردّ الله سبحانه هذا المنصب عمّن لا يستحقّه من تلك الذريّة ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ﴾[1]. حيث استثنىٰ سبحانه الظلمة من النهوض بهذه المسؤولية العظيمة.

حديث مع صاحب تفسير المنار:

أعتقد أنّ صاحب «تفسير المنار» قد التفت إلىٰ ذلك الأمر المهمّ في الآيات

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

الشريفة ودعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، فهو يستند في فهمه للقرآن إلىٰ ظواهر الألفاظ وخصائص الكلمات ، إلّا أنّ روح التعصّب إذا استولت على عالم تدفعه إلىٰ ما يأباه الذوق السليم والطبع القويم ، بحيث أخذ يتخبّط تخبط عشواء ليموّه على الحقائق التي انطوت عليها الآية الكريمة .

فقد علّق صاحب تفسير المنار علىٰ عبارة «إنّك أنت العزيز الحكيم» بأنّها وردت لتزيل إشكالاً قد يتبادر إلىٰ الأذهان بأنّ دعوة إبراهيم تتنافىٰ والطبع العربي ؛ لأنّ العرب تقولبت بالبداوة وأنست بالغلظة والخشونة ، وعليه فالأقوام العربية لا تأنس بالعلم والحكمة ، بل هي عدوة للتهذيب والتربية ، فالبداوة العربية لا تخضع قطّ للنظم الاجتماعية وهي بعيدة عن الحضارة والمدنية ، فطبيعتهم البداوة ، ولمّا كان تعليم الكتاب والحكمة وتهذيب الأخلاق لا يعني سوىٰ التسليم للنظام الاجتماعي وتقبّل الحضارة والمدنية والتطبّع بالعادات الإنسانية ، فأنّى لإبراهيم أن يدعو الله بأن يبعث محمّداً صلى الله عليه وآله ليعلّم أولئك العرب الكتاب؟ ويعلّمهم الحكمة ويزكّيهم ويهذّب أخلاقهم .

فقد حصر صاحب «المنار» هذا السؤال في زاوية حرجة ، ثمّ قال للهرب منه: نعم ، إنّ هذا الوهم وارد لو لم يكن الله عزيزاً وحكيماً ، وحيث إنّ إبراهيم عليه السلام يعلم بأنّ الله عزيز وحكيم ، فإنّ ذلك الوهم ليس بوارد . أجل ، فالله عزيز وحكيم وبيده حلّ جميع المشاكل ، وليس هنالك من شيء يمكنه أن يقف حائلاً أمام إرادته ، إذن ، صحيح أنّ العرب تعادي العلم والحكمة والمدنية ، إلّا أنّ إبراهيم عليه السلام يعلم بأنّ الله عزيز وحكيم ، وعليه فدعوته ليست مستحيلة ، فللقادر العزيز أن يبلغ بهذه الأُمّة منتهى العلم والتمدّن ويجعلها مستعدّة لحمل أعباء الرسالة [1].

كانت هذه بعض العبارات التي ذكرها صاحب المنار بشأن الآيات الكريمة ،

---

(١) تفسير القرآن الحكيم، الشهير بـ«تفسير المنار»: ١ / ٤٦٥ ـ ٤٧٣.

والحقّ أنّ صاحب المنار قد عمد إلىٰ أُسلوب التورية بما فهمه من الآيات الكريمة، وأعرض عن بيان حقيقة الأمر، كما حاول أن يموّه علىٰ المطلب الأساسي أثناء إيراده لذلك الوهم، فقد أدرك مدلول الآية، إلّا أنّه وبذكره لذلك الوهم قد عدل عن السبيل الصحيح.

ولنا أن نسأل صاحب المنار هذا السؤال: هل استنبطت من الآيات أنّ إبراهيم عليه السلام سأل الله أن يبعث محمّداً صلى الله عليه وآله ليعلّم العرب الكتاب والحكمة والانصياع للنظم الاجتماعيّة؟ وتريد أن تقول بأنّ الدين الإسلامي ليس ديناً عالميّاً، ولم يبعث محمّد صلى الله عليه وآله إلّا للعرب البدو ليجرّهم إلىٰ المدنية والحضارة والالتزام بالقوانين السماوية للقرآن. وبعبارة أُخرى: فإنّك استفدت التعليم العام من الآية، إلّا أنّك تعتبر هذا العموم مقتصراً على فئة خاصّة من الأُمّة الإسلامية، وهم العرب البدائيّون؟ فإن كان هذا هو الذي فهمته، كان عليك أن تقرّ بأنّ المراد الأصلي من بعثة محمّد صلى الله عليه وآله هو الاقتصار علىٰ تعليم وتزكية العرب، وبالذات العرب البعيدين عن الحضارة والمدنية الذين لم يألفوا التعليم والتربية ويأنسون بالغلظة والخشونة؛ وهل يمكنك علىٰ ضوء هذا الإقرار أن تزعم بأنّ محمّداً صلى الله عليه وآله قد بعث للناس كافّة علىٰ مدىٰ التأريخ؟

وإذا زعمت بأنّ هذه الآيات تستهدف تعليم النظم الاجتماعيّة الإسلامية وتعليم وتزكية جماعة معينة، دون أن يتنافىٰ هذا الأمر وكون الدين الإسلامي ديناً عالمياً، إلّا أنّ إبراهيم عليه السلام سأل الله ليقوم محمّد صلى الله عليه وآله بتزكية ذريّته، وما ذريّته سوىٰ العرب البدو الذين لا يأنسون بالعلم والحكمة. في هذه الحالة لا تكون هذه الآيات بصدد إثبات عالمية الدين المقدّس، بل هي عبارة عن دعوة تضمّنت تعليم وتزكية وإعداد طائفة خاصّة، الأمر الذي أوردناه سابقاً...

إذن، فالدعوة لم تكن بعث رسول من ذريّة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى طائفة

معيّنة، بل كانت تفيد بعث رسول عالمي من ذريّتهما، ويقوم بتعليم صفوة معيّنة من خاصّة القرآن وأسرار الخلقة، ويبلغ بروحهم الطاهرة أقصىٰ درجات السموّ والطهارة والكمال.

وبناءً على هذا فإنّنا وإيّاكم نتّفق على معنى واحد أفادته الآيات الكريمة، وهي أنّ دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام تفيد تعليم النبي صلى الله عليه وآله وتزكيته وإعداده لطائفة خاصّة من ذريّتهما، إلّا أنّنا نختلف بخصوص هذه الطائفة الخاصّة، فنحن نقول بأنّ هذه الطائفة الخاصّة هي الصفوة من بني هاشم، بينما ذهبتم إلى أنّها العرب البدائيّين المعادين للعلم والمعرفة. فسلكتم إثر ذلك طريقاً مسدوداً، لم يسعكم الخروج منه سوىٰ بتفسيركم للعزيز الحكيم الذي يفيد أنّ الله قادر على أن يبلغ بالعرب البدائيين قمّة التمدّن، ويجعلهم يتناولون العلم ولو كان في الثريا بعد أن كانوا أعداءً حقيقيّين لهذا العلم، وأخيراً يجعل أخلاقهم إنسانية ملكوتية تفيض بالطهر والعفاف.

والآن نسألك هذا السؤال: أيّ دلالة في الآيات جعلتك تستند إلى هذا المعنىٰ؟ فقد أراد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يُبعث رسول من ذريّتهما وقد بُعث محمّد صلى الله عليه وآله، أو ليس محمّد صلى الله عليه وآله الذي ينتمي إلىٰ ذرّيّة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام من بني هاشم؟ أولم يسأل هذان النبيّان أن يبعث نبي من ذريّتهما؟ ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ فإذا كان محمّد صلى الله عليه وآله من بني هاشم، فهل هناك غير بني هاشم مرادون بالضمير «هم» في كلمة «منهم»؟ قطعاً ليس لك الّا أن تجيبنا بالإيجاب. وعليه فالنبيّ محمّد صلى الله عليه وآله هاشمي، مبعوث من بني هاشم، وهذه هي دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

سؤال آخر:

إذا سلّمنا بأنّ محمّداً صلى الله عليه وآله قد بعث بدلالة الآية من بني هاشم، فمن هم الأفراد

الذين سأل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يقوم هذا النبي الهاشمي بتعليمهم وتربيتهم؟ فقد صرّح القرآن قائلاً: ﴿رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾(١) أو ليست الآية صريحة بأنّ هذا الرسول الهاشمي منتخب من بين الهاشميين، أي أنّه يعلم ويزكّي فريقاً منهم؟ وهل من الصواب القول أنّ معنى الآية هو أن يقوم هذا النبي الهاشمي المبعوث من بني هاشم بتعليم وتزكية عامّة البدو من العرب؟ سنترك الجواب للقُرّاء الأعزاء بعيداً عن التعصّب واللفّ والدوران.

وعليه: فإنّنا سنخرج صاحب المنار من ذلك الطريق المسدود، فنقول: إنّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام سألا الله أن يبعث رسولاً من طائفة من ذريّتهما. ولمّا كانت الطائفة التي بعث منها رسول الله صلى الله عليه وآله هي بني هاشم، فإنّ المبعوث من هذه الطائفة ـ بنصّ الآية ـ لابدّ أن يقوم بتعليم وتزكية هذه الطائفة، وأمّا الطائفة التي كانت تدور في ذهنك والتي تستلزم الدعوة الخاصّة لمهمّة خاصّة، ليست إلّا طائفة من بني هاشم، ولذلك نقول: إنّ آباء محمّد صلى الله عليه وآله قد سألا الله أمرين أساسيين: ظهور رسالة النبي العالمي للإسلام في طائفة من ذرّيتهما، والإمامة العالمية للدين في نفس تلك الطائفة، الإمامة التي يتلّقى الأئمّة علومها على يد رسول الله ودروسه الخاصّة لينهضوا بزعامة المسلمين إلىٰ الأبد.

وعلىٰ ضوء ما تقدّم لا يرد ذلك الوهم في أنّه كيف سأل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام الله أمراً مشكلاً بل محالاً عادياً لكي يجاب عليه من خلال عزّة الله وحكمته.

وهنا يبرز هذا السؤال: هل نهض النبي صلى الله عليه وآله بوظيفة تزكية وتعليم هذه الطائفة المعيّنة؟ والجواب سيكون بالسلب؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وآله مارس وظيفته من أجل تعليم وتزكية الجميع بما فيهم البدو من العرب والعجم والأُوربيين وغيرهم. والقرآن لم

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٩.

يصرّح بأنّه معلّم خاص، بل صرّحت الآيات بعموميّة تعليمه للجميع، من قبيل الآية: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(١).

فالآية الكريمة صريحة في عمومية تعليم وتربية رسول الله للأمّة، وكذلك الآية الكريمة من سورة الجمعة، رغم أنّها خصّت تعليم الرسول بالأُميّين وعرب مكّة وأُمّ القرىٰ، إلّا أنّها أزالت تلك الخصوصية ومنحت ذلك التعليم بعداً عمومياً، فقالت: ﴿هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٢).

كما صرّحت الآية: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾(٣).

وبناءً على هذا فالنبي الأكرم ﷺ معلّم عام للناس كافّة، ولا نريد أن نقول بأنّ التعليم إنّما يقتصر على طائفة محدودة هي طائفة من بني هاشم، بل نقول: إنّ دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هي قيام النبي محمّد ﷺ من أجل تربية وإعداد هذه الصفوة من أهل بيت النبوّة، وهذا ما لم يتحفّظ عليه جملة من مفسّري العامّة التي أوردت في تفاسيرها لهذه الآيات كلمة «أهل البيت». وقد كان حديث أبي عمرو الزبيري عن الإمام الصادق عليه السلام الذي أوردناه سابقاً صريحاً في هذا المعنىٰ.

ولا بأس بدراسة سائر الآيات بهذا الخصوص من أجل توضيح المراد بما

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٤.

(٢) سورة الجمعة: الآية ٢ ـ ٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٥١.

لايبقى معه مجال للشكّ، ففي الوقت الذي يعتبر فيه القرآن الكريم تعليم الكتاب والحكمة لكافّة الناس، نراه قد صنّف مثل هذا التعليم لينتقل به من الاختصاص إلىٰ العموم؛ أي أنّه خصّ التزكية والتعليم بالأنبياء ومن الأنبياء إلىٰ طائفة خاصّة ومن هذه الطائفة إلىٰ عامّة الناس، ولا يسعنا هُنا إلّا أن نستعرض هذا التصنيف كما صرّح به كتاب الله:

١ ـ قال الله تعالىٰ بشأن عيسىٰ عليه السلام: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾[1]، وخاطب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قائلاً: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾[2]. فالآيتان الكريمتان وأمثالهما مختصّتان بأنبياء الله، فالله هو معلم عيسىٰ ومحمّد صلى الله عليه وآله، وقد تولّت الذات الإلهيّة المقدّسة تعليم الأنبياء الكتاب والشرائع وأسرار الحكمة، فالله هو المربّي والنبيّ هو التلميذ وعلم الكتاب والحكمة هي المواد الدراسية.

٢ ـ قام الأنبياء في بعض الأحيان بوظيفة التعليم الخصوصي، فأعدّوا طائفة من المتخصّصين في علم الكتاب والحكمة وتزكية النفس وتهذيبها، فقد علّم الخضر موسى عليه السلام، كما كان أمير المؤمنين عليه السلام التلميذ الممتاز الخاصّ للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله، حيث قال: «علّمني ألف باب»[3] وقد تتلمّذ هارون علىٰ يد أخيه موسىٰ عليه السلام، كما تتلمّذ الحواريون علىٰ يد عيسىٰ عليه السلام. وأوضح آية يمكننا الاستشهاد بها بشأن تعليم النبي الخاصّ لتلامذته وخاصّته من أهله، هي التي نخوض في بحثها ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

٣ ـ أمّا الآيات التي تدلّ علىٰ عمومية رسالة النبي صلى الله عليه وآله وكون التهذيب

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٤٨.

(٢) سورة النساء: الآية ١١٣.

(٣) الإرشاد للمفيد ١: ٣٤، إعلام الورى ١: ٣١٨، بحار الأنوار ٤٠: ١٤٤ ح ٥٠.

الأخلاقي والتعليم والتزكية عامّة للجميع، فهي الآية الثانية من سورة الجمعة والآية ١٥١ من سورة البقرة والآية ١٦٤ من سورة آل عمران التي ذكرناها سابقاً.

فالذي تفيده الآيات الواردة في هذا الباب هي:

١ ـ أنّ الأنبياء تلامذة مدرسة الوحي.

٢ ـ الأنبياء أساتذة المجتمعات البشرية.

٣ ـ تلامذة الأنبياء علىٰ قسمين: تلامذة متفوّقون يتعلّمون ويتزكّون مباشرة من قبل النبي وتعليمه الخاصّ، وتلامذة اعتياديون يتلّقون تعليم النبي وهدايته وإرشاده العام.

٤ ـ المهمّ في جميع هذه المدارس هو تعليم كتاب الله والحكمة، فالله يعلّم أنبياءه كتابه من خلال الوحي كما يعلّمهم أسرار الخلقة والدين، فيقوم الأنبياء بتعليم هذه الأُمور بصورة خاصّة إلىٰ التلامذة المتفوّقين الذين يضاهون الأنبياء بلطف الله في إخلاصهم وطاعتهم وتسليمهم لله، كما يقومون بأنفسهم أو بواسطة هؤلاء التلامذة الأكفّاء بتعليم هذه المواد العلمية إلىٰ عامّة التلامذة.

إشكال مهمّ:

كان البحث في أن تستنبط قضية الإمامة من الكتاب، وقد استشهدنا بالآيات المرتبطة بدعوة إبراهيم عليه السلام علىٰ أنّ مبدأ الإمامة قد طرح منذ زمان إبراهيم عليه السلام، والشرائط التي ينبغي أن تتوفّر وتكتمل في الإمام هي الوقوف التام علىٰ كتاب الله وأسرار الدين، واشتماله على النفس الزكية والروح السامية، التي لا يشوبها أدنى دنس أو سابقة من شرك وظلم ورجس أخلاقي وعبادة للهوىٰ والهوس والخرافات. وقد تمسّكنا ـ لإثبات هذا الأمر ـ بذيل الآية التي قالت: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ...﴾ والحال أنّ هذه الآية وردت بشأن تعليم وتزكية

عامّة المسلمين، وقد ورد في القرآن قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[1].

وبناءً علىٰ هذا فكما يتمتّع الإمام بتعليم وتزكية النبي، فإنّ هذا التعليم والتزكية يشملان عامّة المسلمين، فأيّ امتياز للأئمّة ورد في هذه الآيات؟ فكما أنّ النبي معلّمهم ومواده الدراسية هي الكتاب والحكمة والتزكية، فهو معلّم الجميع ويعلّمهم ذات المواد، فليس هنالك أيّ مزيّة للأئمّة علىٰ غيرهم، في أنّهم تلامذة مدرسة الوحي، وأنّ لهم اطّلاعاً وإحاطة بجميع كتاب الله وأسرار الشريعة ويشتملون علىٰ كافّة الكمالات الإنسانية، فلو كانوا كذلك، لكان كلّ تلميذ في هذه المدرسة كذلك أيضاً؛ لأنّ الآيات لم تثبت سوىٰ كون النبي صلى الله عليه وآله معلّماً لهم بصورة خاصّة ولعامّة الناس بصورة عامّة وكون المواد الدراسيّة نفسها.

هذه خلاصة الإشكال الذي قد يقتدح في ذهن مَن ليس له معرفة بالقرآن الكريم، وهنا لابدّ من الالتفات إلىٰ أصل القضية ليتّضح الأمر.

فقد سأل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أمرين مهمّين هما:

١ ـ بعث نبيٍّ من ذريّتهما من طائفة بني هاشم.

٢ ـ قيام النبي المبعوث من هذه الطائفة بتعليم وتزكية طائفة من أهل بيت النبوّة، بحيث ينهض رسول الله بهذه الوظيفة مُباشرة دون واسطة.

وبناءً علىٰ هذا فإنّ مثل هذا التعليم الخاص كان غاية ودعوة إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، وقد أُجيبت دعوتهما، أي قد بعث نبي من هذه الطائفة، كما قام الرسول بوظيفته التعليمية مُباشرة، ولا تعني استجابة الدعاء أنّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يريدان فيقوم النبي ويمارس وظيفته التعليميّة دون أن يكون للأئمّة من دور في هذا الأمر، بل معنى استجابة الدعاء هو ظهور أفراد أشدّاء وأزكياء

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٤.

وعُلماء بكتاب الله وآيات الرحمن، ومن ذوي البصائر بفلسفة الدين وأسرار الخليقة.

ودليل هذا الظهور أنّهم في الوقت الذي يعيشون الإخلاص والتسليم، وتنبض قلوبهم بالتوحيد وعشق الحق، فقد كانوا يتضرّعون لأن يظهر مثل هؤلاء الأفراد في هذه الطائفة يتّصفون بالإخلاص في العبودية لله، ويعيشون الانقطاع والتسليم لله والطهارة من كلّ رجس ودنس، وعليه: فهذه الطائفة المخلصة كانت تمتلك الاستعداد الروحي، وقد تعلّمت وتزكّت بفضل هذا الإستعداد في مدرسة الرسالة تحت إشراف النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وتعليمه الخاصّ.

ولعلّ كلمات أمير المؤمنين علي عليه السلام في نهج البلاغة بشأن كيفيّة ترعرعه في حضن رسول الله صلى الله عليه وآله والسموّ والكمال الذي بلغه في ظلّ العناية التي أولاها إيّاه النبي صلى الله عليه وآله ومنزلته الخاصّة لديه إشارة إلىٰ هذا المعنى، فقد قال عليه السلام: «وضعني في حجره وأنا ولد يضمّني إلى صدره، ويكنفني إلى فراشه، ويمسّني جسده ويشمّني عرفه، وكان يمضغ الشيء ثمّ يلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل. ولقد قرن الله به صلى الله عليه وآله من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره. ولقد كنت أتّبعه اتّباع الفصيل أثر أُمّه، يرفع لي في كلّ يوم من أخلاقه علماً يأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاور في كلّ سنة بحر فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وخديجة وأنا ثالثهما، أرىٰ نور الوحي والرسالة، وأشمّ ريح النبوّة، ولقد سمعت رنّة الشيطان حين نزل الوحي عليه صلى الله عليه وآله فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنّة؟ فقال: هذا الشيطان آيس من عبادته، إنّك تسمع ما أسمع وترىٰ ما أرىٰ، إلّا أنّك لست بنبيّ، ولكنّك وزير وإنّك لعلىٰ خير»[1].

---

(١) نهج البلاغة لمحمد عبده: ٤٣٦ ـ ٤٣٧.

فكلمات أمير المؤمنين عليه السلام تجيب عن كلّ دعوات إبراهيم عليه السلام وتوضّح استجابة دعائه.

فقد سأل إبراهيم عليه السلام الله أن يتصدّىٰ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لتعليم وتزكية طائفة من ذريّته ،فيقول أمير المؤمنين عليه السلام :وضعني في حجره وأنا ولد يضمّني إلىٰ صدره ، ويكنفني إلى فراشه ويُمسّني جسده ، ويُشمّني عَرفه ، وكان ... يرفع لي في كلّ يوم من أخلاقه علماً ،ويأمرني بالاقتداء به ، وقد جهد نفسه في تربيتي وتزكيتي حتّى أصبحت أرىٰ مايرىٰ وأسمع مايسمع ،ولم يعد هناك من فارق بيننا سوىٰ في النبوّة وحقيقة الرسالة ، فلما رأىٰ ذلك منّي قال صلى الله عليه وآله: إنّك لست بنبيّ ، ولكنّك وزير وإنّك لعلى خير.

فهؤلاء ـ أي بني هاشم ـ هم مفاد الآية ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ...﴾. أمّا سائر الآيات فليست لها من دلالة علىٰ قيام النبي بمثل هذه الوظيفة تجاه سائر الناس ، وذلك لأنّ سائر الآيات لا تفيد أنّ كافّة الناس يملكون استعداداً لتقبّل هذه التعليمات ، أو أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان مجبراً علىٰ أساس وظيفته الشخصيّة على إيصال كافّة الناس إلى تمام مراحل الكمال وتهذيب النفس وأسرار الدين ، بل كانت الوظيفة في أن يلقي النبي صلى الله عليه وآله دروسه العلمية التربوية ، ويحيط الآخرين علماً بالآيات القرآنية والأحكام والتعاليم الإسلامية والأسرار الدينية ، ولكن هل تبلغ الأُمّة تمام هذه المراحل وتحيط بكافّة أسرار القرآن وتسلّم لتعليمات محمّد صلى الله عليه وآله وآيات القرآن؟

لم تبحث مثل هذه الأُمور في الآيات القرآنية ، كلّ ما هنالك هو أنّ القرآن الكريم قد أكّد في أكثر من آية أنّ وظيفة النبي صلى الله عليه وآله تجاه الناس ليست بإيصالهم إلى آفاق العلم والتهذيب والكمال ، بل وظيفته إضاءة الطريق والتعريف بمعالم الدين والطرق التربوية العلمية ، فمن أراد أن يبلغ هذه الحقائق وجب عليه أن يبذل جهده ويستفرغ وسعه في اتّباع المبادئ الإسلامية ، ومن لم يرد فعلى نفسه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي

الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١).

بل القرآن يؤكّد أنّ وظيفة النبي ﷺ هي بيان الحقائق، والأُمّة مكلّفة بالتفكير في هذه الحقائق واتّباعها: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢).

وأخيراً فإنّ القرآن لم يأمر النبي ﷺ بحمل الناس بالقوّة علىٰ التعليم والتهذيب، بل وظيفته الإبلاغ والإنذار، ووظيفة الأُمّة التدبّر في التعاليم، فقد صرّحت الآية قائلة: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾(٣)، بل سلب القرآن عن النبي ﷺ القيام بهذا الأمر: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾(٤).

وعليه: فالآيات لا تصرّح بأكثر من وظيفة عامّة للنبي ﷺ في إبلاغ القرآن والأحكام وسبل التعليم والتربية والتزكية، والأُمّة مخيّرة بين الاتّباع وعدمه.

أمّا الآيات التي نحن بصددها وبقرينة أنّ طائفة بني هاشم بدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أنّها تمثّل العبودية والتسليم المحض لله، وبقرينة وظيفة النبي بتعليمهم وتزكيتهم مُباشرة دون واسطة، إلىٰ جانب تصريح أمير المؤمنين عليه السلام بقيام النبي بهذه الوظيفة المهمّة، وبقرينة ماهو أهم من دعاء الأجداد وهو إرساء مقام الإمامة، فإنّ هؤلاء عُرفاء بفنون القرآن، وخبراء بفلسفة الأحكام، وبُصراء بأسرار الكتاب، وعلماء بحكمة الخليقة والكون، وعليه فإنّنا نستطيع أن نقول بأنّ

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

(٢) سورة النحل: الآية ٤٤.

(٣) سورة ص: الآية ٢٩.

(٤) سورة الغاشية الآيتان ٢١ـ٢٢.

الآية الكريمة تفيد أنّ هؤلاء زُعماء وقادة وفقهاء في الدين، وعُلماء بتعاليم الإسلام، وخُبراء ببرامج وخطط القرآن، وعُرفاء بالسياسة والنظم الاجتماعيّة وبكافّة خفايا ومغيبات العالم. فالآية الشريفة بصدد بيان مقام وشخصية الإمام وشرائط إمامة المسلمين من وجهة نظر القرآن الكريم.

وعليه: فالفارق في النتيجة هو أنّ النبيّ ـ المعلّم الأوّل ـ هو مربّي طائفة من بني هاشم، ونتيجة هذا الأمر مفيدة للغاية وقيّمة، ونفس هذا النبي معلّم لعامّة الناس، إلّا أنّ نتيجة هذا الأمر تعتمد علىٰ نفس المسلمين، ومعلوم أنّ توقّع النبي من الطائفة الأُولىٰ لا يمكن أن يكون كتوقعّه من عامّة الناس أبداً.

وهذا ما أشار إليه أمير المؤمنين علي عليه السلام إذ قال: «لا يُقاس بآل محمّد صلى الله عليه وآله من هذه الأُمّة أحد، ولا يُسوّىٰ بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً، هم أساس الدين وعماد اليقين، إليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حقّ الولاية، وفيهم الوصية والوراثة»(١).

وقال عليه السلام: «آل النبي عليه الصلاة والسّلام موضع سرّه ولجأ أمره وعيبة علمه ومؤئل حكمه وكهوف كتبه وحبال دينه، بهم أقام انحناء ظهره وأذهب ارتعاد فرائصه» (٢).

فقول أمير المؤمنين عليه السلام يفيد أن ليس هنالك سوىٰ أهل البيت الذين لهم الإحاطة بالدين، وهم عيبة علم رسول الله صلى الله عليه وآله، وملاذ المسلمين في النوائب والمصائب، وهذا دليل علىٰ صحّة ما أوردناه سابقاً بشأن الآيات التي صرّحت بهذا الأمر، حيث أثبتنا حينها أنّ الأئمّة عليهم السلام وبفضل التعليم المُباشر لرسول الله صلى الله عليه وآله لهم معرفة واطّلاع كامل علىٰ جميع أسرار القرآن وكافّة شؤون الإسلام والحوادث الغيبية والخفايا الكونية، كما يؤكّد على أنّ تعليمات النبي وإن كانت عامّة

---

(١) (٢) نهج البلاغة لمحمّد عبده: ٨٢ـ٨٣.

وللمسلمين أن يغترفوا من هذه العلوم والمعارف القرآنية والأسرار الدينية، غير أنّه لا يمكن مقارنتهم قط بآل محمّد عليهم السلام، فهم معدن العلم والحكمة، وإليهم يفيء الغالي وبهم يلحق التالي، ولا يستند أحد إلى علمه بشأن الدين إلّا أن يخرج عن الاعتدال أو يتخلّف عن قافلة المسلمين، وبناءً على هذا فالإشكال السابق الذي يُطرح بشان مزية الأئمّة عليهم السلام ليس بوارد، حيث دلّتنا الآيات الكريمة علىٰ فضلهم وسبب ترجيحهم.

فهرس الكتاب إلى هنا:

ما مرّ معنا لحد الآن بعض الأُسس المتينة في الإمامة، نشير إلىٰ فهرسها بصورة مختصرة:

١ ـ الدين الإسلامي دين خالد وعلىٰ هذا الدين أن يعتمد السبل التي من شأنها الإبقاء على أبديّته.

٢ ـ يقتضي حكم العقل أن يوفّر كلّ ذي هدف إذا أراد لهدفه الإتقان كافّة العلل والأسباب التي تؤثّر في تحقيق الهدف وثباته، ولمّا أراد الحقّ الخلود للدين الإسلامي فبحكم العقل قد أعدّ موجباته، وبخلافه سينتقض الغرض، وتتصدّع عرىٰ الدين وأُسس الإسلام.

٣ ـ لقد تكفّل الحقّ بنصب الأئمّة علىٰ ضوء الآيات القرآنية والأخبار التي صرّحت بهذا الأمر، بغية الحيلولة دون فناء الدين وبقاء كلمة التوحيد، وإعداد العناصر والأفراد الذين بلغوا قمّة الكمال الإنساني والذين يعدّون الخلق إلىٰ العالم الأُخروي الأبدي.

٤ ـ الأئمّة علىٰ ضوء تصريح ونصّ رسول الله هم اثنا عشر، وقد أشرنا سابقاً إلى هذا الأمر، وسيأتي تفصيله في المجلد الثاني من الكتاب.

٥ ـ لأئمّة الإسلام وظيفة في زعامة الأُمّة وهدايتها، وهدفهم إقامة النظام الاجتماعي على ضوء القرآن والسُنّة النبويّة.

٦ ـ إمامة أئمّة الإسلام خالدة أبديّة.

٧ ـ واجب الأُمّة تجاه هؤلاء الأئمّة هو الانقياد والطاعة والتسليم، وذلك بفضل مزاياهم في كافّة شؤون الزعامة والإمامة.

٨ ـ الإمام كما يصفه أمير المؤمنين والإمام الحسين عليهما السلام من يقوم لله بهذه الوظيفة، ويعمل بالعدل والقسط والانتصار للمظلوم وإنقاذ الضعفاء وإعمار البلاد وضمان حقوق الأفراد، وإحياء معالم الدين وسنن القرآن، وعدم الاغترار بالدنيا وزخارفها.

ونخوض الآن في شرائط الإمامة رغم اتّضاح هذا الأمر من خلال الأبحاث السابقة، ولكن قبل الدخول في تفاصيل هذا الأمر، لابدّ من التعرّض إلىٰ:

سؤال يثير الأسف:

لقد ذكرتم بأنّ القرآن الكريم أشار إلىٰ مكانة ومنزلة الإمام، وأنّه يستند في تشكيله للحكومة إلىٰ القرآن الذي يعتبر هو الدستور، وقلتم بأنّ القرآن يرىٰ الأئمّة هم زعماء الأُمّة الذين يقيمون حكم الله ويعملون علىٰ إحقاق حقوق الأُمّة وإعمار البلاد، وقلتم وقلتم... وهنا يرد هذا السؤال الذي يثير الأسىٰ والأسف، فإذا كان الإمام بهذه المنزلة التي رسمها القرآن وحدّد معالمها، لِمَ لم يصبح الأئمّة الأطهار زُعماء للأُمّة؟ وإذا كانت وظيفة الإمام تكمن في القيام من أجل ضمان مصالح المجتمع وبسط العدل والقسط في ربوع البلاد، لماذا لم ينهض أئمّة الإسلام واعتزلوا الساحة، ولم يتزعّم أحد منهم الحكومة سوىٰ أمير المؤمنين علي عليه السلام؟ أفلم ينصّبهم الله أئمّة؟ والقرآن يدعو لقيام الحكومة الإسلامية بزعامة هؤلاء

الصفوة! وهل هذا النصب الذي لم يكن له من يشغله وهذه الحكومة التي نهض بها من ليس لها بأهل! أفلا يدعو هذا الأمر إلىٰ أنّ ذلك النصب والتصريح بزعامة هؤلاء للحكومة كان لغواً وعبثاً؟

الجواب:

هذا السؤال مؤسف، مؤسف في أنّه لِمَ لم يتزعّم أولياء الله الحكومة، في حين وقعت بيد بني أُميّة وبني العباس!

وهنا لابدّ من القول بأنّ المراد لم يكن حتمية تزعّم الصفوة للحكومة، بل كان الحديث في أنّ القرآن يرىٰ أنّ هذه الصفوة هي الجديرة بمقام الإمامة وزعامة الحكومة الإسلامية. هذا هو مشروع الإسلام وتخطيط القرآن، أمّا المنفّذ لهذا المشروع فهو الأُمّة، الأُمّة كانت موظّفة بإقصاء بني أُميّة عن الحكم والانقياد لأولياء الله من بني هاشم، إلّا أنّها لم تفعل ولم تنفّذ الخطّة القرآنية، كما ولّت ظهرها لسائر أحكام القرآن وتعاليم الإسلام، فهل يعتبر قانون تحريم المسكّرات لغواً إذا ما تفشّت هذه المسكّرات في أوساط المجتمع؟ أم أنّ التحريم صائب لكن الأُمّة شقية، مع ذلك لابدّ من القول بأنّ الأئمّة الأطهار عليهم السلام قد نهضوا وقاموا وسيأتي اليوم الذي تشكّل فيه حكومة العدل الإلهي العالمية، وسنترك تفاصيل هذا الأمر إلى المجلد الثاني، ليعلم حينها أنّ الأئمّة عليهم السلام قد نهضوا بالأمر ما استطاعوا إلىٰ ذلك سبيلا، وقد شكّلوا الحكومة الحقّة أو كشفوا للآخرين عن معالمها، وأخيراً رسموا طريق الحقّ حتّى في حكومة الآخرين...

سنتابع الإجابة عاجلاً.

قبسات من شرائط الإمامة

هنالك عدّة أُمور من شأنها كشف النقاب عن شرائط الجهاز الحاكم والنهوض بمهمّة الزعامة والإمامة مِن قبيل: خلود هذه الزعامة واعتماد القرآن دستوراً للحكومة الإسلامية، وإيصال الأُمّة إلىٰ بغيتها وطموحها، وتحقيق أهدافها الإنسانية العُليا، وبسط العدل والقسط، وإشاعة مفاهيم الإيمان، والقضاء على الفتن والمفاسد والانحرافات، وتحقيق استقلال البلاد، والقيام بكلّ هذه الأُمور لله وفي الله، والابتعاد عن زخارف الدنيا وزبرجها وعدم الاغترار بها، والشفقّة والرأفة بالرعية، بحيث لا يسلب نملة جلباب شعيرة، كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام[1] والاغتمام والتألّم من الاعتداء علىٰ حقوق المسلمين، إلى جانب يذلك نرىٰ ضرورة التعمّق في القرآن الكريم من أجل الوقوف علىٰ هذه الشرائط، وما أورده علماء الكلام بهذا الشأن.

---

(١) نهج البلاغة لمحمد عبده: ٤٩٥.

خلاصة شرائط الإمامة :

١ـ العصمة

٢ـ الأفضلية والأرجحية

٣ـ عدم الاشتمال على الظلم والشرك

٤ـ العلم التامّ والإحاطة بالقرآن والأحكام الإسلامية

٥ـ الكرم

٦ـ الزهد

٧ـ الحلم

٨ـ سداد الرأي

٩ـ الفصاحة

١٠ـ الشجاعة

١١ـ المروءة والشهامة

١٢ـ طهارة المولد

١٣ـ سلامة البدن وعدم النقص في الخلقة .

هذه نبذة من الصفات التي ينبغي توفّرها في الإمام، وهناك صفات أُخرى يمكن إيجازها في هذه العبارة: «أفضليته في جميع الكمالات النفسية علىٰ سائر الأفراد واشتماله علىٰ كافّة الشرائط ، وتمتّعه بالسلامة الجسمية التامّة الخالية من النقص والعيب» .

بحث في تفاصيل هذه الشرائط:

علل الزعامة: لا تعتبر الزعامة بطبعها أمراً تعاقدياً ولو تقدّمت جماعة على أُخرىٰ ؛ فإنّ هناك عناصر توجب مثل هذا التقدّم ، من قبيل التمتّع ببعض المزايا التي

تجعل البعض يتقدّم على البعض الآخر الذي لا يتحلّى بمثل هذه المزايا، الأمر الذي يحتّم علىٰ الفاقد اتّباع الواجد والخضوع له. فلو كان هناك طفل أعقل وأفضل وأرأف وأكفأ من سائر الأطفال؛ فإنّه يلفت نظرهم إليه ويُشار له بالبنان في محلّته بما يجعله رئيساً لهم في اللعب مثلاً. ولو كان هناك في السوق فرد ذو كفاءة ودراية، وكان بعيداً عن الغشّ والتدليس في معاملاته وذا أفكار تفيد الآخرين في التجارة، ويعتمد العفو والشجاعة والأخذ بيد الضعفاء وإعانة الفقراء من أهل السوق، فممّا لاشكّ فيه أنّه سيصبح قدوة للآخرين الذين يرون أنفسهم مضطرّين لاتّباعه واقتفاء أثره، وبالتالي سيحتلّ موقعاً يجعله مرشداً وهادياً لزملائه في العمل. وهكذا سائر الموارد. وتصدق هذه القضية بالنسبة للشرائط التي يرىٰ الإسلام إيجابها لنهوض بعض الأفراد بقيادة الأُمّة.

والذي نريد أن نخلص إليه هو عدم وجود القيود المفروضة من قِبل الإسلام علىٰ إشغال هذا المنصب، بل هنالك شرائط مطلوبة يقتضي الطبع السليم والفطرة الطاهرة توفّرها في الإمام، فطبيعة فطرة الإنسان تقوده إلى اختيار مثل هؤلاء الأفراد الذين يتمتّعون بهذه المزايا.

سؤال:

يمكن أن يُطرح سؤال، وهو إذا كانت هذه الشرائط متوافرة في شخص فمن الطبيعي علىٰ الأُمّة أن تختاره زعيماً ولا ترى لغيره مثل هذا المقام، فكيف اعتبرت ـ فيما مضى ـ قضيّة الإمامة انتصابية، وأثبتّ أنّ الإمامة من المناصب الإلهية المرادفة للنبوّة والتي تتعيّن من خلال الوحي؟ فهل هناك من حاجة لهذا النصب الإلهي إذا كانت الشرائط المذكورة متوفّرة؟ فإنّه من الطبيعي لواجد هذه الشرائط أن ينتخبه الناس.

الجواب :

أوّلاً: كما قيل سابقاً فإنّ الانتخاب الصائب أمر فرضي، ولا يمكن هذا الإنتخاب أن يتحقّق في المجتمعات التي يقودها الظلمة الذين يتلاعبون بمقدّرات الأُمّة، وهذا ما لمسناه في التجربة الإسلامية التي هبّ فيها الظلمة لحرفها عن مسارها الصحيح.

ثانياً: علىٰ فرض إمكانية حدوث الانتخاب الصائب فهناك مشكلة عويصة تكمن في تعذّر تشخيص الأُمّة للفرد الجامع لهذه الشرائط، بل مثل هذا الأمر محال على الأُمّة، بسبب ضعف قدرة تشخيصها، ولذلك كانت هذه المهمّة لله المحيط بكافّة خصائص الأفراد ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[١].

والآن لابدّ أن أنّه نرىٰ هل تعرّض القرآن الكريم لهذه الشرائط المعتبرة في الإمام؟ وعلىٰ فرض استعراض القرآن لهذه الشرائط، هل اعتبر النجاح والموفقيّة كامنة في هذه الشرائط؟

وبعبارة أُخرى: هل يحكم القرآن بما تحكم به الفطرة بالنسبة لمقام الإمامة ويمضي هذا الحكم، أم يفرض إرادته في هذا النصب بما لا ينسجم والعقل والفطرة السليمة؟

القرآن وشرائط الإمامة

قلنا ـ سابقاً ـ بأنّ إبراهيم عليه السلام قد أصبح إماماً بعد أن اجتاز الاختبارات السبع، وقد تمثّلت مواد الاختبار بامتلاك القدرة العميقة من أجل الزعامة والمنطق القوي الاستدلالي والشجاعة والزهد والمروءة، وفي مقدّمتها الشجاعة في مجابهة

---

(١) سورة غافر: الآية ٤٤.

الأفكار السائدة القائمة علىٰ أساس الجهل والخرافة، فقد كان إبراهيم عليه السلام شديداً في التنمّر للحقّ مضحّياً في سبيل الله. كلّ هذه الأُمور أعدّت إبراهيم عليه السلام للإمامة، حتّى أفاضها الله عليه، وعليه فقصّة إبراهيم عليه السلام قد ركّزت علىٰ شرائط الإمامة، مع ذلك سنحاول دراسة سائر الآيات الواردة بهذا الشأن.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِى إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَيْهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِى الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِن رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ﴾(سورة البقرة: الآيات ٢٤٦ـ٢٤٨).

طلب قائد للجيش

تتحدّث هذه الآيات عن قصّة نبي من أنبياء بني إسرائيل، وطلب أتباعه منه بعث ملك وقائد من أجل استعادة الأراضي السليبة، ونتعرّف في هذه القصة على شخص باسم طالوت الزعيم المصطفى من قِبل الله، وجالوت الدكتاتور الغاشم، فقد نزح بنو إسرائيل عن وطنهم من جرّاء قهر جالوت وجبروته، وقد تركوا أموالهم وأبناءهم في قبضة جيش جالوت ليعيشوا بعيدين عن وطنهم، فسألوا نبيّهم أن يبعث لهم قائداً لمقاتلة جالوت واستعادة أراضيهم والعودة إلىٰ ديارهم وأبنائهم فاستجاب لهم نبيّهم، فاصطفى لهم الله طالوت قائداً. ولكن لم يصمد للقتال إلّا فئة قليلة من تلك الجماعة العظيمة، وأخيراً تمكّنت تلك الفئة القليلة بعد الاتّكال على الله والصبر والصمود من إلحاق الهزيمة بالعدو والانتصار عليه. ونحاول الآن تسليط الضوء علىٰ هذه الآيات للوقوف علىٰ بعض الأُمور:

فقد طلبت جماعة عظيمة من نبيّها أن يختار لها قائداً من أجل التخلّص من الأسر والنزوح وخوض معركة مقدّسة (في سبيل الله) فأراد ذلك النبي أن يعرف

مدى استعدادهم للقِتال، فطرح عليهم هذا السؤال: هل أنتم مستعدّون لخوض القتال إذا كُتب عليكم؟ فأجابوه جميعاً: ومالنا ألّا نُقاتل في سبيل الله، بعد أن فقدنا كلّ شيء!

ملاحظة مهمّة:

لقد استعدّت تلك الجماعة وتأهّبت للقِتال من أجل استعادة وطنهم وتحريره من المحتلّين الظلمة، وقد فوّضوا لنبيّهم اختيار قائد يقودهم. وهنا ورد التعبير عن هذه المعركة بالقتال في سبيل الله، وعليه: فإنّ القتال من أجل استقلال البلاد وتطهيرها من دنس الأعداء يعتبر قتالاً في سبيل الله، ولمّا كان الهدف الأصلي في مثل هذه المعارك إحياء معالم الأنبياء ومعارف الدين وتحقق كلمة التوحيد، فإنّ أبطال هذه المعركة إنّما يُقاتلون في سبيل الله، وهذا هو سبيل المجد والعظمة وتنظيم شؤون المجتمع وتحريره من براثن المستعمرين، أي أنّ المقاتلين وباتّكائهم علىٰ الله والقرب منه لابدّ أن يكون هدفهم الأصلي هو تقوية الأسس الدينية والتعاليم الإلهية؛ وسيضاعف هذا الهدف من قدرتهم القتالية بما يجعلهم يخرجون منتصرين من تلك المعركة.

وبناءً علىٰ هذا لا ينبغي أن يقتصر دافع القتال علىٰ استعادة الأراضي المحتلّة، ولابدّ أن يكون الدافع الرئيسي هو القتال في سبيل الله، وهو الدافع الذي يتضمّن الاستقلال والتحرير أيضاً، وبالنتيجة فإنّ مثل هؤلاء المقاتلين سينتصرون ويهزمون الأعداء.

إذن، فالاستقلال والنصر وطرد الأعداء لا يقتصر على دافع حبّ الوطن فحسب، بل ينبغي أن يكون حبّ الله هو الهدف، والذي تتمكّن البشرية من خلاله تحقيق الانتصارات الباهرة والحصول علىٰ الاستقلال.

طالوت:

لقد استجاب النبي لطلب قومه، فسأل الله ملكاً مقتدراً عليماً من أجل زعامة الجيش في القتال. فبعث الله طالوت ملكاً، فأخبر النبي قومه بأنّ أميرهم المَنَصَّب من قِبل الله هو طالوت.

أمّا طالوت فلم يكن من الطبقة المترفة الرفيعة في المجتمع، ولم يكن ثرياً عزيزاً حسب الطرق المُتعارفة، بل كان ينتمي إلىٰ طبقة فقيرة معدمة في المجتمع، غير أنّه كان قوياً لا يُضاهى في العلم والشجاعة، وقد زاده الله بسطة في العلم والجسم، إلىٰ جانب خبرته بفنون القِتال. وله قلب سليم مملوء بحبّ الله، وبالتالي فإنّ طالوت أُصطفي من قِبل الله من بين تلك الجماعة العظيمة للقيام بهذه الوظيفة الخطيرة، وهنا التفت النبي إلى قومه المبعدين عن وطنهم والذين يئنّون من أسر نسائهم وفلذات أكبادهم لدىٰ جالوت، وهم يعيشون القلق والاضطراب من أجل استعادة وطنهم والإطاحة بجالوت، فقال لهم: لقد بعث الله لكم طالوت فهبّوا للقتال تحت إمرته.

عادة ما تنصاع عامة الناس لمثل هؤلاء القادة، أمّا الطبقة المرفّهة والمتْرَفة الثرية التي تعتقد بأنّ الثروة تضفي عليهم جمالاً باطنياً زائداً على جمالهم الظاهري المزيّف، وحيث كانوا يمتلكون الأموال فهم يرون أنفسهم جامعين لكلّ شروط الكمال، وعليه فهم الذين ينبغي أن يتزعّموا البلاد ويأخذون بزمام الأُمور، وعلىٰ الجميع أن يخضعوا لإرادتهم وينصاعوا لأوامرهم، فوقفوا بوجه نبيّهم قائلين: ماذا يعني هذا الاختيار؟ أنّى يكون له الملك علينا ولم يؤت سعة من المال؟ هو ليس بغني ليتزعّمنا وتكون له الإمرة علينا! أو لست إلى جانب زعامتنا يا رسول الله؟ أو ليس رسالة الأنبياء هي دعم الأغنياء؟ أوليس الدين من إفرازات البنية الفكرية للأغنياء؟ وقد انبثقت دعوته لتأمين منافع ومصالح هذه الطبقة، فكيف تبرّر قضية

انتخاب طالوت؟ نحن لا نراه لنا زعيماً، ولا نرىٰ له من مقام، والزعامة والقيادة من حقوقنا المسلّمة، فلدينا الثروة والأموال. هذه هي اللغة التي اعتمدها الأثرياء والأغنياء في اعتراضهم علىٰ الأمر.

فأجابهم نبيّهم قائلاً: أنا رسول الله ولا أنطق إلّا عن الوحي، وقد اختار الله القادر الحكيم طالوتَ لإخلاصه ملكاً عليكم، فكيف ترون أنفسكم أحقّ بالإمامة والزعامة من أجل خلاص وطنكم وإنقاذه من أيدي الظلمة، والحال ليس لكم سوىٰ مزيّة فارغة لا تقوى أن تمنحكم ما تريدون! كيف ترون لباس الزعامة يسعكم وليس لكم من أفضلية علىٰ الآخرين سوىٰ هذه الثروة المزيّفة؟! وهل للثراء من سبيل إلى الزعامة؟! فما العلاقة بين المال والثروة وزعامة المجتمع!

أمّا طالوت فهو جدير بمقام الإمامة والزعامة، لاشتماله علىٰ شرائطها ومقوّماتها، فهو عالم مقتدر ذو بسطة وقدرة بدنية تؤهّله للصمود أمام العدوّ، بل هو أشجع المقاتلين. إنّ إمامة الأُمّة وزعامة الجيش في الحرب من أجل إحقاق حقوق الضُعفاء إنّما تتطلّب فرداً عالماً، ملمّاً بفنون القتال، شجاعاً ومقداماً ومتماسكاً أمام العدو، قادراً على السيطرة على الجيش وتحقيق النصر، وقد جُمعت كلّ هذه الصفات في طالوت.

طالوت الذي يمكنه أن يكون إماماً، بفضل اشتماله علىٰ مقوّمات الإمامة، ينبغي أن يكون له الملك حتّى يحقّق الاستقلال، ويستعيد الأراضي السليبة، ويعيد النساء والأطفال إلى أحضان آبائهم، ويستردّ الأموال والثروات التي نهبها الأعداء، وهذا هو الغرض من الزعامة والإمامة، وإذا لم تكن هذه الأُمور متوفّرة في الإمام فأنّى له حفظ استقلال البلاد وسيادتها ووحدة أراضيها ودحر العدوّ الطامع؟! فالملك لله، يؤتي ملكه من يشاء، وليس لكلّ فرد التصرّف في هذا الملك، وهو العالم بمَن يسعه القيام بمهمّة الإمامة ومن هو أولىٰ بها من غيره، وليس بينكم

من هو أولىٰ بها من طالوت.

نعم، إنّ الله يؤتى ملكه من تعلقّت به مشيئته، وتعلّق المشيئة ليس أمراً اعتباطياً، فلم تتعلّق مشيئة الله بطالوت عبثاً، وما ذلك إلّا لإخلاصه وعلمه الذي جعل الله يختاره ملكاً وإماماً على الناس.

خلاصة هذا البحث:

يمكن خلاصة ما مرّ من الدراسة المفصّلة في الآية القرآنية الشريفة: ـ ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِى الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

لم يستجب قوم بني إسرائيل وخاصّة الملأ منهم لهذا النبيّ كعدم استجابة الغالبية من الناس لدعوات الأنبياء عليهم السلام، فاضطرّ ذلك النبي للإتيان بشاهد حيّ لتأييد صحّة قوله، وليفهم الجميع بأنّ لطالوت صلاحية الملك والإمامة، ولنفهم نحن أيضاً ماهو الشرط الآخر الذي ينبغي توفّره من أجل الإمامة والشاهد الحيّ هو «التابوت».

التابوت:

وردت كلمة «التابوت» في هذه القصّة القرآنية، والألف واللام في الكلمة تفيد كون ذلك التابوت معرفة، أي كان معروفاً من قِبل بني إسرائيل. والذي نفهمه من القرآن أنّ ذلك التابوت كان يضمّ بعض الودائع ـ التي من شأنها إشعار بني إسرائيل بالسكينة ـ وآثاراً تركها موسىٰ وهارون عليهما السلام، ويعبّر القرآن عن هذه الصورة بقوله: ﴿يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِن رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى

وَآلُ هَارُونَ﴾. وقبل الخوض في التفاصيل لابدّ من القول بأنّ التابوت يعني الوعاء والصندوق. فقد ورد في اللغة أنّ التبوت، كصبور: لغة في التابوت[1]. وقيل: هو صندوق التوراة من خشب[2]. وأمّا الأُمور التي تستفاد من الآية فهي:

١ ـ أنّ ذلك الصندوق كان يضمّ ودائع وأمانات توجب سكينة الإنسان.

٢ ـ كانت تلك الودائع تحمل السكينة بعناية الله ولطفه.

٣ ـ نفهم من مناسبة الحكم والموضوع ـ أي الشيء الذي يؤدّي إلى سكينة بني إسرائيل ـ أنّ ذلك الصندوق كان يضمّ بلا شكّ التوراة أو بعض آياته، لأنّ التوراة التي من شأنها سكن وهدوء بني إسرائيل.

٤ ـ يفهم من العبارة «وبقية ...» أنّ ذلك الصندوق لم يضمّ التوراة لوحدها، بل كانت هناك الأشياء التي تناقلتها أيدي أهل موسى وهارون من قبيل عصا موسى وما شابه ذلك.

٥ ـ أنّ الصندوق قد نهب، وهو الأمر الذي جعل بني إسرائيل يشعرون بالتذمّر؛ لأنّه كان يرمز لعظمتهم إبّان عصر موسىٰ وهارون عليهما السلام، وواضح أنّ الصندوق قد سلب منهم بسبب عدم كفاءتهم، كما ليس لهم القدرة على إعادته.

٦ ـ كان بنو إسرائيل مطّلعين على أهمّية ما يحمل من أسرار.

٧ ـ أنّ لكلِّ مَن يسعه الإتيان به جدارة زعامة الأُمّة وقيادتها.

ولذلك اعتبر ذلك النبي أنّ أفضل دليل على كفاءة طالوت وأهليته للملك تكمن في إتيانه بذلك الصندوق، كما أنّ بني إسرائيل سيقرّون بصلاحية طالوت والإذعان بعجزهم وعدم صلاحيتهم إذا ما قام طالوت بتلك الوظيفة الخطيرة، وخلاصة ما أوردناه قد ورد في هذه الآية الشريفة: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ

---

(١) تاج العروس ٣: ٢٥.

(٢) مجمع البحرين ١: ٢٣٣.

أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِن رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ﴾. ثمّ إنّا وقد استفدنا من الآية الكريمة ماذكرناه وقلنا: إنّ ظاهر الآية الشريفة تدلّ على المطلوب، لكن مع غضّ النظر عن ذلك نشير إلى رواية واردة حول تفسير الآية الشريفة.

حديث أبي بصير:

علي بن إبراهيم قال: حدّثني أبي، عن النضر بن سويد، عن يحيىٰ الحلبي، عن هارون بن خارجة، عن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنّ بني إسرائيل بعد موت موسى عملوا بالمعاصي وغيّروا دين الله وعتوا عن أمر ربّهم، وكان فيهم نبي يأمرهم وينهاهم فلم يطيعوه، فسلّط الله عليهم جالوت؛ وهو من القبط، فأذلّهم وقتل رجالهم وأخرجهم من ديارهم وأموالهم واستعبد نساءهم ـ إلى أن قال ـ فقال لهم نبيّهم: «إنّ آية ملكه...» وكان التابوت الذي أنزل الله على موسى فوضعته فيه أُمّه وألقته في اليمّ، فكان في بني إسرائيل معظّماً يتبرّكون به، فلمّا حضرت موسىٰ الوفاة وضع فيه الألواح ودرعه وما كان عنده من آيات النبوّة وأودعه يوشع وصيّه، فلم يزل التابوت بينهم حتّى استخفّوا به، وكان الصبيان يلعبون به في الطرقات، فلم يزل بنو إسرائيل في عزّ وشرف ما دام التابوت عندهم، فلمّا عملوا بالمعاصي واستخفّوا بالتابوت رفعه الله عنهم، فلمّا سألوا النبيّ بعث الله تعالىٰ طالوت عليهم ملكاً يُقاتل معهم ردّ الله عليهم التابوت»[1].

ونفهم من هذا الحديث ما يلي:

١ ـ اهتمّ القرآن الكريم اهتماماً كثيراً بقضية الإمرة والزعامة، وليس لأيّ فرد النهوض بهذه المهمّة.

---

(١) تفسير القمّي ١: ٨١ـ٨٢، وعنه بحار الأنوار ١٣: ٤٣٨ ح ٤.

٢ ـ ينبغي أن يكون الزعيم الديني عالماً ومقتدراً، أي يمتلك العلم والقدرة.
٣ ـ لابدّ أن يكون بصيراً ملمّاً حتّى بفنون القتال.
٤ ـ يجب أن يتمتّع بقدرة بدنية مرموقة.
٥ ـ لابدّ أن يتحلّىٰ بحنكة الزعامة.
٦ ـ يجب أن يرد ميدان الحرب بنفسه إذا اقتضت ذلك مصالح الأُمّة.
٧ ـ لابدّ أن يكون شجاعاً باسلاً في الحروب.
٨ ـ يجب أن يحفظ استقلال البلاد ويستأصل جذور الاستعمار.
٩ ـ لابدّ أن يعيد إلى الأذهان أمجاد الماضي التي اعتراها النسيان.

وعليه: فخلاصة الشروط التي يراها القرآن الكريم في منصب الزعامة تتمثّل بالجدارة، العلم، القدرة، الخبرة بأوضاع المجتمع، سلامة الجسم، الإحاطة بفنون القتال، الشجاعة والإقدام والتدبير، كما يفهم من الآيات أنّ الزعامة منصب إلهي، والله هو الذي ينصّب الزعيم.

قولنا أم قول المفسّرين؟

نحن نقول بأنّ التابوت كان بيد جيش جالوت، وكان باستطاعة طالوت أن يستعيده، وهذه العملية المعقّدة كانت دليلاً على صلاحيّته لإمرة الجيش والزعامة، إلّا أنّ القرآن الكريم يقول: يأتيكم التابوت. أوليست هذه العبارة تؤيّد تلك الطائفة من المفسّرين التي قالت بأنّ التابوت قد رفع إلىٰ السماء وإنّ رجوعه من السماء معجزة تبيّن صحّة قول النبي بشأن إمرة طالوت؟ فقد جاء التابوت ورآه بنو إسرائيل فأذعنوا لزعامة طالوت وتأهّبوا للقتال، وهلّا كانت عبارة «وتحمله الملائكة» تؤيّد أقوال المفسّرين؟

الجواب :

يبدو أنّ هذا القول ليس بتام ـ والله أعلم ـ لأنّ عبارة «يأتيكم التابوت» «التابوت» فاعل للفعل «يأتي» دليل علىٰ أنّ القوم كانوا منزعجين جدّاً من فقدان التابوت الذي يحتوي آيات المجد والعظمة، وأنّهم كانوا يتطلّعون إلى الظفر به ثانية. وجملة «يأتيكم التابوت» تشعر بأنّ نبيّهم قد بشّرهم بعودة التابوت، حيث قال لهم: «يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربّكم» وهذا وعد من نبيّهم ليس أكثر، أمّا القطعي فهو قول النبي الذي يستند إلى كفاءة طالوت بحيث قال: إنّ التابوت يأتيكم، وهو كاشف عن مدى جدارة وأهلية طالوت، وهو الأمر الذي ينسجم والدلالة على زعامته، وإلّا فإنّ مجيء التابوت من السماء ليس له من علاقة بكفاءة طالوت من قريب أو بعيد، بل هو دليل على صدق نبيّ بني إسرائيل، بينما نعلم أنّهم طالبوه بآية بحقّ طالوت، لا آية تثبت صحّة قوله. فالآية واردة بشأن مَن يستعيد التابوت.

وبناءً على هذا فإنّ العبارة «يأتيكم التابوت» وعد قطعي باسترداد التابوت من قبل طالوت الجدير بهذه المهمّة، والآية اللاحقة تكشف أنّ هذا الأمل هو الذي دفعهم لقبول إمرته والتأهّب للقتال، ولذلك صدّر القرآن الجملة اللاحقة بالفاء «فلمّا فصل طالوت»، أي أنّهم استعدّوا لاسترداده علىٰ ضوء ذلك الأمل.

وقد نسب شيخ الطائفة ـ وهو أحد جهابذة الفقهاء والمحقّقين والمفسّرين ـ في تفسيره المعروف «التبيان» هذا المعنى إلى ابن عباس، كما نقل عن الإمام الصادق عليه السلام فقال: «وقيل: إنّ التابوت كان في أيدي أعداء بني إسرائيل من العمالقة الذين غلبوهم عليه على قول ابن عباس ووهب، وروي ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام»[1].

---

(١) التبيان في تفسير القرآن ٢: ٢٩٢.

ولا ينبغي أن يفهم من كلمة «وروي» التي أوردها الشيخ في الرواية عن الصادق عليه السلام توحي بعدم الوثوق بها؛ لأنّ كلّ من له معرفة بتفسير التبيان، يعلم أنّ عصر الشيخ رحمه الله كان يقتضي مثل هذه التعبيرات في الروايات المعتبرة، فقد كان يحتاط ويفهم الآخرين بعدم انطواء تفسيره على التعصّب، ولذلك كان يتعرّض في تفسيره إلى أقوال العامّة ويحاكمها بأُسلوب علمي رصين بعيداً عن التعصّب.

أمّا الرواية الأُخرى التي تؤيّد ذلك، فما ورد في تفسير نور الثقلين عن عيون الأخبار، أنّ شاميّاً قد سأل أمير المؤمنين علي عليه السلام في مسجد الكوفة عدّة أسئلة ومنها: «يا أمير المؤمنين أخبرني عن يوم الأربعاء وتطيّرنا منه وثقله وأيّ أربعاء هو؟ قال: آخر أربعاء في الشهر وهو المحاق، وفيه قتل قابيل هابيل أخاه ـ إلى أن قال: ـ ويوم الأربعاء أخذت العمالقة التابوت»[1]. فالرواية واضحة بأنّ التابوت كان بيد العمالقة[2]، إلّا أنّه كان في السماء واستعاده طالوت.

زبدة الكلام:

اتّضح من هذه الآيات ـ مع الأخذ بنظر الاعتبار المؤيّدات والروايات ـ أنّ الزعامة من وجهة نظر القرآن قائمة علىٰ أساس بعض الشرائط، فالزعيم لابدّ أن يمتلك العلم والتجارب المريرة في الحياة، لابدّ أن يكون ذا قدرة بدنية تؤهّله لإدارة

---

(١) تفسير نور الثقلين ٢: ٣٧٤، نقلاً عن عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٤٧.

(٢) نتيجة التحقيقات التي أوردناها تفيد بما لا يقبل الشك أنّ التابوت كان بيد العمالقة وجلاوزة جالوت الطاغي، ولعلّه يقال: لم يأت طالوت بالتابوت، بل كان ذلك آية وقعت قبل التأهّب للقتال ودليل من أجل تقبّل إمرة طالوت، أي أنّ الله جعل الإتيان بالتابوت آية لزعامة وإمرة طالوت حتّى تنصاع الأُمّة لأوامره، وربّما كانت علاقة الحكم بالموضوع تتفق وهذا الأمر، وذلك لأنّه ما لم يكن هناك اطمئنان لزعامة طالوت، سوف لن يكون هناك تأهّب للقتال، وعليه فمن الضروري حصول هذه الآية ابتداء، وهذا لا يتنافىٰ وعظمة التابوت من وجهة نظر بني إسرائيل، ولا يخدش المراد بقضية الإمامة استناداً للآيات الشريفة.

شؤون الحكومة والحفاظ على استقلال البلاد، وما إلى ذلك من الشرائط والمقومّات التي ذكرناها كراراً ومراراً.

ولكن قد يبرز هنا هذا السؤال:

سؤال:

أوّلاً: لقد ذكر القرآن الكريم هذه الشرائط بالنسبة للقيادة العسكرية، أي أنّ قائد الجيش ينبغي أن يكون صاحب رأي سديد ومقتدر وذا قوّة بدنيّة وعالماً بفنون القتال. وليس في هذه الشرائط ما يدعو للغرابة، فجميع العُقلاء والمفكّرين يتفقون على هذا الأمر، إلّا أنّ البحث كان في الإمامة. فكيف يستدلّ عليها بهذه الآيات؟

ثانياً: القصّة واردة في بني إسرائيل وزعامة طالوت في ذلك الزمان، فكيف يمكن تعميمها لتشمل زعماء الإسلام في أنّه لابدّ أن يكونوا جامعين لهذه الشرائط؟ وإلّا للزم من ذلك أن نقول بكلّ شرط إلهي ورد في زعامة موسىٰ وأمثاله، بالنسبة لزعماء وأئمّة الإسلام!

جواب:

يمكن طرح هذا السؤال بصيغتين:

١ ـ هل أنّ شرائط الإمامة في بني إسرائيل ذاتها في الإسلام، وكلّ شرط للزعامة في بني إسرائيل لابدّ أن نراه شرطاً في الإسلام أيضاً؟

٢ ـ تنطوي إمرة الجيش علىٰ بعض الشرائط الطبيعية والعقلائية، وهذا ما أشارت إليه الآيات الكريمة، فهل الإمامة كذلك في أنّها تتوقّف علىٰ الموازين العُقلائية والطبيعية؟ أم أنّ تلك القيود مختصّة بقائد الجيش، فمثلاً قائد الجيش لابدّ

أن يكون ذا قدرة بدنية وإحاطة بفنون الحرب والقتال، فلم يكن طالوت على ضوء الآية أكثر من قائد للجيش.

للردّ على السؤال الأوّل نقول:

النقطة الأُولىٰ: أنّ أُصول الأديان واحدة من حيث البنية العقائدية، وليس هنالك من دين ناسخ لآخر من هذه الناحية، فنسخ أُصول الدين ليس بمعقول، ولمّا كان الكلام عن النسخ، لا بأس ببحث هذه المسألة لتتضّح حقيقة الموضوع.

النسخ:

النسخ يعني إزالة الشيء واستبداله بآخر بحيث يحلّ الثاني بدل الأوّل، فالعرب تقول: «نسخت الشمس الظلّ» و «نسخ الشيب الشباب»[1].

وعليه فهناك أمران معتبران في مفهوم النسخ إلى جانب إزالة المنسوخ، وهما:

١) اعتبار ما يحلّ محلّ المنسوخ.

٢) اعتبار النقل والتبديل.

ويؤيّد ما ذهبنا إليه استعمال كلمة «المناسخة» في باب الإرث، فكلّما مات وارث وحلّ محلّه وارث آخر، أو مات هذا الثاني وحلّ مكانه ثالث استعملت لفظة المناسخة بهذا الشأن، ونلاحظ هنا بأنّ وارثاً قد خلّف وارثاً آخر، وقد حدث انتقال وتبديل في الإرث من يد إلىٰ أُخرىٰ. وقد عبّر القرآن بالتبديل عن نسخه بعض الأحكام والآيات، فقد قالت الآية الشريفة: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2]. فالآية الثانية تزيل الأُولى وتحلّ محلّها، وهذا هو النسخ.

---

(١) انظر التبيان في تفسير القرآن ١: ٣٩٣، مجمع البيان ١: ٣٠٠.

(٢) سورة النحل: الآية ١٠١.

وعلى كلّ حال، في القرآن الكريم آيات ناسخة لآيات أُخرىٰ، والآية المنسوخة باقية علىٰ حالها مدوّنة في القرآن، والنسخ لا يعني إزالة صورتها من كونها آية، فهي باقية ومحفوظة من حيث النزول، ولكن لم يعدّ لها من أثر، وفقدان الشيء لأثره يعني في الواقع زواله وتساوي وجوده وعدمه...

إذن، فالنسخ لا يعني شيئاً أكثر من زوال الأثر. وبعبارة أوضح: فإنّ نسخ الآية هو عبارة عن إزالة حكمها واستبداله بحكم الآية الثانية «الناسخة». ونخلص من هذا إلى أنّ نسخ الآيات إنّما يقتصر على الآيات المتعلّقة بالأحكام، ولا يسري هذا النسخ أبداً إلى الآيات التي تتعرّض إلى الحقائق المسلّمة التي لا يعتريها التغيير. أفيمكن تصوّر النسخ بحقّ الآية الشريفة ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾؟ أو يمكن زوال الحقائق الثابتة والدائمة؟

ولمّا كانت الأديان واحدة في العقائد، وقد نهض جميع الأنبياء بمهمّة هداية الأُمم لهذه العقائد، فإنّه يمكننا القول بأنّه ليس هنالك من دين ينسخ آخر من حيث الأُصول العقائدية، فالاعتقاد بالله والثواب والعقاب والحساب وصفات الجمال والكمال إنّما هي من الحقائق المسلّمة التي تأبىٰ التغيير والزوال، ولذلك فإنّ النسخ إنّما يكون في الشرائع.

وبعبارة أُخرىٰ: لابدّ من الإذعان بأنّ الدين الإسلامي ليس بناسخ لنبوّة ورسالة من كان قبله من الأنبياء، بل القرآن ناسخ لشرائع سائر الأنبياء، فهذا القرآن لا ينفكّ يؤكّد أنّ الكتاب السماوي الإسلامي ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾[1] ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ﴾[2]. ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[3]. ﴿مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ﴾[4]

---

(١) سورة البقرة: الآية ٨٩، ١٠١.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٨١.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٩٢.

(٤) سورة البقرة: الآية ٤١؛ سورة النساء: الآية ٤٧.

﴿مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ﴾(١)، و ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ...﴾(٢).

ولكن لا ينبغي أن نغفل عن قضية، وهي أنّ كلّ ما يقوله موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام بالنسبة لله، يقوله خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله، فالجميع يصفون الله بأنّه حكيم وقدير وعليم وسميع، غير أنّ أُسلوب الأنبياء يختلف في معرفة حقيقة كون الله حكيماً وسميعاً وعليماً و... لأنّ أتباع الرسل يختلفون في درجة الفهم والإدراك، بل حتّى الأنبياء يختلفون في مدىٰ إدراكهم لجميع المغيّبات ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾(٣).

فالأُمّة الإسلامية قد بلغت آخر مراحل الفهم والإدراك، ومن الطبيعي أن تكون الحقائق التي تطرح على هذه الأُمّة متعذّرة الفهم والإدراك على الأُمم الماضية، وأنّ الحقائق والإدراكات والأنوار التي أفاضها الله على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لايسع سائر الأنبياء تحمّلها واستيعابها.

فالحقائق في كافّة الأديان واحدة، غير أنّ طرق التعرّف عليها متشعّبة، وكلّما تطوّرت العلوم والمعارف تعمّق هذا الفهم والإدراك بالنسبة للحقائق، ولذلك يمكن القول بأنّ محمّداً صلى الله عليه وآله قد سلك آخر مراحل التوحيد، وللأُمّة الإسلامية فقط وبفضل التطوّر العلمي الذي تشهده أن تبلغ ما تشاء من الدرجات، فقد فتح الإسلام الباب على مصراعيه أمام أتباعه، ولا يسعنا هُنا أن نخوض أكثر في هذا المجال.

وعلى كلّ حال تتفق كافّة الأديان في أُصولها العقائدية، وليس هناك من نسخ بهذا الخصوص.

والإمامة والزعامة جزء من أُصول الأديان، حتّى أنّنا قلنا بأنّ الأنبياء إنّما

---

(١) سورة البقرة: الآية ٩١.

(٢) سورة المائدة: الآية ٤٦.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٥٣.

يحرزون مقام الإمامة بعد اجتيازهم لعدد من الاختبارات والتمحيصات.

وعليه: فالشرائط التي ينبغي توفّرها في الإمام إن كانت معتبرة في زعامة بني إسرائيل فهي بطريق أولىٰ واجبة التطبيق في الإسلام.

بعبارة أُخرى: إذا كان طالوت ينبغي أن ينصّب من قِبل الله قائداً للجيش فقط، فإنّ أمير المؤمنين عليه السلام الحاكم المطلق لعالم الإسلام يجب أن ينصّب أيضاً من جانب الله ويقوم بوظيفة الإمامة، وإن كان شرط إمرة طالوت يتمثّل بالقدرة العلمية، والخبرة بفنون الحرب والقتال والكفاءة والجدارة، وحفظ استقلال بعض المناطق، فلابدّ أن تتوفّر قمّة هذه الشرائط في أمير المؤمنين علي عليه السلام، ولا يمكن القول بأنّ الإسلام لا يلتفت لهذه الأُمور بدون اقتضاء ولا شرط، وأنّ إمام المسلمين سواءً كان عالماً أم لم يكن، كفوءاً أم ليس بكفوء وما إلى ذلك ليست قضية مهمّة من وجهة نظر الإسلام الذي يمثّل آخر مراحل السير التكاملي للبشرية.

وعليه: فقد اتّضحت النقطة الأُولى من الإجابة علىٰ السؤال الأوّل، مع ذلك نواصل طرح النقطة الثانية ليتّضح الأمر أكثر.

النقطة الثانية:

يمكن تناول النقطة الثانية من زاويتين:

زاوية عمومية وتحقيقية بشأن قصص الأُمم المذكورة في القرآن الكريم، والهدف من هذا البحث هو التحقيق بشأن علّة سرد قصص الأُمم السالفة في القرآن الكريم، والوقوف علىٰ الهدف العقلائي والمراد الأساسي الذي أراده الكتاب السماوي من طرح هذه القصص.

والزاوية الثانية في دراسة القصّة التي نحن بصددها وقصة طالوت وبني

إسرائـــيل. وبـالطبع فـإنّ النـتائج التي تـوصّلنا إليهـا في الزوايـة الأُولىٰ تـعتبر مفيدة للحصول على النتائج من الزاوية الثانية، وكذلك في الإجابة عـلىٰ السـؤال الأوّل. أمّا إذا أردنا أن نخـوض بالتفصيل في العنوان الأوّل فإنّ ذلك سيبعدنا عن البحث الأصلي «شرائط الإمامة من وجهة نظر القرآن» ولذلك سنمرّ سريعاً علىٰ العنوان الأوّل.

العنوان الأوّل: قصص الأنبياء والأمم الماضية:

لقد وردت قصص الأنبياء كثيراً في القرآن الكريم، وقد تكرّر بعضها، ولكن أصل القصّة لم يتكرّر في الحقيقة، بل كان الاستنتاج متنوّع في نـقل الحـوادث في مختلف الموارد. ولابدّ من القول بأنّ تعليم الأُمّة الإسـلامية كـان مـن الأهـداف الأصيلة البارزة في التعرّض لتأريخ الماضين، تعليمهم السبل التي تؤدّي إلى السعادة والشقاء، وإلفات النظر إلى ردود الفعل التي أبدتها الأُمم السالفة إزاء دعوة الأنبياء والنتائج التي ترتبت على كلّ ردّ فعل، إلى جانب تنبيه الأُمّة الإسلامية إلى الأُصول الروحية وأُسـلوب تـفكير سـائر الأمـم، ولا سـيّما أهـل الكـتاب وأوضـاعهم الأخلاقية. فمثلاً تعرّضت عدّة آيات من سورة البقرة إلى أوضاع أهـل الكـتاب ولاسيّما اليهود، ليقف المسلمون على طبيعة أخلاقهم وأُسلوب تـفكيرهم ومـدىٰ العداء الذي يكنّونه للإسلام والقرآن، فلا يتّخذونهم أولياء ويظهرون لهم المـودّة أبداً، بل يكونوا على حذر من هذه الأُمّة العنيدة والخطرة.

وعلى هذا فإنّ هناك تعليمات تجاه نوع من الأُصول المسلّمة التي تأبى التبدّل والتغيّر، وإلّا لو كانت مرنة يمكن أن تعتريها حالة التغيير، لمـا كـانت مـن قـبيل الأُصول الكلّية التي ينبغي تعليمها الأُمّة الإسلامية؛ فـهناك حـقائق ذات دروس وعبر في هذه القصص التي من شأنها خلق الإنسان الفـاضل، فـمثلاً إذا واجـهتنا

بعض المباني المصيرية للإنسان في قصّة موسىٰ فإنّه لا يمكننا أن نقول بأنّها مختصّة ببني إسرائيل والأُمّة الإسلامية مستثناة من هذا الأمر، ولا يسعنا هنا إلّا أن نشير إلى بعض هذه المباني بصورة مختصرة ونترك الخوض في تفاصيلها إلى أهل التفسير.

١ ـ يزعم أحبار اليهود أنّ لهم الجنّة خالصة دون أن ينازعهم أحد فيها، وإن كان ولابدّ من عذاب النار فهي لن تطالهم سوىٰ أيّام معدودة ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾[1].

أمّا القرآن فقد ردّ بمنطق رصين على هذا الزعم ـ الذي كان يبديه المضلّون من أحبار اليهود بهدف التملّص من الإقرار بنبوّة محمّدﷺ والإسلام ـ فرفضه رفضاً قاطعاً وأثبت أنّهم من أصحاب النار والشقاء الخالد يوم القيامة، وقد أوجز دليله وبرهانه الرصين في هذه الآية من سورة البقرة: ﴿بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[2]. فهم يغرون الناس ويغلقون عليهم كلّ المنافذ ليفعلوا ما شاءوا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وبناءً على ما تقدّم فإنّ هؤلاء الناس سيملأون حياتهم بالأعمال الشائنة والأفعال التي تسوّد القلب وتنتهي بالإنسان إلى أدنى المراتب الحيوانية، فهل لمثل هؤلاء الأفراد أن يبلغوا بعد ذلك السموّ الإنساني؟ وهل لهم أن يتخلّصوا من طبائعهم العدوانية؟ وهل لمثل هؤلاء الأفراد من حظّ يجعلهم يعيشون الحياة الأُخروية الهانئة؟ أم أنّهم سيذوقون وبال أمرهم ليكبّوا على وجوههم في النار من جرّاء أعمالهم القبيحة، وهل لهم إلّا الخلود في النار؟ حقّاً لا يرى العقل والإنصاف لهؤلاء سوىٰ عذاب النار خالدين فيها وبئس المصير.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٨٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ٨١.

وبناءً على هذا البرهان والاستدلال الواضح فلا تزعموا أيّها اليهود ولاسيّما الأحبار بأنّ مأواكم الجنّة ولن تمسّكم النار إلّا أيّاماً معدودة، واعلموا أنّ سيرتكم ونهجكم سيجعلكم خالدين في النار، وهذا ما قدّمته أيديكم فلم يكن فعلكم سوى حرف الناس عن الصراط المُستقيم، وتحريف الآيات وإنكار الحقائق التي أوردتها التوراة، والمتاجرة بالدين من أجل ضمان منافعكم ومصالحكم، وتظنّون أنّكم إنّما تنفّرون الناس من محمّد ﷺ لتستمرّوا في رئاستكم وزعامتكم، ولم تفكّروا بعواقب أفعالكم حتّى رانت السيّئات وأحاطت بقلوبكم، فذوقوا النار التي أوقدتموها بأيديكم خالدين فيها وبئس المصير.

إثر تعرّض القرآن لأحبار اليهود، اندفع اليهود ليقيّموا أدلّتهم في عدم التسليم للقرآن، وأنّ الجنّة خالصة لهم من دون الناس، وأنّهم لن يردوا النار، فما الذي يدعوهم للانصياع لمحمد ﷺ، فجاءهم الردّ القرآني الحاسم في أنّ هذا الزعم باطل، وأنّكم تستحقون الخلود في النار.

أمّا أُسلوب الاستدلال الذي ساقه القرآن فقد كان: أنّ الإنسان إذا درج على ارتكاب السيّئات والمعاصي فإنّها تغمسه في هوىٰ نفسه، بحيث لا تدع له مجالاً للعودة والكفّ عن الذنوب، فتسيطر الظلمات علىٰ قلبه حتّى تغلق كافّة منافذ العلم والعقل فيغرق في مستنقع من البؤس والشقاء، هذا هو الاستدلال الذي أقامه القرآن ضدّ أحبار اليهود ليخلص بالتالي إلى أنّ مأواهم النار خالدين فيها.

وهنا نقول: هل أنّ هذا الأمر يقتصر علىٰ اليهود؟ أم أنّه مبدأ كلّي للبشرية جمعاء؟

لاشكّ أنّ هذا الإستدلال يعدّ مبدأً كلّياً ولاسيّما بالنسبة للأُمّة الإسلامية، فالمصير الذي لاقاه اليهود سيلقاه كلّ فرد مهما كان موقعه ودينه، إذا أوغل في الذنوب وقضى عمره في المعاصي والسيئات، ما لم يتب ويقلع عن تلك السيئات.

نعم، إنّ هذه المحاجّة القرآنية لأحبار اليهود إنّما تهدف إلى تنبيه المسلمين، بل كلّ إنسان، إلى أصل مسلَّم من الأُصول التي تأبىٰ التغيير، وتنبيه الأُمّة من أجل سلوك السبيل القويم للفوز بالآخرة والابتعاد عن سبل الهلكة.

وخلاصة هذا الأصل: أنّ الإنسان إذا اعتاد الذنوب ولم يلتفت إلى نفسه، وقضى عمره في الأفعال القبيحة، فلن يكون مصيره سوىٰ النار والخلود فيها.

٢ ـ كان اليهود يسعون لإثبات أصالة دينهم ونفي الشرعية عن دين النصارىٰ من خلال تشبّثها بإبراهيم عليه السلام، وهذا ما كانت تدّعيه النصارى أيضاً ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ...﴾[1]، فردّت عليهم الآية القرآنية من سورة آل عمران قائلة: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَيٰةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2]. وقد أشارت آية أُخرى صراحة إلى مفهوم هذه الآية فقالت ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلَا نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[3]. فما الذي يمكن استنباطه من هذه الآية؟

نفهم من هذه الآية أنّ اليهوديّة والنصرانيّة قد تجاوزت أهداف موسىٰ وعيسىٰ، فأتباع موسىٰ ليسوا بيهود، كما لا يمكن لأتباع عيسىٰ أن يكونوا نصارىٰ؛ لأنّ إبراهيم مسلم، لا يهودي ولا نصراني.

إذن، فاليهودية والنصرانية أسماء ابتدعها أهل الكتاب لأنفسهم، وهي تتنافى والتسليم لله وسلوك الصراط المستقيم، وما سبيل موسىٰ وعيسىٰ سوى الإخلاص والتسليم والعبودية لله، فقد قال عيسىٰ عليه السلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[4]. ولا نبالغ إذا قلنا بأنّ الآية تلمّح إلى شرك اليهود والنصارىٰ،

---

(١) سورة البقرة: الآية ١١٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٦٥.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٦٧.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٥١.

فقد صرّحت قائلة ﴿وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْـمُشْرِكِينَ﴾، ونترك الخوض في التفاصيل إلى موضع آخر.

النتيجة:

الآيتان المذكورتان تعرّضتا للمحاجّة بين أهل الكتاب: اليهود والنصارى، كما اشترك القرآن في هذه المحاجّة ليقول: لستم -اليهود والنصارىٰ- تابعين لإبراهيم، وليس لإبراهيم من ارتباط بكم، فطريق إبراهيم هو الصراط المُستقيم الذي يقود إلى الحقّ، وسبيل إبراهيم هو الإخلاص لله، وسبيل إبراهيم لا عوج فيه ولا انحراف، وأخيراً سبيل إبراهيم هو التسليم لله والعبودية له.

وعليه: فهاتان الآيتان اللتان تتحدّثان عن محاجّة أهل الكتاب وأوردهما القرآن، إنّما الغرض منهما هو الالتفات إلى أصل مسلَّم أيضاً من قبل المسلمين، بل من قِبل كلّ إنسان.

لاشكّ أنّ دعوة إبراهيم عليه السلام أصيلة، والإسلام إنّما واصل دعوته في عبودية الله. إذن محور النجاة والصراط القويم يتمثّل في سلوك النبيّ العظيم إبراهيم عليه السلام، والمسلمون ينبغي أن يلتفتوا إلى ما أورده القرآن بشأن إبراهيم، ويعلموا بأنّ المسلم هو إبراهيم عليه السلام، فإذا أراد أيّ فرد مسلم أن يكون خليل الرحمن يجب أن يسلم لله ولا يرى سواه، ولا يسلك سوىٰ صراطه، ويصرف نفسه عن الدنيا ولا يكترث لزبرجها وزخرفها وأطماعها.

كان هذان نموذجين من مئات النماذج التي ذكرها القرآن الكريم ضمن سرده لقصص الماضين علىٰ أنّهما من الحقائق المسلّمة التي لا تختصّ بجماعة معينة، بل هي أُصول ذات علاقة بمصير البشرية جمعاء، وذكرها في القرآن دليل على عدم اقتصارها على شخوص القصّة وأبطالها، بل من أجل لفت انتباه البشرية إليها،

وهي من قبيل المباني السامية التي تبلغ بالإنسان السموّ والكمال.

بعبارة أوضح: أنّ القرآن عبارة عن أُصول مسلَّمة، حيث أفرد هذا الكتاب السماوي قسماً منه لدراسة بعض الأُصول العلمية الواقعية التي ينبغي أن تبتني عليها الحياة الإنسانيّة العقلائية، غير أنّ هذه الأُصول قد وردت أحياناً ضمن سياق الآيات القرآنية بصورة مباشرة، وأحياناً أُخرى وردت ضمن سرد قصص الأُمم السالفة.

خلاصة الحديث:

كان السؤال الأوّل هو هل أنّ شرائط الزعامة في بني إسرائيل هي ذاتها في الإسلام، بحيث يجب أن نلتزم في الزعامة الإسلامية بكلّ شرط كان معتبراً في زعامة بني إسرائيل؟

وقد أجبنا علىٰ هذا السؤال ضمن ذكر نقطتين:

١ ـ أنّ أُصول الأديان واحدة من حيث جذورها العقائدية ولا يعتريها التغيير أبداً، وليس للنسخ من سبيل إليها، وبدوره أقرّها القرآن ولم يبطلها.

٢ ـ وردت أغلب الحقائق القرآنية مباشرة من خلال الآيات القرآنية التي تلفت نظر المسلمين إلى الاهتمام والالتزام بها، كما وردت بصورة غير مباشرة من خلال سرد قصص الأُمم الماضية.

نتيجة هاتين النقطتين:

تعدّ زعامة الأُمّة في كافّة الأديان من الوظائف التي نصّ عليها الحكيم العليم، وعليه: فهي من أُصول الأديان وشرائطها مؤثّرة في تحقيق وتثبيت أصل الإمامة، ومن هنا فإنّ الشروط المذكورة في زعامة بني إسرائيل معتبرة هي الأُخرىٰ في

الإسلام أيضاً، إضافة إلى أنّ هذه الشروط من الحقائق المسلّمة التي لن تفقد أصالتها قط طيلة التأريخ البشري، كما أنّها تأبىٰ الزوال ولا يعتريها التغيير والتبدّل.

ونخلص من هذا إلى أنّ الشروط التي تضمّنتها قصّة طالوت بشأن الإمامة والزعامة، يعتبرها القرآن من الصفات التي ينبغي أن يتّصف بها الزعيم، وبخلافه لا يعدّ زعيماً إسلامياً.

العنوان الثاني لقصة طالوت:

لقد سبقت قصة طالوت بآيتين، حيث إنّ مفاد الآيات الثلاث لفت انتباه المسلمين وحثّهم علىٰ القتال في سبيل الله والتعرّض للعناصر التي تجسد النصر والغلبة في هذا القتال، ولمّا كان البحث بالتفصيل لهذه الآيات الثلاث ينطوي علىٰ نوع من الإطالة والملل، فقد آلينا علىٰ أنفسنا التعرض بصورة مقتضية لما تضمّنته هذه الآيات من محاور رئيسيّة، ثمّ نعرج بعدها علىٰ ذكر الآيات.

فقد أكّدت هذه الآيات ثلاثة شروط أساسية تقود إلىٰ النصر في خوض غمار الجهاد:

الشرط الأوّل: هو الإذعان والإيمان بأنّ الموت والحياة بيد القدير سبحانه، فالموت يدركنا والله يقبض أرواحنا، سواء كنّا علىٰ الفراش أو في ساحات الوغىٰ إن كانت هنالك من مصلحة. وإذا شاء لنا البقاء فليس هنالك من موت، فقد تكون ساحة الحرب وادعة أمينة بينما يكون الفراش مميتاً؛ وبناءً علىٰ ما تقدّم فإنّ الفرار من الجهاد حرصاً علىٰ الحياة يعني إيكال الفرار إلىٰ أمر خارج عن الإرادة والاختيار، وعلىٰ هذا الضوء فإنّ المؤمن سوف لن يفر ألبتة من ميدان الحرب ويخوض القتال بعزم راسخ وإرادة فولاذية بعد التوكّل علىٰ الله والقتال في سبيله.

الشرط الثاني: أنّ الجهاد قائم على أساس الإنفاق وبذل الأموال والأنفس،

ولا تتيسّر مجابهة العدو دون توفير العـدة والاسـتعداد للـمنازلة، ويـتمثّل هـذا الاستعداد والتجهيز من خلال إعداد الجنود المضحّين والمسلّحين وتـفعيل هـذا الاستعداد حيال العدو.

الشرط الثالث: ويعدّ أساس الشروط، بل لا معنىٰ للـشرطين المـذكورين دونه، ويتمثّل بالقائد المقتدر والآمر الكفوء الذي يقود القتال بكلّ بسالة مستنداً إلىٰ العلم والبصيرة والمعرفة التامّة بأساليب القتال، بغية تحقيق النصر الخاطف علىٰ العدو بأقلّ التضحيات.

الآيات الثلاث:

أمّا الآيات الثلاث فقد وردت في سورة البقرة، وهي:ـ

١ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[1].

فالآية تضمّنت ثلاثة أُمور مهمّة، وهي:

الأوّل: إنّ الفرار خشية من الموت لا يمنع من حلول الأجل.

الثاني: إنّ الحياة والموت بيد الله لا بيد أيّ أحد سواه.

الثالث: إنّه لاينبغي أن يضعف الإنسان مخافة الموت؛ لأنّ الحياة والموت بيد الله، وليس للفكر من دور إزاء التقدير، وفضل الله وإحسانه هو الفاعل في حـياة الإنسان وموته، فان كان الموت إحساناً فلا مناص منه والعكس صحيح.

وعليه: ففي الآية الكريمة براعة استهلالية تهدف إلى إعداد المسلمين للجهاد والقتال في سبيل الله، ومن هنا أردفت هذه الآية بـقوله سـبحانه: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٤٤.

٢ـ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(١).

فالآية تتابع الحثّ علىٰ القتال «في سبيل الله» وقد تصدّرت بـ«مَن» الاستفهامية، وكأنّها تتحرّىٰ الرجل الذي ينهض بهذه المسؤوليّة الخطيرة ليمارسها بنجاح بعد أن يعدّ متطلّباتها. وعليه: فالآية ليست في مقام الحثّ على الإقراض فحسب، فهي تهدف أمراً آخر إلىٰ جانب ذلك، وهو أنّ المقرض هو الإنسان والمقترض هو الله سبحانه، وكأنّ الله مدّ يده إلىٰ الإنسان سائله شيئاً.

ومن هنا فالذي يخلص من ذكر هذا الأمر في آية القتال أنّ الغرض الأصلي من هذا القرض هو أنّ بذل المال والنفس ينشد تحقيق هدف التوحيد، ولذلك كان المقترض الله، لأنّ بذل المال والنفس كان في سبيل الله، ونتيجة ذلك كلمة التوحيد، فلو جعل الإنسان كلّ ما يملك وقفاً في سبيل الله فإنّ ثواب ذلك سيكون عوضاً مطلقاً لا متناهياً.

وبناءً علىٰ ماتقدّم فإنّ الآية الشريفة بسياق الطلب تمثّل أعظم حثّ لإثرة المال والنفس في سبيل الله، وهو الحثّ والترغيب الذي يغلق علىٰ الإنسان كافّة طرق التعذير من قبيل المرض والتمارض والخوف وما شابه ذلك.

والذي يؤيّد هذا الاستنباط بل دليله هو أنّ أغلب الآيات التي تحدّثت عن القرضة الحسنة في السور القرآنية كالمائدة والتغابن والحديد والمزمّل وغيرها من السور إنّما وردت كامتداد لآيات القتال في سبيل الله.

٣ـ آيات قصة طالوت التي شرعت بالآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾(٢) ومرّ علينا تفصيلها، ولاحظنا الشرائط التي تضمّنتها الآيات بشأن زعامة طالوت.

---

(١).(٢) سورة البقرة: الآيتان ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

هذه الآيات الثلاث وهدفها:

قلنا: إنّ هذه الآيات تلفت انتباه المسلمين للقتال «في سبيل الله»، وقلنا: إنّ هذه الآيات التي تختزن النصر في هذا القتال، وترشد المسلمين إلىٰ أنّ النصر يتقوّم بثلاثة عناصر:

١ـ ضرورة عدم خشية الموت ووجوب الإيمان بأنّ الحياة والموت بيد الله، وعليه: فينبغي القتال وعدم الخوف.

٢ـ يتطلّب القتال في سبيل الله إعداد القوىٰ والتجهّز والتعاون علىٰ مستوىٰ المال والنفس.

٣ـ أنّ الشرط الأساسي للنصر هو وجود القائد الكفوء، الذي يستطيع توظيف القوىٰ الإنسانية وتعبئتها علىٰ الوجه الحسن، وعليه: فقصّة طالوت تكشف النقاب للمسلمين عن حقيقة وواقع، وترىٰ ضرورة وجود القائد الجدير الذي يحقّق النصر للمسلمين، الأمر الذي أفادته قصة طالوت في إنشاد الإسلام لهذا الزعيم الرشيد، القادر، العالم والماهر ليستبسل المسلمين تحت رايته ويحقّقوا العزّة والافتخار، ولا تفيد الآية كون الزعيم الإسرائيلي لابدّ أن يكون زعيماً كفوءاً قط، بل رسمّت هذه القصة صورة هذا القائد الكفوء لتلفت نظر المسلمين إلىٰ الشرائط التي تكهّن بها القرآن في القيادة، ولا نرىٰ أنفسنا بعد هذا الإيضاح بحاجة للقول: إنّ الدين الإسلامي لاينسخ الأُصول المسلَّمة لسائر الأديان، وحيث لم يكن ناسخاً فإنّ شرائط القيادة والإمامة وإمرة الجيش في سائر الأديان قد روعيت في الإسلام.

وأمّا الإجابة علىٰ السؤال الثاني: أنّ إمرة الجيش سنخ من الشرائط...

فلابدّ أن نرىٰ هل المراد بالملك في الآية الشريفة إمارة الجيش فقط، أم أُريد بها معنىً أوسع ولابدّ من التعبير عنه بالزعيم؟ فسّرنا ذلك في المباحث السابقة

بأمير الجيش أحياناً والزعيم أحياناً أُخرىٰ ، وذلك أنّهم سألوا ملكاً ، وكان هدفهم في ذلك السؤال زعامة الجيش والقتال في سبيل الله ، ومن هنا عبّرنا أحياناً بأمير الجيش ، وبناءً علىٰ ما تقدّم فإنّ هذا الملك هو الزعيم .

ولذلك سوف لن يعود هنالك من مجال للسؤال في أنّ آمر الجيش طبق الموازين الطبيعية يجب أن يكون مقتدراً عالماً بفنون الحرب والقتال ، فهل هذه الشرائط معتبرة في الإمام؟ لأنّ الفرض كان يقوم علىٰ أساس أنّ الملك هو الزعيم والإمام ، فالآية الكريمة قد بيّنت شرط الزعامة والإمامة بصورة شاملة مطلقة وبمعنى أوسع من إمارة الجيش .

دليلنا:

دليلنا علىٰ أنّ المُراد بكلمة «الملك» ذلك المعنى الواسع ـ أي الإمام ـ هو اعتقاد الطبقة الاقطاعية من بني إسرائيل والنُبلاء ، بأنّهم أحقّ بالملك من غيرهم ، وذلك لأنّهم كانوا يرون أنّ الزعامة قضية وراثية ، ولا ينبغي أن ينهض طالوت بهذه الزعامة ؛ لأنّه ينتمي إلى طبقة فقيرة معدمة في المجتمع لم تكن ذات سابقة في الزعامة . ولذلك أوردنا برهانين أقامهما هؤلاء المعترضون علىٰ نبيّهم:

١ ـ الملك حقّ من حقوقنا ومنحصر في سلالتنا .

٢ ـ طالوت لا ينتمي إلىٰ طبقة ثرية ليصبح زعيماً .

القرآن بدوره فنّد هذه النظرية ليعلن أنّ الزعامة ليست قضية وراثية ولا ترتبط من قريب أو بعيد بالغنى والثراء ، بل هي منصب إلهي ، ينهض به من تتوفّر فيه شرائطه من قبيل القدرة والعلم والبسطة في الجسم والبصيرة بأوضاع المجتمع .

أضف إلىٰ ما تقدّم أنّ الإسلام لا يرىٰ الزعامة منصباً شكليّاً ، بل هو مقام رسمي مهمّ تكون بموجبه كافّة مقدّرات المسلمين بيد الزعيم ، أي لابدّ أن يكون

قائداً عالماً متفكّراً، محيطاً بالحلال والحرام وأحكـام القـرآن وتـعاليم الإسـلام، وسائقاً الأُمّة إلىٰ عبادة الله والتمسّك بكتابه وسنّة رسـوله، كـما يـنبغي أن يُـعالج مشاكل الأُمّة، وإذا اقتضت المصلحة أن يخوض الحرب، كـان هـو القـائد العـام للقوّات المسلحة، الذي يمارس حضوره الشخصي في جبهة القتال.

وخلاصة القول: إنّ الإمام في الوقت الذي يعتبر فيه الزعيم الديني والعـلمي للأُمّة، فهو قائد للبلاد وآمر للجيش في الحرب وقاضي في المحكمة.

والآية صريحة في أنّ الملك والزعيم قد يكون أمـراً للـجيش وقـائداً عـاماً للقوات المسلّحة أحياناً. وعليه: فليس هنالك ما يـدعو لطـرح السـؤال الثـاني لنجيب عليه.

ولنفترض أنّ الآية اقتصرت علىٰ شرائط آمر الجيش وكان هذا هو المراد من الملك، وقد ذكرنا بأنّ الموازين الطبيعية تقتضي أن يكون الآمر فرداً عالماً بـفنون الحرب والقتال ومؤهّلاً لقيادة الجيش وقوياً ومقتدراً، ومع ذلك فـينبغي لنـا أن نلتزم بهذه الشرائط بالنسبة للإمام أيضاً؛ لأنّنا قلنا سابقاً: إنّ ولاة الأمر هم أئمّـة لابدّ من اتّباعهم وطاعتهم في جميع الأُمور السياسية والاجتماعيّة والعسكرية.

وبعبارة أُخرى: فالأولىٰ أن نقول بأنّ الإمـام لابـدّ أن يشـتمل عـلىٰ هـذه الشرائط؛ لأنّه لا يمكن أن يكون مطاعاً مطلقاً، وليست فيه مثل هذه الشرائط، بينما إذا اشترك في القتال كان هو القائد العام للقوّات، وعـلى الأُمـراء اتّـباعه وطـاعة أوامره.

أمير المؤمنين عليه السلام وآيات قصّة طالوت:

ما أوردناه سابقاً تفصيلاً لما قاله أمير المؤمنين علي عليه السلام في رواية نقلها صاحب تفسير نور الثقلين عن كتاب «الاحتجاج» للطبرسي. فقد قال عليه السلام: «اسمعوا ما أتلو

عليكم من كتاب الله المُنزل علىٰ نبيّه المرسل لتتّعظوا؛ فإنّه والله أبلغ عظة لكم، فانتفعوا بمواعظ الله وازدجروا عن معاصي الله، فقد وعظكم بغيركم، فقال لنبيّه ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِى إِسْرَائِيلَ...﴾، أيّها الناس إنّ لكم في هذه الآيات عبرة؛ لتعلموا أنّ الله جعل الخلافة والإمرة من بعد الأنبياء في أعقابهم، وأنّه فضّل طالوت وقدّمه على الجماعة باصطفائه إيّاه وزيادة بسطة في العلم والجسم، فهل تجدون الله اصطفى بني أُميّة علىٰ بني هاشم. وزاد معاوية عليّ بسطة في العلم والجسم»[1].

لقد وردت الآية بشأن قوم من بعد موسىٰ عليه السلام قالوا لرسولهم: ابعث لنا ملكاً نُقاتل في سبيل الله، فأجابهم نبيّهم: هل عسيتم إن كُتب عليكم القتال ألّا تُقاتلوا؟ فقالوا بصوت واحد: وما لنا ألّا نُقاتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا! ولكن ما إن كُتب عليهم القتال حتّى تراجعت هذه الجماعة التي أعربت عن استعدادها للقتال، ولم تصمد منهم إلّا فئة قليلة ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[2].

أمّا ما نخلص إليه من قول أمير المؤمنين عليه السلام هو أنّ الخلافة وإدارة شؤون البلاد قد جعلها الله في الأنبياء ومن بعدهم في أعقابهم من الخلفاء الذين يمثّلون الامتداد الطبيعي لخطّ الرسالة، وأنّ قصّة طالوت عبرة للأُمّة الإسلاميّة في معرفة الإمام، وأنّها قد وضّحت وظيفة المسلمين تجاه الإمام، وأنّ الله قد اختار طالوت من بين القوم لعبوديته الخالصة وحيازته لشرائط الإمامة. وأنّها قد أماطت اللثام عن كيفية النهوض بالإمامة وزعامة الأُمّة، وأنّ بني هاشم أولىٰ بهذه الزعامة من بني أُميّة، وأن ليس هناك من بني هاشم من هو أجدر بالإمامة من علي عليه السلام، وليس

---

(١) تفسير نور الثقلين: ٢٤٤ ح ٩٧٠ عن الاحتجاج ١: ٤٠٧ـ٤٠٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٤٦.

لمعاوية الذي يفتقر لشرائط الإمامة أن ينهض بهذه المسؤولية، وأخيراً نفهم من قول عليعليه السلام أنّ قضية طالوت ليست قصّة روائية، بل هي حادثة تهدف إلىٰ تعريف المسلمين بشرائط الإمامة، وأنّ قصة طالوت موعظة للمسلمين في أنّ الإمام هو الفرد الصالح، الكفوء، العليم، القدير الذي لا يُضاهيه أحد في هذه الصفات، كما أنّ القرآن لا يرىٰ من جدير بإمامة المسلمين سوىٰ عليعليه السلام وأولاده؛ لأنّهم يمثّلون مصداقها التام، وقد جمعت فيهم شرائط ومقوّمات الإمامة.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْـطَفَى آدَمَ وَنُـوحاً وَآلَ إِبْـرَاهِـيمَ وَآلَ عِـمْرَانَ عَـلَى الْعَالَمِينَ* ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة آل عمران، الآيتان ٣٣ ـ ٣٤)

عود إلى شرائط الإمامة المستفادة من القرآن

آية الاصطفاء

نتابع دراسة الآيات القرآنية في إطار التعرّف على شرائط الإمامة:

فقد ورد في سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ* ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

يقوم الاستدلال بهاتين الآيتين علىٰ أُمور هي:

الأمر الأوّل :

لقد استعملت كلمة «الاصطفاء» علىٰ أربعة أنحاء، حيث يختلف معناها في كلّ قسم من هذه الأقسام، فأحياناً تستعمل دون حرف، وأُخرى مع «من، على واللام» والاصطفاء كما ذكرنا سابقاً علىٰ وزن الافتعال، وأصلها من «صفو» بمعنى الخالص، فالاصطفاء هو الانتخاب والاختيار الخالص.

فإن استعملت بدون حرف كان معناها الخالص، وهكذا وردت في سورة

آل‌عمران: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ﴾[١] والدليل هو وحدة السياق في الآية الشريفة، وإذا جاء معها الحرف «من» فهي تعني الانتخاب من بين جماعة، وهذا ما نلمسه في سورة فاطر: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[٢]. أمّا إذا استعملت مع «على» فإنّها تفيد ترجيح المنتخب. فهي وإن اشتركت مع المعنى المُراد في القسم الثاني؛ أي الانتخاب الخالص، إلّا أنّها تفرق عنه بأنّها تتضمن ترجيح المنتخب، وهذا ما ورد في قصّة طالوت التي أشرنا إليها آنفاً ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾[٣]. ولذلك وردت استفهامية في سورة الصافّات ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾[٤] أي ليس هنالك من ترجيح وانتخاب في هذا الأمر.

رفع إشكال:

لقد تضمّن معنى «الاصطفاء» رفع إشكال من شأنه تشويش أذهان العوامّ، فقد صرّح القرآن بشأن مريم قائلاً: ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾[٥]. يعتقد البعض أنّ مريم مصطفاة على كافّة نساء العالم، والحال أنّ الآية لا تفيد أيّ اصطفاء بالنسبة لعامّة نساء العالم ولا امتياز عليهنّ «أنت مصطفاة وممتازة من بين نساء العالم». فهي ليست منتخبة علىٰ جميع النساء وليس لها من امتياز علىٰ الجميع، بل هي مصطفاة من بين نخبة النساء، ونعلم أنّ مريم من المصاديق العُليا للنساء الجليلات: مريم عابدة ومطهّرة، وهذا لا يتنافىٰ ووجود سائر النساء الجليلات الأُخريات في هذا الجنس البشري، والكلام يختصّ بكونها

(١) سورة آل عمران: الآية ٤٢.

(٢) سورة فاطر: الآية ٣٢.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٤٧.

(٤) سورة الصافّات: الآية ١٥٣.

(٥) سورة آل عمران: الآية ٤٢.

منتخبة، ولاسيّما أنّ هذا الانتخاب والترجيح يتعلّق بأمر غير طبيعي، وهو الحمل دون وجود الزوج، فقد خلق الله مريم على درجة من الطهر والعفاف بحيث إنّ الأذهان لا تتصوّر أيّ طعن في طهرها وعفافها من جرّاء هذا النوع من الحمل، وهناك رواية تؤيّد ما ذهبنا إليه[١].

الأمر الثاني: هل أنّ اصطفاء آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران علىٰ العالمين إلىٰ الأبد على ضوء الآية ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾؟

الجواب:

ذكرنا سابقاً أنّ كلمة «الاصطفاء» إذا استعملت مع حرف الجرّ «على» أفادت معنى الترجيح في انتخاب فرد أو أكثر علىٰ الآخرين، فمعنى الآية أنّ الله انتخب آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران ـ الذين يمثّلون الصفوة ـ من بين سائر أفراد العالم.

إذن، فالانتخاب من بين العالمين، وأنّ المنتخبين من أصفياء العالم، لا أنّ الانتخاب علىٰ جميع العالم وأنّ للمنتخبين امتياز على العالم، والله أعلم.

ويؤيّد ذلك المعنىٰ الآيات من سورة الأنعام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلّاً هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ* وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلّاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٢].

---

(١) راجع مجمع البيان ٢: ٢٨٩ ذيل الآية الشريفة «وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ».

(٢) سورة الأنعام الآيات ٨٤ـ٨٦.

ونعلم أنّ هؤلاء الأنبياء ليسوا مصطفين علىٰ العالم، وقد انتخبوا بالتفضيل الإلهي من بين العموم، ومن أراد المزيد فليراجع تفسير أحد الكاتِبَيْن[1].

جواب آخر:

قد يُقال بأنّ آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران قد اصطفوا على العالمين، إلّا أنّ هذا لا يعني أنّ نوحاً مثلاً قد اصطُفِي علىٰ جميع العالمين. نعم، آدم ونوح و... مصطفون علىٰ العالمين بمعنى عدم خروج آل الرسالة المصطفين من هؤلاء.

المصطفى الأوّل هو آدم عليه السلام الذي اصطفاه الله على عالمه آنذاك، ثمّ نوح وهكذا آل إبراهيم وآل عمران، حيث إنّ كلّ واحد في هذه الآل مصطفى علىٰ عالم زمانه. و محمّد صلى الله عليه وآله النبي العربي وهو من آل إبراهيم مصطفى منذ زمان بعثته المُباركة حتّى الأبد.

وبعبارة أوضح: فإنّ المصطَفين علىٰ عالم البشرية منذ بدء الخليقة يبتدئون بآدم عليه السلام ويختتمون بآل إبراهيم عليه السلام بحيث إنّ كلّ واحد منهم مصطفى الله علىٰ أهل زمانه، حتّى ظهور النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الذي يُعتبر مصطفى من قبل الله منذ انطلاقة البعثة إلىٰ الأبد ما دام عالم البشرية قائماً، فليس هنالك من نبوّة لكافّة العالمين وفي كافّة أدوار التأريخ من غير هؤلاء وإن اختصّ كلّ واحد منهم بزمانه، أمّا من حيث المجموع فهم المصطَفون علىٰ العالمين علىٰ مدى التأريخ، والله اعلم.

أمّا مريم فهي تشتمل علىٰ مزية تميّزها علىٰ سائر النساء، وهي مزية الحمل من دون الزوج، وهو الحمل الذي لا ينطوي على أيّ مساس بعفّة مريم وطهرها.

الأمر الثالث: من هم آل إبراهيم وآل عمران؟

جاء في المنجد: «أنّ آل الرجل أهله، ولا يستعمل إلّا في ما فيه شرف»[2] لا

---

(١) تفسير كلام الحقّ للشيخ شهاب الدين الإشراقي.

(٢) المنجد في اللغة: ٢١، مادّة «آل».

كلّ أهل وأينما كانت كلمة «أهل» لتقيّد صفة المضاف إلىٰ المضاف إليه، فيُقال مثلاً: «أهل العلم» أي الأفراد الذين يتّصفون بصفة العلم، وأهل قم، وحيث إنّ الآل هي صفوة الأهل فإنّ آل إبراهيم تعني الخواصّ والصفوة من أهل إبراهيم عليه السلام.

لإبراهيم عليه السلام ولدان هما إسماعيل وإسحاق، والمُراد بآل إبراهيم خلفه وولده المصطَفون من قِبل الله، فهل هم الأنبياء والمصطَفون من ذريّة إسماعيل والأنبياء من ذريّة إسحاق أيضاً؟

ولعمران ولدان هما عمران والد موسىٰ عليه السلام وعمران والد مريم عليها السلام، وربّما كان المُراد بعمران التي أضيفت إلىٰ الآل في الآية الكريمة والد مريم، فآل عمران في هذه الحالة هم المصطفون من هذه الطائفة، ويؤيّد ذلك الآيات اللاحقة من هذه السورة المُباركة التي ذكرت مريم مشيرة إلىٰ أصالتها. كما يمكن أن تكون آل عمران شاملة للطائفتين؛ لأنّ كلمة عمران رغم أنّها إسم علم لكنّها تنطبق علىٰ مسمّيين أيضاً، إلّا أنّ هذا الاحتمال ليس معتبراً علميّاً.

مَنْ هُم آل إبراهيم؟

آل عمران كلّ واحد من الطائفتين أو الطائفة الخاصّة من والد مريم، أمّا آل إبراهيم فتقتصر علىٰ ذريّة إسماعيل، لأنّ العطف دليل علىٰ المغايرة، ويؤيّد كون آل إبراهيم هم ذريّة إسماعيل قوله عزّوجل في الآية ٥٨ من سورة مريم: ﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ﴾ فقد فصّل ذريّة إبراهيم عن ذريّة إسرائيل، في حين أنّ إسرائيل هو يعقوب وهو من أولاد إسحاق بن إبراهيم.

ومن هنا يعلم بأنّ القرآن لم يرد بذرّية إبراهيم سوىٰ أولاد إسماعيل، والدليل الأوضح علىٰ ذلك ما نحن بصدده من الآية ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾ لأنّ الذريّة

وردت بدل من آل إبراهيم وآل عمران، أي أنّ آل إبراهيم وآل عمران ذرّية واحدة؛ لأنّ والد الآلين هو إبراهيم. أمّا ﴿بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ فمعناه انفصال وتفرّع البعض من ذريّة والبعض الآخر من ذريّة أُخرىٰ.

وبعبارة أيسر: أنّ معنى العبارة رغم أنّ آل إبراهيم وآل عمران ذرّية واحدة، غير أنّ آل عمران من ولد وآل إبراهيم من ولد آخر، وعليه فآل عمران من يعقوب بن إسحاق وهو إسرائيل، وآل إبراهيم من إسماعيل بن إبراهيم.

هدف سامٍ:

لِمَ عبّر القرآن الكريم عن ذريّة إسماعيل بآل إبراهيم، وعن أولاد إسحاق بآل‌عمران؟

لعلّ المغزىٰ في هذا التعبير رغم أنّ الاثنين هما آل إبراهيم، هو هدف سامٍ وبقصد إفادة مطلب أساسي. فآل إسحاق قد انقطعوا عن مقام النبوّة السامي وسيحلّ اليوم الذي يزول فيه دين إسحاق، وبالتالي فإنّ الدين الإسلامي العالمي سيستوعب جميع القوانين السماوية.

إذن، فالذرّية الحقيقية لإبراهيم الحافظة لهدفه السامي القائم علىٰ أساس التوحيد والتسليم لله إنّما تنحصر في ولد إسماعيل، وبالنهاية فإنّ النبي العربي محمّداً ﷺ هو الحافظ لدعوة إبراهيم عليه السلام، وقد لفت القرآن الأنظار لهذه الحقيقة، حيث قال: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

وبناءً على هذا يمكن القول بأنّ آل إبراهيم منحصرون في الصفوة من ولد إسماعيل، إضافة إلىٰ أنّ أتباع سائر الأديان كالنصرانية واليهودية قد أحدثوا من

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٨.

الخرافات والخزعبلات والتحريفات في الدين الأصيل لموسىٰ وعيسىٰ، بحيث زالت معالم الدين بالمرّة ولم يبق منه سوىٰ الأوهام والخرافات، وذهبت الجهود المضنية لإبراهيم عليه السلام والتوحيد الخالص لله أدراج الرياح.

ولذلك فصل الحقّ سبحانه عنواني النصرانية واليهودية عن أتباع عيسىٰ وموسىٰ عليهما السلام، وسلخ إبراهيم عليه السلام عنهما، فقال عزّوجل: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلَا نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1]. ونوكل الخوض في التفاصيل إلى محلّ آخر.

الأمر الرابع: الأمر المهمّ الذي يمثّل الهدف الأساسي في الآية هو كيفيّة تعبير القرآن الكريم، فقد نسب الاصطفاء لشخصين وطائفتين ﴿إِنَّ اللَّـهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾. فقد ذكر الله إسم هؤلاء المنتخبين من بين عباده، فالفرد المخلص الأوّل هو آدم، والفرد المخلص الثاني هو نوح، والطائفة الخالصة الأُولىٰ هي آل إبراهيم، والثانية آل عمران.

فنرىٰ إسم نوح قد ذكر بعد آدم رغم قدوم عدّة أنبياء، كما اقتصر الحديث علىٰ آل عمران من بين آل إسحاق، فآدم أوّل أنبياء الله، وقد ركّز القرآن عليه حتّى أسهب في الحديث عنه في سورة البقرة، كما أنّ لنوح عدّة مزايا، ربّما منها كونه يمثّل آدم الثاني بالنسبة للبشرية إثر انقراض البشرية في زمانه وتجديد الحياة ثانية.

أمّا السؤال المهمّ هنا هو لِمَ هذا الاهتمام بآل عمران؟ ولعلّ سبب ذلك يعود إلى ظهور أنبياء عظام في هذه الآل، بحيث ما زال أغلب الناس ينسب نفسه إليهم، فمنهم موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام، وقد راعى القرآن جانب الاختصار في تعبيره بآل عمران عن نبوّات ولد إسحاق، الأمر الذي يطول شرحه.

والسؤال الأهمّ: ما السبب في التعبير بآل إبراهيم؟

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٧.

وكأنّ التعبير بآل إبراهيم الذي يسلّط الضوء علىٰ نبوّة إبراهيم ـ وبالالتفات لما ذكرنا من أنّ آل إبراهيم مختصّة بذريّة إسماعيل ـ يشير إلىٰ زعماء الإسلام وعلىٰ رأسهم زعامة محمّد المصطفى ﷺ وخلفه الأئمّة الأطهار ﷺ، فهم من آل إبراهيم، وأنّهم حقّاً جديرون بهذا الانتساب، أي الانتساب بصفتهم آل إبراهيم إلى هذه الطائفة من زعماء الدين للعالم.

وبناءً على ما تقدّم فإنّ القرآن قد طرح أساس الزعامة العالمية للبشرية منذ بدء الخليقة علىٰ الأرض حتّى انتهائها، فقد تزعّم آدم ﷺ العالم في بدايته، ثمّ تجدّد هذا الأساس من قبل نوح بعد انقراض البشرية في الطوفان، كما أنّ الزعماء الأصليين لعالم الأمس واليوم والغد هم آل عمران وآل إبراهيم. وأنّ زعيم طائفة آل إبراهيم في العالم منذ ألف وثلاثمائة وبضع سنوات قبل إلىٰ القيامة هو محمّد ﷺ ومن بعده زعماء الإسلام من آل محمّد وآل إبراهيم؛ وذلك لأنّه كما ذكرنا سابقاً أنّ آل إبراهيم الذين ينتمون إلىٰ ذريّة إسماعيل، وآل محمّد الذين ينتمون إلى آل إبراهيم ليسوا إلّا الصفوة من بني هاشم.

هدف الآية:

تهدف هذه الآية إلى تثبيت أصالة الإسلام وأئمّة المسلمين، فقد أوضح القرآن بإعجازه في آية قصيرة زعامة العالم منذ نشوء الخليقة إلىٰ القيامة. فكما انتخب الله آدم ونوحاً، فإنّه انتخب واصطفى آل عمران وآل إبراهيم، وقد جمع الزعامة العالمية في ذانك النبيّين العظيمين وهاتين الطائفتين.

وعليه: فإنّ عالم المسيحية واليهودية وإن نظر إلى آدم ونوح وآل عمران علىٰ أنّهم مصطَفون من قبل الله، لابدّ أن ينظر أيضاً إلى أنّ آل إبراهيم وأئمّة الإسلام ـ الذين ينسبون إلىٰ محمّد ـ علىٰ رأس هذه السلسلة من الزعماء، ومع هذا

الفارق وهو أ نّ إبراهيم يمثّل منشأ التوحيد الخالص، وأنّ استمرار هذا الهدف السامي سينتهي إلىٰ ولد إسماعيل.

وبناءً علىٰ هذا فإنّ ذريّة إسماعيل هي الحافظة لمركز التوحيد الذي بناه إبراهيم وإسماعيل، وأنّ صفوة هذه الذريّة هم محمّد وآل محمّد.

نتيجة هذه الأبحاث:

كنّا نروم من هذه الأبحاث الدلالة التامّة للآية علىٰ الزعامة المطلقة لأئمة بني‌هاشم، فالآية تدلّ علىٰ أنّ الأئمّة الأطهار عليهم‌السلام هم الزعماء بلا منازع، كما دلّت ضمنياً على أنّ زعماء الإسلام وأئمّة الهدىٰ مصطَفون من قِبل الله، وأنّ البشرية تحتاج إلى أولياء الله من زعماء آل إبراهيم والأئمّة الأطهار في عرض النبوّة وكونهم يمثّلون الإمتداد الحقيقي لهذه النبوّات.

وفي الآية دلالة ضمنية في أنّ هؤلاء الأئمّة إنّما يواصلون تحقيق هدف إبراهيم في إشاعة التوحيد والعبودية الخالصة لله، وأنّهم صفوة مصطفاة علىٰ غرار مصطفي الوحي من الأنبياء، وأنّ الله قد رجّحهم على ما سواهم؛ لاشتمالهم علىٰ الكمالات التي تميّزهم عن غيرهم.

إذن، فهؤلاء ممّن جمعت فيهم شرائط الإمامة من قبيل الطهارة والبصيرة بالأوضاع الاجتماعيّة والعلم بأسرار القرآن والوحي وخفايا عالم الخليقة، وبُعدهم عن الظلم والشرك والخرافات والجهل، بل هم علىٰ درجة من الاقتدار والعلم والإحاطة بعالم الآخرة، بحيث اتّصفوا بجدارتهم وصلاحيتهم لزعامة وحفظ دعوة إبراهيم، وبالتالي فقد جمعوا ما يؤهّلهم لاصطفائهم من قِبل الله علىٰ الناس، فقد كانوا الصفوة الطاهرة التي اصطفاها الله لزعامة الأُمّة.

الحسين عليه السلام والآية الكريمة:

لقد تلا الإمام الحسين عليه السلام هذه الآية المباركة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً...﴾(١) لمّا برز ولده علي الأكبر للقتال. لقد سمعنا مقالة الإمام أو قرأناها في المقاتل(٢)، إلّا أنّنا لم نلتفت لسبب استشهاد الإمام عليه السلام بها، فقد طرح الإمام حقّانيته في زعامة الأُمّة والهدف من نهضته تجاه حكومة وزعامة يزيد الفاجر، ليعلم الناس بأنّ حركة الإمام ودعوته في إمامة المسلمين إنّما تستند لمنطق القرآن الكريم. وليدرك العرب بأنّ القرآن الكريم هو الذي صرّح ونصّ علىٰ زعامته، فإذا تعرّض إلىٰ ما تعرّض له من جور يزيد وظلمه فليس له من ذنب سوىٰ ذلك! وليعلم سلطة اليزيدية الحاكمة وجلاوزتها بأنّ الحقّ مع الإمام، وأنّ الفرد المصطفى من آل إبراهيم لزعامة الأُمّة هو الإمام المظلوم سيّد الشهداء عليه السلام، وليعلم الباحثون والمحقّقون الضالعون في القرآن الكريم أنّ إمامة المسلمين إنّما تعيّن من قِبل الله لا الشورىٰ والانتخابات. وليعلم العالم بأنّ الحسين عليه السلام صفوة المخلصين لله الحائز علىٰ شرائط إمامة المسلمين والجدير بهذا المنصب. هذه هي الحقائق التي رام الإمام إيصالها إلى الآخرين بتلاوته للآية الشريفة.

الآية المُباركة وأحاديث الإمامية:

لقد جمع الفيض الكاشاني ـ العالم والمحقق الجليل ـ عدّة روايات مُعتبرة وأطلق عليها إسم «نوادر الأخبار في ما يتعلّق بأُصول الدين». ومن بينها رواية مفصّلة هي عبارة عن حديث دار بين ابن عباس وأمير المؤمنين عليه السلام بشأن وصيّة النبي صلى الله عليه وآله بعلي عليه السلام، جاء فيها: إنّ علياً عليه السلام قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله: «ثمّ أنت يا عليّ من أئمّة

(١) سورة آل عمران: الآية ٣٣.

(٢) لواعج الأشجان، للعلامة العاملي ص ١٣٦.

الهدىٰ، وأولادك منك، فأنتم قادة الهدىٰ والتقىٰ، والشجرة التي أنا أصلها وأنتم فرعها، فمن تمسّك بها فقد نجا، ومن تخلّف عنها فقد هلك وهوىٰ، وأنتم الذين أوجب الله ـ تعالى ـ مودّتكم وولايتكم، والذين ذكرهم الله في كتابه ووصفهم لعباده، فقال عزّوجلّ من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً...﴾ فأنتم صفوة الله من آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران، وأنتم الأسرة من إسماعيل والعترة الهادية من محمّد صلى الله عليه وآله»(١).

فالحديث الشريف أشار استناداً إلىٰ الآية الشريفة إلىٰ عدّة أُمور، منها: أنّ عليّاً عليه السلام وولده هم أئمّة الدين وزعماء الأُمّة وكهف الورىٰ، وهم الفروع لشجرة الإسلام المُباركة، وأنّ الله هو الذي حباهم بهذه المقامات من بين آل إبراهيم، وقد استدلّ النبي صلى الله عليه وآله لاثبات هذه المقامات بالآية الشريفة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى ....﴾.

وبناءً علىٰ ما تقدّم فإنّ آل إبراهيم لا يقتصرون علىٰ محمّد صلى الله عليه وآله وولد إبراهيم، بل الأئمّة الأطهار عليهم السلام هم آل إبراهيم، وأنّ آل إبراهيم المصطَفون إنّما ينتهون إلىٰ هذه السلسلة الجليلة والعترة الهادية.

فقد استدلّ النبي صلى الله عليه وآله بهذه الآية وقال: أنتم صفوة الله من آدم ونوح وآل إبراهيم. فعليّ وأولاده صفوة الله، ولمّا كانوا كذلك فهم أهل الإمامة والزعامة المتوفّرة فيهم شرائطها.

ونفهم من ذلك أنّهم مبرّأون من كلّ عيب ونقص وجهل، بل ليس في هذه الشجرة إلّا الإخلاص والاصطفاء الإلهي، وهنا لابدّ من القول بأنّ آل محمّد صلى الله عليه وآله يمثّلون قمّة السموّ والكمال والرفعة العلمية والتقوىٰ والورع والطهارة وكافّة الفضائل الإنسانية، من قبيل الشجاعة والإقدام والعلم والزهد والكرم وسائر الصفات؛ لأنّهم صفوة الله.

---

(١) تأويل الآيات الظاهرة ١: ١٠٦ ح ١٣، نوادر الأخبار: ١٢٦.

خلاصة الآيات والروايات :

لقد تعرّضت هاتان الآيتان ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى... ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ...﴾ إلىٰ تأريخ الإنسان منذ ظهوره حتّى انقراضه، كما خاضتا بصورة مقتضبة في زعامة البشرية وأبطالها من الصفوة الذين حازوا شرائطها حتّى تزعّم كلّ واحد منهم عالمه المعاصر، حيث ابتدأت هذه الزعامة بآدم عليه السلام واختتمت بآل إبراهيم عليه السلام.

وقد كانت خلاصة آل إبراهيم قد تمثّلت بالإمامة الإسلامية التأريخية لرسول الله صلى الله عليه وآله الذي اُختتمت به النبوّة، وقد كان الهدف الأصيل لإبراهيم عليه السلام واستمرار دعوته قد تمثّل بظهور الصفوة من آل محمّد صلى الله عليه وآله، حيث لم تختتم الزعامة بالنبي صلى الله عليه وآله من آل إبراهيم، بل استمرّت في عقبة من بعده من أهل بيت النبوّة الذين عيّنوا من قِبل الله لمواصلة خطّ النبي صلى الله عليه وآله، ولم يكن هؤلاء سوىٰ الأئمّة الهداة عليهم السلام، ولا يمثّل هذا الكلام استظهاراً للآيتين الكريمتين، بل هذا ما عهده الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام، إذ قال له: أنتم صفوة الله من آدم ونوح وآل إبراهيم... الذين خصّكم الله بالآية ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى...﴾.

وعليه فزعماء المسلمين بعد النبي صلى الله عليه وآله هم الأئمّة الأطهار عليهم السلام، وحيث كانوا الصفوة المختارة علىٰ مدىٰ التأريخ، كان لابدّ من القول أنّهم مطهّرون مبرّأون من كلّ عيب ودنس، وهم في مستوى الأنبياء في الإخلاص والإحاطة بالغيب، بل لمّا كانوا استمراراً لهدف إبراهيم وزعماء الأُمّة إلىٰ الأبد. ينبغي الإذعان بأنّهم الأعلم والأقدر من سائر الزعامات علىٰ مرّ العصور، وهم الجديرون بتطبيق المبادئ الحقّة لرسالة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

وعلىٰ ضوء ما تقدّم فقد اتّضحت شرائط الإمامة وصفاتها العالية، وأنّ الأئمّة عليهم السلام هم خُلّص عباد الله العالمون بأسرار الدنيا والآخرة، البعيدون عن كلّ عيب ونقص، والمتّصفون بالزهد والورع والتقوىٰ والعلم والشجاعة والسماحة،

فهم الصفوة المختارة من آل إبراهيم، إبراهيم رائد التوحيد والعبودية المحضة لله، بل هم صفوة الله إلىٰ الأبد وحملة علمه الذي لا يعرف الانقطاع.

ملاحظة:

الأُسلوب الذي درجنا عليه في الكتاب يتمثّل بالدراسة والتحقيق في القرآن الكريم من أجل إثبات أصالة الإمامة وشرائطها، فالنهج هو التعمّق في الآية من أجل التعرّف علىٰ هذه الأُمور، الأمر الذي يجعل الكلام يطول أحياناً شئنا أم أبينا، وقد تجنبنا التعرّض لسائر الآيات التي أوردها علماء الإسلام في مصنّفاتهم بشأن الإمامة خشية التطويل والملل، وإلّا فهناك عدّة شواهد معتبرة بشأن الإمامة وشرائطها في القرآن، ولعلّ من المفيد التعرّض إليها، غير أنّ طريقتنا في البحث تركّزت علىٰ لفت انتباه العلماء إلىٰ المضامين القرآنية.

وهناك ملاحظة أُخرى يجدر الالتفات إليها، وهي أنّنا قد طرحنا سابقاً سؤالاً في أنّ قيود الإمامة هل هي قيود مفروضة تنسجم والفطرة السليمة في الإقرار بها أم لا؟

وقد اتّضحت الإجابة خلال الأبحاث، حيث كان البحث يختصّ بشرائط الإمامة من وجهة نظر القرآن، وهي الشرائط التي تستسيغها الفطرة السليمة والعقل السليم، بل أنّ العالم ليتعطّش إلىٰ زعامة مثل هؤلاء الأئمّة، ولذلك لا نرىٰ حاجة لبحث هذا الأمر بصورة مستقلّة.

وأمّا دراسة عدد الشرائط فلا نرىٰ له من ضرورة، ويبدو أنّ ما أشار إليه القرآن كافٍ بهذا الشأن، ولذلك لم نتطرّق إلىٰ هذه الشرائط بصورة مستقلّة، وهل أنّ القرآن صدّق أو لم يصدّق ما أورده علماء الكلام بهذا الخصوص. ونتناول الآن بالبحث في علم الإمام.

علم الإمام عليه السلام

الزعامة في الإسلام:

اتّضح ممّا مرّ سابقاً أنّ الزعامة في الإسلام ليست وليدة الاستفتاء والصراعات السياسية والقفز على المواقع من أجل السيطرة على مقدّرات المسلمين، بل أنّ الرئاسة الإسلامية منصب إلهي قد فوّضه الله سبحانه في إطار النظام الإسلامي المتكامل إلى الأئمّة الأطهار عليهم السلام بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وأنّ اشتمالهم على الشرائط جعلت الله يفيض عليهم هذا المقام العظيم الذي لا يسع الآخرين النهوض به.

كما أشرنا إلى طائفة من شرائط الإمامة، أمّا البحث المهمّ الذي يشغل الأذهان ويحظى باهتمام الجميع فيكمن في علم الإمام والزعيم الإسلامي، الذي سنسلّط الضوء عليه في هذا البحث، وهنا تواجهنا بعض الأسئلة بهذا الشأن، منها:

١ ـ هل الإمام عالم بالغيب، أم أنّ هذا العلم مختصّ بالذات الإلهية المقدّسة؟ وإن كان عالماً بالغيب، فما كيفية هذا العلم، وهل يتوصّل إلى هذا العلم بمجرّد بلوغه مقام الإمامة بحيث يدرك الغيب والخفاء، أم أنّه يعتمد بعض الوسائط لبلوغ مثل هذا العلم؟

وبعبارة أُخرىٰ: فهل مجرّد بلوغ ذلك المقام يستلزم الوصول إلىٰ مقام معنوي رفيع بحيث لا يمكن أن يخفىٰ عليه شيء، أم هنالك من المغيّبات ما ليس له إليها من سبيل رغم بلوغه ذلك المقام بغضّ النظر عن الوحي أو الإلهام أو سائر الوسائط؟

٢ ـ هل تنحصر علوم زعماء الإسلام وأئـمّة الأطهار عليهم السلام في إطـار العـلم بالقرآن والأحكام القرآنية والتعاليم الإسلامية في حين ليس لهم مثل هـذا العـلم بالحوادث المستجدّة ومستقبل المسلمين ومصير الإسـلام، أم أنّ عـلمهم واسـع شامل بخصوص القرآن والأحكام والتعاليم الإسلامية ومستقبل الأُمّة و...؟

٣ ـ هل للأئمة علم بما كان وبما يكون إلىٰ يوم القيامة أم لا؟ وعلىٰ فرض وجود مثل هذا العلم، فهل علمهم بالأشياء حضوري أم حصولي؟ وبعبارة أُخرىٰ: هل «إذا شاءوا علموا» كما يقول المتكلّمون بحيث ليس لهم مثل هذا العـلم دون هـذه المشيئة، أم أنّ علمهم فعليّ بجميع هذه الأشياء؟

ونتناول الآن دراسة القسم الأوّل، أي علم غيب الأئـمّة والأنبياء عليهم السلام مـن وجهة نظر القرآن الكريم.

القرآن وعلم الأنبياء عليهم السلام:

ليس لأيّ من الأنبياء من إحـاطة بأسرار الخـلق وتـعاليم الديـن بـصورة تلقائية، وأنّهم إنّما يتعلّمون كلّ شيء من خلال الوحي والنفحات الربّانيّة، وقـد صرّح القرآن بتعليمه آدم الأشياء ـ ضمن سرد قصّته ـ وأنّ الملائكة أعربوا عـن عجزهم العلم بالأشياء دون رفدهم بها مـن الله ﴿وَعَـلَّمَ آدَمَ الْأَسْـمَاءَ كُـلَّهَا ثُـمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَـالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾[1]. وقال بشأن عيسىٰ عليه السلام: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِـتَابَ

(١) سورة البقرة: الآية ٣١ ـ ٣٢.

﴿وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾(١).

وقد ذكرنا سابقاً أنّ علم الأنبياء عليهم السلام يستند إلى الوحي، بينما يستند الأوصياء في علمهم إلىٰ الأنبياء. وعليه: فهم ليسوا فقط لا يطّلعون على الغيب تلقائياً، بل حتّى علمهم بأسرار النبوّة إنّما هو من تعليم الله، حتّى علمهم بقصص الأمم الماضية والأنبياء لا يتأتّىٰ من بذل الجهود والتعرّف عليها من خلال الطرق المتداولة. والوحي هو سبيلهم في الإحاطة بهذه الأُمور، وقد أفصح القرآن الكريم كراراً عن هذه الحقيقة بشأن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، فعلىٰ سبيل المثال يستعرض القرآن قصّة يوسف من أجل استنباط بعض الدروس والعبر التي لم يكن النبيّ صلى الله عليه وآله علىٰ علم بتلك الأحداث ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾(٢).

وبناءً علىٰ ما تقدّم فسبيل الأنبياء إلىٰ العلم هو الوحي، وبغضّ النظر عن الوحي فهم كسائر الناس في التعرّف على الحقائق وتشخيص الأُمور والتعامل مع الحوادث، كما يبدون أحياناً دون الوحي أفراداً عاديين من حيث العلم ببعض الأُمور وكأنّهم لا يحسنون معرفة الأشياء المحيطة بهم. فنوح عليه السلام ـ وهو من أنبياء أولي العزم، وطبق النظرة الابتدائية دون الاستناد إلىٰ الوحي ـ يرىٰ صلاح ولده، فيستغيث بالله من أجل إنقاذه من بلاء الطوفان ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾(٣)، فأتاه الخطاب الإلهي الحاسم الذي يتضمّن المنع عن مثل هذا الطلب ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾(٤).

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٤٨.

(٢) سورة يوسف: الآية ٣.

(٣) سورة هود: الآية ٤٥.

(٤) سورة هود: الآية ٤٦.

فلم يجد نوح بدّاً من الانصراف عن طلبه والاستعاذة بالله من تكرار مثل هذه الطلبات، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾[١].

إذن، فليس هنالك من غبار يشوب هذه الحقيقة في أنّ سبيل الأنبياء إلىٰ العلم هو الوحي، وليس لهم من سبيل إلىٰ الإحاطة بجميع الحقائق دون ذلك الوحي، ولا يلزم علىٰ النبي كونه نبيّاً أن يلمّ تلقائياً بكافّة الأُمور الغيبية ويحيط خبراً بجميع الحوادث. وهذا هو الأمر الذي كشف القرآن عنه النقاب حين خاطب النبيّ الأكرم ﷺ قائلاً: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾[٢].

إذن، فليس صحيحاً القول بأنّ النبيّ لكونه يشغل هذا المنصب الإلهي الرفيع يكون عالماً بالغيب بالذات، وأنّ مقام النبوّة سيزيل عنه كلّ حجب المجهول، وبعبارة أُخرىٰ: النبوّة ليست وسيلة لعلم الغيب، بل النبيّ لا يستغني في كلّ آن عن الإفاضة الإلهية في إدراك المجاهيل، وهذا من الأُمور التي لا نقاش فيها، إلّا أنّنا حين نتتبّع القرآن والآيات الواردة بشأن النبوّة نفهم أنّ البارئ سبحانه قد أفاض عناياته الخاصّة علىٰ صاحب هذا المقام، بما يجعله يقف علىٰ جميع الأُمور المجهولة وماضي ومستقبل البشرية والحوادث التي تواجهها في مسيرتها، حيث اختصّ سبحانه بعض عباده بهذه الإحاطة، الأمر الذي يجعل صاحب مقام الزعامة الدينية عالماً بالغيب.

وإليك طائفة من الآيات الواردة في علم الغيب، وهنا يمكننا أن نقسّم الآيات الكريمة إلىٰ ثلاث طوائف:

١ ـ الآيات التي حصرت علم الغيب بالله.

(١) سورة هود: الآية ٤٧.

(٢) سورة هود: الآية ٤٩.

٢ ـ الآيات التي تنفي عن الأنبياء والنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله العلم بالغيب.

٣ ـ الآيات الدّالة علىٰ إفاضة الله لعلم الغيب علىٰ أنبيائه.

نكتفي بذكر نموذجين من الآيات الواردة في القسم الأوّل:

١ ـ ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[1].

٢ ـ ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾[2].

ومن نماذج القسم الثاني من الآيات:

١ ـ ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾[3].

٢ ـ ﴿قُل لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[4].

وأمّا نماذج القسم الثالث، فهي:

١ ـ ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً* إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً* لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾[5].

٢ ـ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِى مِنْ رُسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾[6].

---

(١) سورة النمل: الآية ٦٥.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٥٩.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٥٠.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٨٨.

(٥) سورة الجن: الآية ٢٦ ـ ٢٨.

(٦) سورة آل عمران: الآية ١٧٩.

مفاد الطوائف الثلاث من الآيات :

١ ـ علم الغيب بصورة تلقائية مختصّ بالله ، والله وحده العالم بالغيب بالذات وأنّ جميع الأُمور حاضرة لديه .

٢ ـ أنّ الأنبياء لا تتكشّف لهم حجب الغيب بمجرّد بلوغهم النبوّة .

٣ ـ توضّح الطائفة الثالثة من الآيات حصر هذه القدرة في الله ونفي علم الغيب عن الأنبياء ، كما تشير إلىٰ ماهية هذا الانحصار وماهية عدم اطّلاع النبي علىٰ الغيب ، فهي تشير إلىٰ أنّ الله إنّما يفيض هذه القدرة علىٰ رسله فقط ، وأنّه قد حباهم بهذه الكرامة من بين الخلق فأطلعهم علىٰ المغيّبات ، وعليه: فليس للنبيّ تلقائياً من علم بالغيب ، وأنّ الله يفيض هذه الكرامة علىٰ أنبيائه بما يكشف لهم الحوادث الخفيّة والحقائق المكنونة ، ويُنير لهم الظلمات من خلال الوحي ، بل يمكن الجزم ـ علىٰ ضوء الآية ١٧٩ من سورة آل عمران ـ أنّ مقام الرسالة معناه العلم التامّ بالغيب ، وأنّ عمل الرسول هو الاستخبار بعلم المغيّبات ، حيث يتمكّن بواسطة هذا العلم من قيادة الأُمّة والأخذ بيدها إلىٰ شاطئ الأمان والسعادة في الدارين .

ونخلص ممّا سبق إلىٰ أنّ الفصل المميّز للرسالة هو بلوغ الرسول منزلة تجعله عالماً بالغيب ، فهل ينطق الرسول عمّا سوىٰ الغيب؟ وهل كشف الحقائق المجهولة وإبانة أسرار الوجود ، وإماطة اللثام عن مستقبل البشرية ومصيرها ، وإزالة الحيرة والاضطراب عن الأُمّة ، وتعريفها بالحوادث إلىٰ يوم القيامة ، وما ينتظرها في ذلك اليوم ، هي أشياء أُخرىٰ خارج ذلك العلم؟ وهل له ممارسة مثل هذه الأُمور بعيداً عن العلم بالغيب؟

نعم ، إنّ بعض الرسل قد لا يبلغون كافّة مراحل كمال العلم الغيبي ، فهم يتفاوتون في تلقّي الإفاضات الإلهية ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[1] ،

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٣ .

لكن ليس منهم من شذّ عن تلك الإفاضات وحرم منها، ولم تتح هذه الإفاضات بأكملها إلّا لرسول الله صلى الله عليه وآله وإن كان صلى الله عليه وآله ـ علىٰ ضوء بعض النصوص القرآنية ـ ليس مطّلعاً علىٰ بعض الحوادث ﴿يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾[1].

فالنتيجة التي نخلص إليها من مجموع الطوائف الثلاث هي أنّ الغيب الذاتي مختصّ بالحقّ تبارك وتعالىٰ، وأنّ الوحي هو وسيلة الأنبياء للتوصّل إلىٰ هذا العلم، ولكي يتّضح الموضوع أكثر لابدّ من تسليط الضوء علىٰ هاتين الآيتين:

١ ـ الآية: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾[2]، أولا يفهم من هذه الآية انحصار العلم بالغيب بذات الله تعالى؟ ونقول: لو كان المراد أنّه ليس هنالك أحد سوىٰ الله له علم بكيفية أسرار الخلق وعلم الغيب لكان من المناسب أن يحصر هذا العلم به سبحانه لا مفاتحه.

٢ ـ لقد وصف سبحانه في بعض الآيات ذاته المقدّسة بعلّام الغيوب، أي عبّر بصيغة المبالغة، كما ورد ذلك في الآية ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[3].

وهكذا عبّر بهذه الصيغة في سائر الآيات، أفلا يشعر هذا بأنّ العلم المقتصر علىٰ الحقّ تعالىٰ هو العلم بمعنى المبالغة؟

علم الأئمّة عليهم السلام:

لقد اتّضح لدينا لحدّ الآن أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله مَن يستمدّ علمه بالأشياء من

(١) سورة الأحزاب: الآية ٦٣.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٥٩.

(٣) سورة التوبة: الآية ٧٨.

الإفاضات الغيبية فهو عالم بـالغيب، ولكـن مـاذا بشأن الأئـمّة؟ هـل الأئـمّة الأطهار عليهم السلام عالمون بالغيب أيضاً؟ وهل ورد في القرآن ما يفيد استنادهم إلىٰ المدد الغيبي في إمامتهم واطّلاعهم علىٰ المغيّبات ولو عن طريق النبيّ صلى الله عليه وآله؟

لا شكّ أنّ عـلم الأئـمّة عليهم السلام هـو حـصيلة إرشـادات وتـوجيهات النـبيّ الخاتم صلى الله عليه وآله، كما لا شكّ أيضاً أنّهم لا يستندون في علمهم إلىٰ الوحـي، لكـن ليس هنالك من شكّ أيضاً ـ وكما اتّضح من المباحث السابقة ـ في أنّهم عيّنوا من قِبل الله إلىٰ جانب كون إمامتهم ممّا تقتضيه وظيفة مواصـلة أهـداف الرسـالة، وتـطبيق الأحكام الإسلامية وتفصيل أسرار القرآن علاوة علىٰ اسـتخلافهم مـن جـانب النبي صلى الله عليه وآله.

وبعبارة أوضح: أنّ الإمامة من الأُصول الرئيسيّة للإسلام وكـافّة الشرائـع الإلهية، وأنّ الإمام منصّب من قبل الله للنهوض بأهداف الإسلام وزعامة الأُمّـة وتوجيهها في مسيرتها الحياتية، وخلاصها من مصاعب الحياة، والأخذ بيدها إلىٰ الصلاح والفلاح، وهنا لابدّ من معرفة: هل أنّ الأئـمّة الأطهار عليهم السلام عالمون بالغيب والحوادث الخفيّة وتفاصيل الأُمور، أم أنّ علمهم يقتصر علىٰ القرآن والأحكام؟

قد ذكرنا آنفاً أنّ هؤلاء الهداة إمامة الأُمّة بعد النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، وقد نصّت آية الطاعة ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ...﴾ بولايتهم للأمر وتشكيل الحكومة الإسلامية، فهل ينبغي أن يكون الحاكم الإسلامي عالماً بالغيب، وما رأي القرآن الكريم بهذا الشأن؟

نقطة ضرورية:

لا ندّعي في هذه الأبحاث أنّ مفاد الآيات الكريمة ـ التي سنعرض لها لاحقاً ـ صريحة في أنّ الإمام بالاستناد إلىٰ الفيض الإلهي عالم بالغيب، بل ما تفيده الآيات الواردة بهـذا الشأن، هو أنّ الأفراد الذين بيدهم مـقدّرات المسـلمين عـلىٰ أنّهـم

حكّام المسلمين وأئمّتهم لابدّ أن تكون دعائم حكومتهم مستندة إلىٰ الإستمداد الغيبي، وأنّهم يعتمدون علىٰ العلم الغيبي الذي يفاض عليهم، وأنّ الإمام إنّما يُمارس زعامته بما يفيض الله عليه، وحيث ثبت في محلّه أنّ الأئمّة الأطهار عليهم السلام هُم ولاة الأمر والحكّام، فمن المفروغ منه أن تستند أسس حكومتهم إلىٰ العلم الغيبي.

وبعبارة أُخرىٰ: أنّ الحكومة الإسلامية وتدبير الأُمور علىٰ أساس الإطار الإسلامي وتصريف شؤون القضاء وإدارة شؤون البلاد وتعريف الأُمّة بوظائفها وكيفيّة التعامل معها وتوجيهها وإرشادها، كلّ ذلك لابدّ أن يستند إلىٰ العلم الغيبي، وعليهم أن يبلغوا الأُمّة ما أَلهمهم الله من مكنون غيبه.

وبناءً علىٰ هذا فإنّ الحاكم الإسلامي إنّما يستند إلىٰ العلم الغيبي في حكومته وتوجيهه وزعامته للأُمّة، ولمّا كانت الحكومة الإسلامية للأئمّة الأطهار عليهم السلام بعد النبيّ صلى الله عليه وآله كان لابدّ من علمهم التامّ بالمغيّبات والحوادث الخفيّة وما يواجه الإسلام والمسلمين خلال المسيرة.

واستناداً لهاتين المقدّمتين ـ اللتين هما بمثابة الصغرىٰ والكبرىٰ ـ يثبت أنّ الأئمّة الأطهار عليهم السلام زعماء الدين مطّلعون علىٰ الغيب، عالمون بالحوادث الواقعة وما يمتّ بصلة لسعادة الأُمّة.

أمّا كبرىٰ هذا الدليل فهي الآيات التي سنتطرّق إليها، والتي تفيد استناد الحاكم الإسلامي لعلم الغيب، وأمّا صغراه فهي الآيات السابقة التي صرّحت بأصل الإمامة علىٰ غرار أصل النبوّة، وأنّ الأئمّة الأطهار عليهم السلام من بني هاشم هم أُولو الأمر بعد النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله.

ونخوض الآن في الآيات التي تمثّل كبرىٰ الدليل، أي الآيات التي تفيد ضرورة استناد الحاكم الإسلامي في شؤون الحكومة إلىٰ علم الغيب وكونه عالماً بالغيب.

الآية الأُولىٰ :

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾[١].

واضح أنّ ما أرىٰ الله نبيّه وأراده هو أن تكون حكومته ودعائمها قائمة علىٰ أساس ذلك العلم بالمغيّبات، وقد ذكر كِبار المفسّرين من قبيل الشيخ الطوسي ـ المحقّق المعروف ـ في سبب نزول الآية أنّ الإخوة الثلاثة من بني زريق وهم بشر وبشير ومبشّر سرقوا سيفاً ودرعاً وطعاماً من عمّ قتادة بن النعمان، فأتى قتادة رسول الله ﷺ بطلب من عمّه لاسترداد تلك المسروقات، وقد كان قتادة وجيهاً محترماً لدىٰ رسول الله ﷺ؛ لأنّه شهد بدراً. فبعث السرّاق بأسير بن عروة ـ وكان منطيقاً ـ يشفع لهم عندالنبي ﷺ، فسمع ابن عروة مقالة قتادة، فقال مُدافعاً: يارسول الله ﷺ إنّ هؤلاء الإخوة من أشرافنا، فلا أرىٰ أن تأذن بأن يساء إلىٰ المسلمين عندك، فحمل رسول الله ﷺ علىٰ قتادة وعنّفه علىٰ اتّهاماته. وكان لابدّ للنبي ﷺ من العمل بالظاهر من تعنيفه، لرميه بعض المسلمين بالسرقة دون الإتيان بدليل أو حجّة... فترك قتادة المجلس حزيناً ورجع إلىٰ عمّه مغموماً فقال: ليتني متّ ولم أقل للنبي ﷺ ما قلت[٢].

فنزلت الآية لتطّلع النبيّ ﷺ علىٰ الحقيقة وتحكم بخيانة الإخوة الثلاث وتطلب من النبيّ ﷺ أن يستند في حكمه إلىٰ العلم الواقعي، أي العلم بالمغيّبات، رغم كون ظاهر الأمر يقتضي بما قام به النبيّ ﷺ ويعنّف قتادة، إلّا أنّ الله أشار عليه بالحكم استناداً إلىٰ الغيب وما أراه سبحانه وألّا يدافع عن الخائن، فالذي يفيده سبب النزول أنّ النبيّ ﷺ وبغضّ النظر عن الوحي لا يحيط ببعض الأُمور الجزئية،

---

(١) سورة النساء: الآية ١٠٥.

(٢) تفسير القمّي ١: ١٥٠ـ ١٥١، التبيان في تفسير القرآن ٣: ٣١٦ ـ ٣١٧، مجمع البيان ٣: ١٧٤ ـ ١٧٥.

إلّا أنّه يطّلع عليها وعلىٰ تفاصيل سائر الحوادث من خلال الاستمداد من الغيب، فالغيب من شأنه أن يحدّد الخائن والسارق والبريء. فلايخفى شيء علىٰ الحاكم الإسلامي، وهو عليم بالأسرار الخفيّة، وأنّ الله قد أراه ما تقوم به حكومته.

وإذا تأمّلنا العبارة «ما أراك الله» التي وردت بصيغة الماضي وطبّقناها علىٰ هذه الواقعة، لإفادتنا عدم وجود أيّ شيء مخفي ومستور علىٰ النبي صلى الله عليه وآله، وهو عليم بالأشياء بنبوّته المستندة إلى المدد الغيبي، فليس هنالك من ترديد بالنسبة إلىٰ النبي صلى الله عليه وآله في أنّ أولئك الإخوة الثلاث سارقون خائنون.

نظرة أعمق:

رغم أنّ الآية الكريمة ـ بالالتفات إلىٰ سبب النزول ـ مختصّة بحادثة مع النبي صلى الله عليه وآله، إلّا أنّ التعمّق في الآية يفيد ضرورة استناد حكومة وزعامة الحاكم الإسلامي ـ الذي نصّبه الله علىٰ الخلق ـ إلىٰ علم الغيب وما يريه الله ويكشف له من مكنونات الأُمور؛ لأنّ مفاد الآية ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ ـ مع إلغاء خصوصية هذا المورد ـ أنّ الحاكم الإسلامي لا يحكم إلّا بما يريه الله ويرشده إليه، وهذا ما يستلزم الاستنتاج بعلم الحاكم والإمام بالمغيّبات والحوادث الخفيّة، ولو كانت تلك الحادثة جزئية وفي زمان خاصّ، وحيث نصّت الآيات السابقة علىٰ أنّ الإمام خليفة النبيّ صلى الله عليه وآله في الحوادث الواقعة وزعامة الأُمّة وولاية شؤونها الإسلامية فهو يتمتّع بما يتمتّع به النبي صلى الله عليه وآله من علم، والله أعلم.

الآية الثانية:

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾[1].

---

(١) سورة يوسف: الآية ١٠١.

الأحاديث بمعنى «الإخبار عن حوادث الزمان» ، فالآية تفيد تعليمه حوادث الزمان بتفاصيلها ، أي العلم الغيبي .

منصب يوسف عليه السلام:

إنّ يوسف الصدّيق الذي واجه تلك المصائب والويلات التي ملأت حياته بالألم والمعاناة والحرمان والفِراق ، وبعد أن أثبت خلوصه في عبودية الله وكفاءته حظي بشيء من زعامة مصر وأصبح أميناً لخُزانتها ، وحيث كان من أنبياء الله وقد جعله الله في ذلك المقام وفوّض إليه إدارة الشؤون الماليّة للبلاد ، وجب أن يكون عالماً بخزائن الغيب ومكنوناته وحوادث الزمان والمرجع في تلك الوقائع والأحداث .

وبناءً علىٰ هذا فإنّ الحاكم وإن كان دون الزعيم العام وأوطأ درجة منه ، فإن كان يشغل هذا المنصب من جانب الله فهو عالم بالمغيّبات والحوادث الخفيّة . وقد نبّه القرآن الكريم إلىٰ قبس منه في تأويل الأحلام وارتداد يعقوب بصيراً[1]، وعليه : فإنّ الزعامة الإلهية تتطلّب العلم بالمغيّبات والإحاطة بالحوادث سواء كانت هذه الزعامة متمثّلة بيوسف عليه السلام ، أم غيره من الزعماء الربّانيين ، وذلك لأنّ الآية الكريمة صريحة في أنّ مَن تصدّى للملك من قِبل الله لابدّ أن يكون ملمّاً بأُسلوب إدارة شؤون البلاد والاستمداد الغيبي .

الآية الثالثة :

﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾[2].

يتّضح من التأمّل في قصّة طالوت وجالوت ـ التي ذكرنا تفاصيلها سابقاً ـ أنّ

---

(١) سورة يوسف: الآيات ٤٣ ـ ٤٩ و ٩٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥١.

زعامة الأُمّة إنّما تفوّض إلىٰ الصالحين من الأفراد ممّن تتوفّر فيهم شرائطها، من قبيل العلم والقدرة و... وأنّ الله هو الذي زوّد الملك بتلك القدرة العلمية، حيث صرّحت الآية قائلة: ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾. ولعلّ فاعل «يشاء» ضمير يعود إلىٰ داود، أي أنّ الله آتى داود كلّ ما شاء من العلم. وربّما عاد الضمير إلىٰ «الله» أي أنّ علم داود من الله، وقد أفاض الله ما شاء من العلم علىٰ داود.

علىٰ كلّ حال فالمعنىٰ المستفاد هو أنّ زعيم البلاد ـ الملك ـ ينبغي أن يكون عالماً بالمغيّبات محيطاً بالمكنونات، وأنّ زعامته لا تستند إلىٰ الطرق والجهود المتعارفة في الحصول علىٰ العلم، بل وسيلته فيها إفاضات الحقّ سبحانه في الوقوف علىٰ الأسرار، سواء كان هذا الزعيم داود، أو أيّ فرد آخر ينصّبه الله.

الآية الرابعة:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[1]. ترىٰ الآية أنّ الإمامة منصب إلهي، كما تدلّ على أنّ الإمام يتولّىٰ الأمر بالاستمداد الغيبي، والذي تفيده هذه الدلالة استناد الإمام في زعامته إلىٰ العلم الغيبي.

وبناءً علىٰ هذا فللأئمّة الأطهار عليهم السلام مثل هذا الامتياز؛ لأنّهم مصطفون من قبل الله، غاية ما في الأمر أن لا سبيل إلىٰ الوحي، وأمّا سائر السبل فمفتوحة.

ثمرة هذا البحث القرآني:

لقد أصبح الأمر جليّاً بأنّ أئمّة الإسلام إنّما يستندون إلىٰ الغيب في زعامتهم

(١) سورة الأنبياء: الآية ٧٣.

وأنّهم مطّلعون علىٰ خفايا الأُمور، ولكن ما مدىٰ هذا الإطّلاع والعلم، وكيف يتأتّىٰ لهم هذا العلم؟

لا يمكن الاستدلال بهذه الآيات في هذا الخصوص، ولكن ما يمكن الجزم بقوله هو أنّ علمهم بكيفيّة تؤدّي إلىٰ هدايتهم إلىٰ الصراط المُستقيم وإلىٰ سبل السلام، وأن تكون هدايتهم صائبة صحيحة تماماً، فهم الهُداة إلىٰ الحقّ والحقائق المسلّمة، وذلك بفعل استنادهم إلىٰ الغيب، وليس هنالك من سبيل إلىٰ خطأ هذه الهداية، وبالتالي فشل وهلاك الأُمّة ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَى﴾[1].

كما نعلم من جانب آخر أنّ هؤلاء زعماء إلىٰ الأبد، وقد تقدّم هذا البحث وثبت في حينه أنّ العالم الإسلامي لابدّ أن يخضع ـ وإلى قيام الساعة ـ في قيادته لمثل هؤلاء الزُعماء.

وبناءً علىٰ هذه النتيجة والمقدّمتين فإنّ علمهم بالحوادث الخفيّة وما ستواجهه الأُمّة الإسلامية في المستقبل، ولاسيّما الحوادث ذات الصلة بكيان الإسلام والمسلمين إنّما تثبت وتوضّح أمرين، هما:

١) أنّ الأئـمّة الأطهار عليهم السلام هم الزعماء والقادة إلى الأبد.

٢) أنّ زعامتهم وبالاستناد إلىٰ المدد الغيبي والعناية الإلهية هي عين الصواب والتي تتضمّن الهداية المطلقة إلىٰ الحقّ.

وأمّا ثمرة هاتين المقدّمتين؛ فهي أنّ الأئـمّة الأطهار عليهم السلام عالمون بالحوادث الخفيّة وما ستواجهه الأمة الإسلامية إلىٰ يوم القيامة، وذلك لأنّه لا يمكنهم أن يكونوا زُعماء إلىٰ الأبد ما لم يكونوا عالمين. وإن قُلنا بأنّهم زعماء إلىٰ الأبد، ولكن ليس من الضروري أن يكونوا عالمين بجميع الحوادث، فإنّ هذا ينقض الفرض

(١) سورة يونس: الآية ٣٥.

القائل بأنّ زعامتهم هي عين الصواب.

إذن، فالعلم والإطّلاع من مستلزمات خلود زعامتهم. كما أنّ ملزوم هدايتهم المطابقة للواقع والبعيدة عن الفساد هو علمهم بجميع الحوادث.

وهنا يبرز هذا السؤال: أيمكن أن تكون توجيهات وهداية الزعيم صائبة ودون شائبة في حين ليس له من علم بالحوادث، وأنّه يقود الأُمّة إلىٰ سبل السلام ويهديها إلىٰ الصراط المستقيم حين تعترضها بعض الأحداث التي لم يتكهّن بها؟

كيف يمكن الاعتقاد بأنّ الأئـمّة عليهم السلام هم الزعماء إلىٰ الأبد، وأنّ الأُمّة تحذو حذوهم بينما يجهلون عواقب الأُمور والأحداث! وكيف لنا أن نتصور أنّ هدايتهم عين الواقع إلىٰ الأبد وهم جاهلون بالوقائع؟! وعليه: فـإنّ افـتراض عـدم عـلم الأئـمّة عليهم السلام إنّما يستلزم إنكار أصلين قرآنيين مسلّمين، وهما:

١ ـ الزعامة الأبديّة للإمام.

٢ ـ الهداية الواقعية التي تأبىٰ الفساد ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَى﴾[1]. فكأن مفهوم الآية هو أنّ مَن يهدي إلىٰ الحق وليس للباطل من سبيل إليه هو الإمام الأبدي، والإمام الأبدي لن يخطئ؛ لأنّ الإتّباع ورد مطلقاً في الآية، وعليه: فالإمامة دائمة أيضاً، أمّا نفي العلم بالحوادث المستقبلية عن الإمام الأبدي ذي الهداية الواقعية الصائبة إنّما هو مكابرة وجدل فارغ.

علائم الإمام عليه السلام:

بغضّ النظر عن الشرائط التي بحثت في الآيات الماضية التي تكشف النقاب عن علائم الإمام وشرائط الإمام من وجهة نظر القرآن الكريم، فقد اتّضحت

(١) سورة يونس: الآية ٣٥.

الأبعاد العلمية للإمام في ما يلي:

١ ـ أنّ الإمام يمارس زعامته من خلال الاعتماد علىٰ الغيب.

٢ ـ الزعامة الروحية ـ الأشمل من الإمامة والنبوّة ـ ليست سوىٰ المعرفة بالغيب، ولم تجر المشيئة الإلهية أن يطّلع الناس على الغيب دون الوسيط العالم بسبل السعادة والفلاح، بل لا يتحقّق هذا الهدف إلّا في ظلّ صفوة ربّانية، وهذه هي إرادة الله في أنّه «لَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً* إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَسُولٍ»[1].

٣ ـ أنّ أئمّة الدين عالمون بالغيب خبيرون بما حُجِب عن الأبصار.

٤ ـ هدايتهم بالنظر لاعتمادهم علىٰ الغيب مطابقة للواقع تأبىٰ الخطأ والانحراف.

٥ ـ حدّ الهداية والإرشاد هو المسيرة التأريخية للبشرية، وعليه: فهم عالمون بحوادث البشرية وعاقبتها.

٦ ـ كلّ هذه الأُمور من الفيوضات الغيبية والعنايات الإلهية، وإلّا فهم لا يتجاوزون الإمكان العلمي في الحدود الإنسانية.

التصدّي للانحراف:

لقد أشار القرآن في أكثر من آية إلىٰ روح اللجاجة والعناد وعدم التسليم التي تحكم روح الإنسان طيلة عصور الأنبياء عليهم السلام، لكن أحياناً يخرج عن حالة التسليم الطبيعي ليقع في مستنقع الضلال. فالقرآن يُشير إلىٰ هذا الأمر، وأنّ هناك طائفة لم تؤمن بنبوّة عيسىٰ عليه السلام حتّى همّت بقتله، بينما ذهبت طائفة أُخرىٰ وسلّمت لأُلوهيّة نبي الله عيسىٰ عليه السلام، ولذلك جهد القرآن في محاربة هذه الأفكار الضالّة المنحرفة، والواقع هو أنّ هذا الضلال الذي شمل ملايين النصارىٰ الروم إنّما كان معلولاً

---

(١) اقتباس من سورة الجنّ: الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.

لولادته من الأُمّ دون وجود الأب، أي الولادة من غير المسير الطبيعي الإنساني، وقد ركّز القرآن الكريم علىٰ أنّ الولادة الطبيعية خاضعة لإرادة الله تابعة لقدرته، وإن كان هناك من وليد دون أب؛ فإنّه لا يعني أنّه خارج عن الولادة الإنسانية الطبيعية وأنّه فوق الإنسان الطبيعي، وذلك لأنّ القدرة والإرادة الإلهية أعظم من هذه الأُمور، فالله هو الذي يخلق من العدم، كما يخلق آدم من تراب، وعليه: فعيسىٰ عليه السلام ليس خارجاً عن دائرة الإمكان، فهو كسائر المخلوقات التي اكتسبتها المشيئة الإلهية حقيقة الوجود.

هدف الآيات النافية لعلم الغيب:

لا يبدو مستبعداً علىٰ ضوء الآيات التي وردت بشان علم النبيّ وأئمّة المسلمين أن يكون الهدف من نفي علم الغيب عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله هو الأمر المهمّ الذي ذكرناه سابقاً، فقد ترعرع النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله في بيئة تتّصف بالجهل والخرافة وآلاف العيوب وعدم التعرّف علىٰ العالم الإنساني، وقد سطع نوره في ظلمات القلوب، فلعلّ هناك بعض الأفراد الذين يفقدون باصرتهم إثر تركيزهم علىٰ رؤية الشمس، فقد كانت لشخصية النبيّ صلى الله عليه وآله وقدرته العلمية وسموّه ورفعته أثرها في نفوس البعض الذي يخشىٰ عليه من الاضطراب، كما يمكن أن يصل بعض المؤمنين إلىٰ المغالاة في الحقّ بالنسبة للنبي صلى الله عليه وآله؛ وبالتالي يُصابون بما اُصيب به النصارىٰ فيقولون باُلوهية محمّد صلى الله عليه وآله، ولهذا جهد القرآن علىٰ إضفاء حالة الاعتدال لدىٰ المسلمين وعدم الانحراف عن الصراط.

ولذلك نرىٰ القرآن الكريم لا ينفك يؤكّد ما معناه أنّ محمّداً ليس إلّا بشراً مثل سائر الأفراد، كما أنّ شعار الإسلام الذي يكمن في الشهادة قد تضمّن التأكيد علىٰ عبودية محمّد لله «وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله»، فالقرآن سعىٰ من خلال نفيه

علم النبي ﷺ بالغيب لإبعاد التصوّر الذي قد يسود الأذهان بأنّه فوق البشر، ولا يغفلوا عن كونه عبداً من عبيد الله ليبلغ الوحي والرسالة.

ومن هنا لابدّ من القول بأنّ الآيات النافية لعلم الغيب إنّما تجرّده من العلم الذاتي للغيب، فهو ليس بذاته محيط بالأسرار والخفايا، ليتصوّر بأنّه إله في الأرض، وأنّ الله سبحانه بعنايته ولطفه وفيضه إنّما يرفع عنه حجب الغيب ويطلعه علىٰ المكنونات، فالنبيّ ﷺ كالمرآة التي تعكس نور الله سبحانه.

ولذلك تطالعنا أيضاً ـ وفي إطار الهدف المذكور ـ بعض الآيات التي تسلبه القدرة الذاتيّة علىٰ هداية الأُمّة، بل أبعد من ذلك أنّ بعض الآيات سلبته بعض الأفعال الاختيارية ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾(١)، كما سلبته الهداية إلىٰ الصراط المُستقيم تحقيقاً لذلك الهدف ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ﴾(٢).

نعم، لقد تنوّعت الأساليب والخطابات القرآنية التي تروم تفادي الانحراف الفكري والغلوّ في شخص النبي ﷺ بفعل الكمالات العالية التي اشتملت عليها شخصيته، وأحياناً ترد بعض الآيات القرآنية علىٰ لسانه ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾(٣)، وكلّ ذلك بالطبع يهدف إلىٰ عدم ضلالة القوم وتورّطهم كتورّط النصرانية في نسبتها المسيح للربوبية، وإلّا فمحمد ﷺ لم يسلك وادياً ولم يهد إلىٰ سبيل إلّا من خلال الغيب، أو هناك تفسير سوىٰ الغيب لهذه الفصاحة القرآنية والمعارف العلمية والحقائق الاجتماعيّة والسياسية والمدنية والبلاغية التي أتىٰ بها بشر أُمّي؟

(١) سورة الأنفال: الآية ١٧.

(٢) سورة القصص: الآية ٥٦.

(٣) سورة الكهف: الآية ١١٠.

إذن، فحديثه عن الغيب وكشفه الحجب إنّما يستند فيها إلىٰ الحقّ سبحانه نور السموات والأرض، وأمّا الآيات التي نفت علم الغيب عنه ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾(١) إنّما تنفي الغيب الذاتي للنبي صلى الله عليه وآله، وكأنّه يريد أن يقول بأنّي لا أعلم شيئاً إلّا ما أفاض عليّ الحكيم المطلق.

آيات أُخرىٰ:

نذكر هنا طائفة من الآيات التي تؤيّد ما ذهبنا إليه سابقاً:

١ ـ ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً﴾(٢).

٢ ـ ﴿إِلَّا بَلَاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾(٣).

٣ ـ ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً﴾(٤).

٤ ـ ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾(٥).

فالآيات تكشف عن عدم قدرة النبيّ صلى الله عليه وآله علىٰ النهوض بالإنسان وإيصاله إلىٰ مراحل الكمال بالاستناد إلىٰ نفسه دون الاستمداد من الغيب الإلهي.

إذن، لاشكّ في أنّه ليس له من وسيلة إلىٰ تربية الأُمّة وإرشادها وإبلاغها رسالات السماء وقيمها سوىٰ الاستناد إلىٰ الغيب، وكلّ ما يأتي به إنّما هو الغيب،

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨٨.

(٢) سورة الجنّ: الآية ٢١.

(٣) سورة الجنّ: الآية ٢٣.

(٤) سورة الجنّ: الآية ٢٥.

(٥) سورة الجنّ: الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.

وليس هنالك إلّا بعض النوادر التي لم يطّلع عليها النبيّ صلى الله عليه وآله من قبيل الساعة، ولعلّ مثل هذا الأمر خارج عن طاقة العقل البشري مهما كانت قوّته، وليس ذلك إلّا إلىٰ علّام الغيوب.

نعم، إنّ هذه الآيات هي الأُخرىٰ واضحة في نفي علم الغيب عن النبي صلى الله عليه وآله، في الوقت الذي تصرّح فيه بأنّه إنّما يستند إلىٰ الغيب الإلهي في مسيرته الدينية التربوية.

هدف الأئمّة من نفي العلم بالغيب:

هذا هو الأمر الذي واجه الأئمّة الأطهار عليهم السلام أيضاً، فقد كانوا يحدّثون بالأخبار الغيبيّة؛ ممّا حدا بالبعض إلىٰ المغالاة، ولذلك نراهُم أحياناً ينفون وقوفهم علىٰ مثل هذا العلم. ونرىٰ من الأفضل أن نورد بعض النماذج التي ذكرها النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أو الأئمّة عليهم السلام والتي تكشف عن مدىٰ كمالهم وعلمهم، ثمّ نتطرّق بعدها إلىٰ تلك الأخبار التي تضمّنت نفيهم الانطواء علىٰ ذلك العلم، ولا نرىٰ من حاجة للخوض في المزيد من الأخبار التي وردت عنهم، فنوكل هذا الأمر إلىٰ الكتب الروائية والتأريخية التي شحنت بهذه الأخبار، ونكتفي بذكر بعض الأخبار التي وردت عن أمير المؤمنين عليه السلام في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ثمّ نورد عباراته بهذا الشأن بصفته متتبّعاً لا غرض له، إذ ليس هو من علي عليه السلام.

إخبار أمير المؤمنين عليه السلام:

«أيُّها الناس فإنّي فقأتُ عين الفتنة... فاسألوني قبل أن تفقدوني، فوالذي نفسي بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئة تهدي مائة وتضلّ مائة إلّا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها، ومناخ ركابها، ومحطّ رحالها،

ومَن يُقتل من أهلها قتلاً ومن يموت منهم موتاً»[١].

يقول ابن أبي الحديد: «روىٰ أبو عمر محمّد بن عبدالبرّ في كتابه الاستيعاب عن جماعة من الرواة المحدّثين قالوا: لم يقل أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله: سلوني قبل أن تفقدوني إلّا عليّ بن أبي طالب.

وقال: «روىٰ شيخنا أبو جعفر الإسكافي في كتابه نقض العثمانية، عن علي بن الجعد، عن ابن شبرمة قال: ليس لأحد من الناس أن يقول على المنبر: «سلوني إلّا عليّ بن أبي طالب عليه السلام».

ثمّ خاض ابن أبي الحديد في الأُمور الغيبية التي أوردها أمير المؤمنين عليه السلام فقال: «لقد أقسم علي بالله الذي نفسه بيده أنّهم لا يسألونه عن أمر يحدث بينهم وبين القيامة إلّا أخبرهم به، وأنّه ما صحّ من طائفة من الناس يهتدي بها مائة، وتضلّ بها مائة إلّا وهو مخبر لهم ـ إن سألوه ـ برعاتها وقائدها وسائقها، ومواضع نزول ركّابها وخيولها، ومَن يقتل منها قتلاً، ومَن يموت منها موتاً، وهذه الدعوى ليست منه عليه السلام ادّعاء الربوبيّة، ولا ادّعاء النبوّة، ولكنّه كان يقول: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أخبره بذلك».

ثمّ أراد أن يؤكّد أنّ ما قاله عليّ في ادّعائه علم الغيب إنّما هو عين الصواب فقال: «ولقد امتحنّا إخباره فوجدناه موافقاً، فاستدللنا بذلك علىٰ صدق الدعوىٰ المذكورة»[٢].

ثمّ قال: لقد حدث كلّ ما أُخبر عنه، فقد قال قبل موته بسنوات: كأنّي بالشقي وقد خضّب هذه بهذه، أي ضربة ابن ملجم، ثمّ أخبر عن قتل ابنه الحسين في

---

(١) نهج البلاغة لمحمد عبده: ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

(٢) طبعاً لا نحتاج إلىٰ اختبار ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام ويشاركنا في ذلك السنّة ونفس ابن أبي الحديد، ولكن ليس هنالك من سبيل لمن لا يعتقد بمقام علي سوىٰ وقوع الحوادث طبقاً لما أخبر عنها.

كربلاء واستشهاد تلك العصابة معه[1]، وما أحرانا أن نورد بعض الأخبار الغيبية كما ذكرها ابن أبي الحديد، والأفضل في ذكر وصف المحبوب أن يأتي على لسان الآخرين لا على لسان المحبّ.

الأخبار الغيبية لعلي عليه السلام:

١ ـ الإخبار عن حكومة معاوية.

٢ ـ حكومة الحجّاج بن يوسف الثقفي.

٣ ـ قصّة الخوارج ومعركة النهروان.

٤ ـ إخبار بعض أصحابه بالقتل والصلب.

٥ ـ قتاله للناكثين والقاسطين والمارقين.

٦ ـ عدد أصحابه الذين يهبّون لنصرته من الكوفة في قتال أهل البصرة.

٧ ـ إخباره عن صلب عبدالله بن الزبير ووصفه بأنّه رجل مخادع لا يظفر بما يريد ويتشبّث بالدين من أجل الدنيا.

٨ ـ الإخبار عن خروج الرايات السود من خراسان، والتصريح بأسماء بني زريق من خراسان الذين يوالون حكومة بني العباس.

٩ ـ إخباره عن بعض الزعماء من ذرّيته في طبرستان، مثل الناصر والداعي وغيرهما.

١٠ ـ إخباره عن قتل النفس الزكيّة في المدينة قرب موضع أحجار الزيت والإخبار عن قتل أخيه عند باب حمزة بعد أن يظهر ثمّ يفشل.

١١ ـ قصّة إسماعيل بن جعفر بن محمّد عليهما السلام ووصفه بذي البداء والمسجّى بالرداء. وتوضيح ذلك: أنّ بعض الروايات صرّحت بالبداء في إمامة إسماعيل حيث

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٧: ٤٦ ـ ٤٨.

شاء الله أن يتغيّر مسار الإمامة التي كانت إليه ـ طبعاً ذكرنا مسألة البداء في محلّها ـ ولمّا حضرت إسماعيل الوفاة طرح أبو عبدالله جعفر بن محمّد عليهما السلام عليه رداءً، ثمّ وضعه في لحده مع عدد من كِبار الشيعة ليوقن الجميع بموت إسماعيل.

١٢ ـ إشارته إلىٰ حكومة بني بويه بقوله: يخرج من الديلم من «بني صيّاد»، يذكر أنّ والده كان يصيد السمك ويبيعه، كما أخبر بأنّ بني بويه يسيطرون علىٰ الزوراء ويعزل الوزراء، وهنا قام له رجل فسأله: ما مدّة حكومتهم؟ فقال عليه السلام: مائة عام أو أقلّ بقليل.

١٣ ـ إخباره عبدالله بن العباس بأنّ الحكومة ستؤول إلىٰ ولده، فقد ولد لابن عباس ولد يُدعى «علي» فأتىٰ به إلىٰ أمير المؤمنين عليه السلام فجعل شيئاً من لعابه في فمه ومضغ تمرة فجعلها في فمه وقال: خذه فإنّه أبو الملوك[1].

الروايات وعلم غيب الأئمّة عليهم السلام:

تتّضح بجلاء الشخصية العلمية للإمام من خلال البحث في الأخبار والآيات القرآنية في أنّه لا ينطق سوىٰ عن الغيب، وأنّ ذلك ممّا علّمه إيّاه رسول الله صلى الله عليه وآله أو أفاضه عليه الحقّ تبارك وتعالىٰ.

فأدنىٰ نظرة إلىٰ القرآن تفيد أنّ أهل البيت صفوة حظيت بعناية الله، الأمر الذي جعل بصيرتهم تخترق حجب الحوادث الكونية، بل تقف علىٰ كنه العالم وتحيط بأسرار القرآن وخفايا الحوادث والقصص المُستقبلية، وأنّ القرآن قد رسم صورتهم العلمية الحقيقيّة.

ورد في الخبر أنّ زرارة سأل الإمام الباقر عليه السلام عن الآية: ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾[2] الإمام ما منزلته؟ قال: «يسمع الصوت ولا يرىٰ ولا يعاين الملك» ثمّ استدلّ عليه السلام بقوله

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٧: ٤٨ ـ ٥٠.

(٢) سورة مريم: الآيتان ٥١ و ٥٤.

تبارك وتعالىٰ: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ وَلَا مُحدَّثٍ»[(١)،(٢)].

وروى الحسن بن محبوب، عن الأحول، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في الفرق بين الرسول والنبي والمحدّث قال: «أمّا المحدّث فهو الذي يحدّث فيسمع، ولا يعاين ولا يرىٰ في منامه»[(٣)].

وأجاب الإمام الرضا عليه السلام الحسن بن العباس قائلاً: «والإمام هو الذي يسمع الكلام ولا يرىٰ الشخص»[(٤)].

فمضمون هذه الروايات المتواترة يفيد أنّ للإمام عليه السلام أُذُناً تجعله يطّلع علىٰ الأسرار والإحاطة العلمية، وهذه غير ظواهر الكتاب وتعليم رسول الله صلى الله عليه وآله.

أجل، فالقرآن يعتبر الأئـمّة عليهم السلام شُهداء علىٰ الناس يوم القيامة، وأنّى لهم الشهادة علىٰ الآخرين ما لم يطّلعوا علىٰ أعمالهم؟ فقد روىٰ بريدة العجلي عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه تلا: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَىٰ النَّاسِ﴾ فقال: فرسول الله صلى الله عليه وآله الشهيد علينا بما بلّغنا عن الله تبارك وتعالىٰ، ونحن الشُهداء علىٰ الناس، فمن صدّق يوم القيامة صدّقناه ومن كذّب كذّبناه»[(٥)]. فما الذي يفيده هذا الخبر؟ فالإمام شاهد على الأعمال، والنبيّ شاهد على الأئـمّة عليهم السلام، النبيّ يشهد أنّه علّم الأئـمّة الغيب وأوامر الله، فالنبيّ شاهد والأئـمّة شهداء علىٰ الناس في محكمة العدل الإلهي، وأنّ أعمال الأُمّة ليست بخافية عليهم، وعلىٰ هذا أفلا ينبغي التصديق بعلمهم بالغيب وكافّة الحوادث وأعمال الأُمّة؟

---

(١) اقتباس من سورة الحج: الآية ٥٢.

(٢) الكافي ١: ١٧٦ باب الفرق بين الرسول والنبي والمحدّث ح١. لم ترد في القرآن كلمة «ولا محدّث». الأمر الذي يلزم أن يقال: إنّ هذا من باب تأويل الآية.

(٣) الكافي ١: ١٧٦ باب الفرق بين الرسول والنبي والمحدّث ح٣.

(٤) الكافي ١: ١٧٦ باب الفرق بين الرسول والنبي والمحدّث ح٢.

(٥) الكافي ١: ١٩١ الرواية الرابعة: باب أنّ الأئمّة شُهداء الله علىٰ خلقه ذ ح ٤.

بحث مختصر حول آية قرآنية :

صرّحت آخر آية من سورة الحج قائلة: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[1].

فظاهر الآية يفيد أنّها خطاب لصفوة من زُعماء الدين، ويؤيّد ذلك:

١) عبارة ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ التي تدلّ علىٰ الاختيار والامتياز.

٢) كلمة ﴿أَبِيكُمْ﴾ لأنّ إبراهيم هو أب الأئـمّة الأطهار عليهم السلام لا جميع المسلمين.

٣) عبارة ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ وذلك لأنّ إبراهـيم سأل الله صـفوة مـن ذرّيّته مسلمة منقادة لله، وقد تناولنا ذلك مسبقاً خلال شرح الآية الكريمة ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾[2].

وبناءً علىٰ هذا فإنّ العبارة: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ خطاب لزعماء الدين ولا سيّما الأئـمّة الأطـهار عليهم السلام، مـضافاً إلى أنّ «الشاهد» غير المدّعي والمنكر، فالمنكر أو المدّعي هم «الناس». وحـقّاً لابـدّ أن يكون الشاهد أُناساً آخرين عالمين بأعمال كافّة الناس، وإذا تـعاملنا مـع كـلمة «الناس» علىٰ ظهورها فإنّها تعني جميع العالمين، فنستطيع القول بأنّه ليس هنالك عمل لأيّ فرد يخفى علىٰ زعماء الدين وأئـمّة المسلمين. وهكذا يتّضح ـ علىٰ ضوء هذا الاستدلال ـ قول الإمام الباقر عليه السلام: «ونحن الشُهداء علىٰ الناس».

نعم، فالأئمة الأطهار عليهم السلام هم الصفوة من وجهة نظر القرآن التي أُختيرت من أجل زعامة الأُمّة: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[3]. قال سورة

---

(١) سورة الحجّ: الآية ٧٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٢٨.

(٣) سورة فاطر: الآية ٣٢.

بن كليب: قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: «والله إنّا لخزّان الله في سمائه وأرضه، لا علىٰ ذهب ولا علىٰ فضّة إلّا علىٰ علمه»(١).

تسند هذه الرواية المعتبرة ـ التي تؤيّدها عشرات الروايات ـ إلىٰ أبي جعفر الذي أسماه رسول الله صلى الله عليه وآله بالباقر؛ لأنّه يبقر علم الأوّلين والآخرين، ونرىٰ كيف أنّه يقسم ثمّ يؤكّد قسمه بحرف (إن) وحرف اللام: إنّا لخُزّان العلم! فهل علم الله محدود؟ وعليه: فعلم الأئـمّة عليهم السلام هو الآخر ليس بمحدود، فلو قـلنا: إنّ جمـيع الحـوادث وما خلف الحُجب معلومة عند أئـمّة المسلمين، لما كان ذلك جزافاً، ولكن ينبغي التعامل مع هذا الأمر ببصيرة القلب للتعرّف علىٰ خاصة عباد الله.

لقد جعل الله الأئـمّة عليهم السلام أنواراً وطهّر قلوبهم وأرواحهم، فهل من اجتماع بين الظلمة والنور؟ وهل لمن كان نوراً محضاً أن يكون جاهلاً؟ نعم، إنّما هم نـور مـن ذلك النور، ولذلك أوجب القرآن الاقـتداء بشـعاع هـذا النـور: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنَا﴾(٢).

لقد قال الإمام الباقر عليه السلام ـ طـبقاً لروايـة أبي خـالد الكـابلي ـ: «النـور والله الأئـمّة من آل محمّد صلى الله عليه وآله إلىٰ يوم القيامة، وهم والله نور الله الذي أنزل، وهم والله نور الله في السموات وفي الأرض، والله يا أبا خالد لنور الإمام في قلوب المؤمنين أنور من الشمس المضيئة بالنهار، وهم والله ينوّرون قلوب المؤمنين، ويحجب الله ـ عزّوجلّ ـ نورهم عمّن يشاء فتظلم قلوبهم، والله يا أبا خالد لا يحبّنا عبد ويتولّانا حتّى يطهّر الله قلبه، ولا يطهّر الله قلب عبد حتّى يسلّم لنا ويكون سلماً لنا، فـإذا كان سلماً لنا سلّمه الله من شديد الحساب وآمنه من فزع يوم القيامة الأكبر»(٣).

---

(١) الكافي ١: ١٩٢ باب أنّ الأئمّة عليهم السلام ولاة أمر الله ح ٢.

(٢) سورة التغابن: الآية ٨.

(٣) الكافي ١: ١٩٤ باب أنّ الأئمّة عليهم السلام نور الله عزّوجلّ ح ١.

علل الزعامة :

لقد تعرّضت الرواية السابقة إلىٰ الفصول المميّزة للإمامة في الإسلام، كما أشارت إلىٰ علل اتّباع زعامتهم وإمرتهم وأنّ زعامتهم نور إلىٰ يوم القيامة، فهم زعماء إلىٰ الأبد، والأُمّة تستضيء بنور علمهم علىٰ الدوام، والزعيم من يستطيع التغلّب علىٰ المشاكل والصعوبات ويبعث الأمل في قلوب أفراد الأُمّة.

فمثل الذين ينكرون علم الإمام التام كمثل خفافيش الليل التي لا تطيق رؤية الشمس، فليس للقلوب المدنّسة والنفوس المريضة أن تدرك شأن الإمام، فمعرفة الإمام تتطلّب قلباً طاهراً، ولا يطهر القلب إلّا بتسليمه واستسلامه لهذه الزعامة، والتسليم لهم لا يتمّ إلّا من خلال الإقبال عليهم والاستفادة من أفكارهم العظيمة ونهجهم القويم، الأمر الذي يبعث علىٰ سعة الصدر وانشراح القلب، وهذا بدوره يميط عن الإنسان رذائل الأخلاق ويحلّ عقد الحياة ويبعث الأمل في النفوس.

ولا يرتجى من الزعيم سوىٰ إيصال الأُمّة إلىٰ كمالها المنشود وإزالة المشاكل عن طريقها، وطالما كانت هذه الأُمور متوفّرة في الأئمّة الأطهار عليهم السلام، فهم قادة الدين وأئمّة الخلق لا محالة.

وبناءً علىٰ هذا فإنّ الإمام الباقر عليه السلام وبذكره للعلل السابقة قد لفت الانتباه إلىٰ ضرورة زعامة آل محمّد صلى الله عليه وآله. وهو ذات الأمر الذي قاله الإمام الصادق عليه السلام للمفضّل بن عمر: كان أمير المؤمنين عليه السلام باب الله الذي لا يؤتىٰ إلّا منه، وسبيله الذي من سلك بغيره هلك، وكذلك يجري لأئمة الهدىٰ واحداً بعد واحد[1].

---

(١) الكافي ١: ١٩٦ باب أنّ الأئمّة عليهم السلام هم أركان الأرض ح ١. هذه الرواية ضعيفة السند، غير أنّه هنالك عدّة روايات وردت بهذا المضمون فهي مؤيدة لهذه الرواية.

وحدة الموضوع:

كان البحث بشأن الأخبار والآيات التي كشفت عن المرتبة العلمية للأئمة عليهم السلام، وقد اتّضح لدينا خلال الأبحاث أنّ أئـمّة المسلمين هم الصفوة من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله الذين حظوا بلطف الله وعنايته ببصيرة ثاقبة جعلتهم يقفون علىٰ جميع أسرار القرآن وخفايا الحوادث ومكنونات قصص الماضين ومصير المسلمين، وللوقوف أكثر علىٰ منزلتهم العلمية نتابع ما ورد في الخبر عن الإمام الباقر والصادق عليهما السلام أنّهما قالا: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «علمتُ علم المنايا والبلايا والأنساب وفصل الخطاب، فلم يفتني ما سبقني، ولم يعزب عنّي ما غاب عنّي»[١].

ولا تقتصر هذه المنزلة علىٰ علي عليه السلام، بل هي لجميع الأئمّة عليهم السلام، فقد قال الإمام الرضا عليه السلام: «عندنا علم البلايا والمنايا وأنساب العرب ومولد الإسلام»[٢].

الذهول والدهشة!!

لعلّ مثل هذه الكلمات أثارت اضطراب البعض وجعلته يشعر بالدهشة والذهول، ولا غرو ولا عجب!

إنّنا نرىٰ العجائب في العالم ونشاهد الغرائب، إلّا أنّنا نمرّ مرّ الكِرام، فنرىٰ المرتاضين الذين جعلهم الارتياض يصيبون في بعض ما يتكهّنون ومن خلف الحجب والكواليس يتحدّثون، أو نلتقي بعض الأفراد الورعين الذين يتحدّثون أحياناً عن أسرار حياتنا فلا نتعجّب ممّا يقولون. فقد فتحت بعض نوافذ العلم بوجه تلك الطائفة من المرتاضين إثر رياضتهم ولو كانت بالباطل. وهذه الطائفة من العارفين السالكين حصلوا على ذلك إثر اتّباعهم الحقّ وهجرهم الشهوات، في

(١) الكافي ١: ١٩٧ ـ ١٩٨ باب أنّ الأئمة عليهم السلام هم أركان الأرض ح ٢ و ٣.

(٢) الكافي ١: ٢٢٣ باب أنّ الأئمة عليهم السلام ورثوا علم النبيّ... ح ١.

حين تتلمذ الأئـمّة الأطهار عليهم السلام في مدرسة الرسـالة، وقـد نـالوا الإخـلاص في العبودية بدعوة إبراهيم عليه السلام، ثمّ جدّوا في الورع والتقوىٰ والتسليم والرضا والجهاد في الحقّ وطهارة المولد، حتّى حظوا بعناية واهب العلم والعقل والنور، فهم تلامذة الوحي ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة.

أفمن العجب أن تكون للأئمة مثل تلك الرؤية والبصيرة بحـيث يـرون جمـيع الأشياء ويحيطون بكافّة أسرار القـرآن ومكـنونات الخـلقة ومـصير المسـلمين؟ فإن كان القرآن صرّح بأنّهم شُهداء علىٰ الناس، فمن الطـبيعي أن يـفيض عـليهم الرحمن بحارالعلم ومحيطات الحلم ويزوّدهم بـالبصر والبـصيرة، بحـيث لا يخـفىٰ عليهم شيء.

لقد ذهل عبدالله بن أبان الزيّات ـ الذي يتمتّع بمكـانة خـاصّة عـند الإمـام الرضا عليه السلام ـ حين قال له الإمام عليه السلام: «والله إنّ أعمالكم لتُـعرض عـليّ في كـلّ يـوم وليلة»[1].

فلمّا أحسّ الإمام عليه السلام منه ذلك قال له: ألم تقرأ الآية ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[2]. وهنا التفت ابن الزيّات ليدرك القيمة الحـقيقية للإمام، وأن ليس هناك ما يدعو إلىٰ الدهشة والعجب في أن يفيض الله علىٰ عـالم الوجود بمثل هؤلاء العِباد فيلبسهم من حلل الكرامة والعلم، والقرآن يقود إلىٰ هذه الحقيقة. وقد ورد عن أمير المؤمنين، وعلي بن الحسين زين العابدين، وجعفر بن محمّد الصادق عليهم السلام، أنّهم قالوا: نحن شجرة النبوّة، وبيت الرحمة، ومفاتيح الحكمة، ومعدن العلم، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، وموضع سرّ الله[3].

---

(١) الكافي ١: ٢١٩ باب عرض الأعمال علىٰ النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام ح ٤.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٠٥.

(٣) الكافي ١: ٢٢١ باب أنّ الأئمة عليهم السلام معدن العلم وشجرة النبوّة ح ١ ـ ٣.

لقد شاء الله هٰذا البيت أن يرتفع، فقد رفع إبراهيم بيت الله فسأله أن يرفع مقابل ذلك بيته بأن يُظهر تلك الصفوة التي تعيش التسليم والانقياد والطاعة والعبودية لله، وقد استجاب الله دعوته. وقد قال القرآن بهذا الشأن: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ* رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾[١].

وقال الصادقؑ: «إنّ الله لا يجعل حجّة في أرضه يُسأل عن شيء فيقول: لا أدري»[٢].

خلاصة هذا الفصل:

١ ـ اعترف ابن أبي الحديد بعلم أمير المؤمنينؑ بحوادث المستقبل حتّى قال: «ولقد امتحنّا إخباره فوجدناها موافقة، فاستدللنا بذلك علىٰ صدق الدعوىٰ المذكورة»[٣].

٢ ـ تبيّن من مجموع الآيات والروايات أنّ للأئمةؑ شخصية بارزة في العِلم لدرجة الإحاطة بالغيب والحوادث إلىٰ جانب التبحّر في علم الكتاب وأسرار الدين، بحيث إنّ الله جعلهم شهوداً علىٰ أعمال الناس بنصّ القرآن، ولم يصطفيهم الله إلّا لإخلاصهم وتسليمهم وعبوديتهم له سبحانه، وهم عيبة علم الله ونوره، الأمر الذي برّأهم من كلّ عيب ونقص وجهل، وهذا ما جعلهم يلهمون العلم بكافّة الحوادث وخفايا الخليقة والإحاطة بما كان ويكون، كما وقفنا علىٰ حديث الإمام الرضاؑ حين قال: إنّ أعمال الناس تُعرض عليّ في اليوم والليلة،

(١) سورة النور: الآيتان ٣٦ـ٣٧.

(٢) الكافي ١: ٢٢٧ باب أنّ الأئمةؑ عندهم جميع الكُتب ح١.

(٣) تقدّم في ص ١٦٥.

مستدلاً بجوابه لابن الزيّات بالآية الشريفة: ﴿وَقُلِ اعمَلُوا فَسَيَرَى اللَّـهُ عَـمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

ثمرة هذه الخلاصة :

ليست هنالك من ثمرة لهذه الخـلاصة سـوىٰ أنّ الأئـمّة الأطـهار عليهم السلام إنّما ينظرون بنور خاص إلىٰ العالم وبصيرة ثـاقبة بـالغيب وخـبرة بمتطلّبات الأُمّـة الإسلامية والمسلمين إلىٰ الأبد. ولعلّ هـذه الأُمـور قـد تـبادرت إلىٰ أصـحاب الأئـمّة عليهم السلام ليؤمنوا بأنّ أئـمّة الإسلام عالمون بالغيب، ويسرّنا هنا أن نسـتشهد علىٰ ذلك بشاهد حيّ لترىٰ كيف يفصح الإمام عن وقوفه علىٰ علم الغيب في الوقت الذي ينفيه عن نفسه.

رواية عميقة :

وردت هذه الرواية في أُصول الكافي في باب «نادر فـيه ذكـر الغـيب» عـن سدير، قد يبدو تردّد البعض في سندها، إلّا أنّ متنها يشهد بصحّة صدورها، فقد قال: كنت أنا وأبو بصير ويحيىٰ البزّاز وداود بن كثير في مجلس أبي عبدالله عليه السلام، إذ خرج إلينا وهو مغضب، فلمّا أخذ مجلسه قال: «يا عجباً لأقوام يزعمون أنّا نـعلم الغيب، لا يعلم الغيب إلّا الله عزّوجل، لقد هممتُ بضرب جاريتي فلانة فـهربت منّي، فما علمت في أيّ بيوت الدار هي.

قال سدير: فلمّا أن قام من مجلسه وصار في منزله دخـلت أنـا وأبـو بـصير وميسّر وقلنا له: جعلنا فداك سمعناك وأنت تقول كذا وكذا في أمر جاريتك ونحن نعلم أنّك تعلم علماً كثيراً ولا ننسبك إلىٰ علم الغيب؟

قال: فقال: يا سدير ألم تقرأ القرآن؟ قلت: بلىٰ، قال: فهل وجدت فيما قـرأت

من كتاب الله عزّوجلّ: ﴿قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾(١)، قال: قلت: جعلت فداك قد قرأته، قال: فهل عرفت الرجل، وهل علمت ما كان عنده من علم الكتاب؟ قال: قلت: أخبرني به، قال: قدر قطرة من الماء في البحر الأخضر، فما يكون ذلك من علم الكتاب؟ قال: قلت: جعلت فداك ما أقلّ هذا.

فقال: يا سدير ما أكثر هذا أن ينسبه الله ـ عزّوجلّ ـ إلى العلم أُخبرك به، يا سدير فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله عزّوجل أيضاً ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾، قال: قلت: قد قرأته جعلت فداك، قال: أفمن عنده علم الكتاب كلّه أفهم، أَم من عنده علم الكتاب بعضه؟ قلت: لا، بل من عنده علم الكتاب كلّه. قال: فأومأ بيده إلىٰ صدره وقال: علم الكتاب والله كلّه عندنا، علم الكتاب والله كلّه عندنا»(٢).

سدير: هو سدير بن حكيم المُكنّىٰ بأبي الفضل من أصحاب الإمام السجّاد والباقر والصادق عليهم السلام، وقد اعتبرته كتب الرجال ثقة(٣)، وكانت له منزلة عند الإمام عليه السلام. وقد حُبس فدعا له الإمام عليه السلام فخرج من السجن ببركة الدعاء(٤).

داود بن كثير: هو ابن خالد الرقّي، ومن ثقات الأصحاب(٥)، وقد قال الصادق عليه السلام: «أنزلوا داود الرقّي منّي منزلة المقداد من رسول الله صلى الله عليه وآله»(٦) وعدّه الشيخ المفيد في إرشاده من ثقات أصحاب الإمام الكاظم عليه السلام، وقال: هو من خاصّته

---

(١) سورة النمل، الآية: ٤٠.

(٢) الكافي ١: ٢٥٧ باب نادر فيه ذكر الغيب ح٣.

(٣) معجم رجال الحديث: ٨ / ٣٤ـ٣٧.

(٤) اختيار معرفة الرجال، المعروف بـ«رجال الكشي»: ٢١٠ رقم ٣٧٢.

(٥) معجم رجال الحديث: ٧ / ١٢٣.

(٦) مشيخة الفقيه، طريقه إلى داود الرقي، الاختصاص: ٢١٦.

وأهل الورع والعلم والفقه من شيعته [١].

أبو بصير: هو ليث بن البُختري المرادي المُكنّىٰ بأبي بصير، وهو ممّن لا نقاش في وثاقته، وهو من أصحاب الإمام الباقر والصادق والكاظم عليهم السلام، فإنّه وإن طعن فيه علماء الرجال باجتهاداتهم إلّا أنّه في جلالة قدره رواية ذكرها محمّد بن قولويه القمي بسند معتبر عن أبي عبدالله عليه السلام، أنّ الصادق عليه السلام قال: «إنّ أصحاب أبي كانوا زيناً أحياءً وأمواتاً، أعني زرارة ومحمّدبن مسلم، ومنهم ليث المرادي وبريد العجلي، هؤلاء القوّامون بالقسط، هؤلاء القوّامون بالقسط، هؤلاء السابقون السابقون أولئك المقربون[٢].

كان هؤلاء ثلاثة نفر ممّن حضر مجلس الإمام. أمّا الرابع وهو يحيىٰ البزّاز فلم نعرفه، و يحتمل أن يكون الخزّاز، وهو من أصحاب الصادق و الكاظم عليهما السلام [٣].

فهؤلاء الرجال الذين حضروا مجلس الإمام الصادق عليه السلام هُم من كِبار الفُقهاء والعُلماء، وقد قارن الإمام منزلة داود بن كثير بمنزلة المقداد لدىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله، والحال أنّ المقداد من كِبار صحابة النبي صلى الله عليه وآله. وهم ممّن وقف علىٰ منزلة الإمام والإذعان له بعلم الغيب، وهذا ما يفيده صدر الرواية.

شرح الرواية:

لقد تحاشىٰ الإمام عليه السلام في بداية الرواية علمه بالغيب، وقد تنزّل عن مكانته بحيث صعب عليه العثور علىٰ الجارية في إحدىٰ غُرف الدار. ونعلم أنّ دار الإمام عليه السلام لم تكن من قَبيل ناطحات السحاب أو قصر الكرملن، بحيث إذا اختفىٰ

---

(١) الإرشاد للمفيد: ٢ / ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

(٢) اختيار معرفة الرجال المعروف بـ«رجال الكشي»: ١٧٠ رقم ٢٨٧ و ص ٢٣٩ رقم ٤٣٣.

(٣) رجال الشيخ الطوسي: ٣٢٢ رقم ٤٨٠٧، معجم رجال الحديث: ٢٠ / ٩٩ رقم ١٣٦١٤.

فيه فرد تعذّر حتّى علىٰ جهاز المباحث العثور عليه ، فقد كانت داراً مُتواضعة لا تضمّ إلّا عدّة غُرف . وكيف لا يقف الإمام علىٰ مكانها إذا ما بحث عنها؟!

إذن ، فالعثور عليها علىٰ ضوء المجاري الطبيعية لم يكن قضية صعبة ، إلّا أنّ الإمام يعرب عن عجزه عن العثور عليها ، فالقضية طبق الظواهر لا تبدو مقبولة ، وهذا هو الأمر الذي أذهل خواص الأصحاب .

أمّا ذيل الرواية ، فقد كان دليلاً قاطعاً علىٰ قدرة الإمام اللامتناهية ، فقد قال: إنّ آصف بن برخيا قد أتىٰ سليمانَ بعرش بلقيس بتلك المسافة في طرفة عين ولم يؤت من العلم إلّا قطرة من بحر ، فهو عالم ببعض الكتاب ، أو ليس لمن أوتي علم الكتاب كلّه أن يعثر علىٰ تلك الجارية التي لا تبعد عنه سوىٰ بضعة أمتار؟ قطعاً هنالك مصلحة جعلت الإمام يصدّر الرواية بذلك العجز عن العثور علىٰ الجارية ، وأنّى لداود أن يصدّق عجز الإمامعليه السلام عن العثور علىٰ الجارية ؛ وهو الذي وصل ابن عمّه في المدينة بذلك البعد الشاسع عن الإمامعليه السلام وقد أحسن إليه خفية ، فلمّا حضر استقبله الإمام وأشاد بعمله![1]

وكيف يصدّق أبو بصير عدم استطاعة الإمام العثور علىٰ تلك الجارية وقد بشّره حين دخوله الكوفة بولادة ابنه عيسىٰ ، وأنّ الله سيرزقه ولدين وبنتين غيره[2]!

أجل هذه الشواهد وما شابهها تؤكّد وجود بعض العلل والدوافع التي جعلت الإمامعليه السلام ينفي عن نفسه في صدر الرواية العلم بالغيب ، ويكفي ذيل الرواية شاهداً علىٰ ما نقول في دحض صدرها . وعليه فلابدّ من تحرّي الدوافع .

---

(١) بصائر الدرجات: ٤٢٩ ح ٣ أمالي الطوسي: ٣ / ٤ ح ٩٢٩، الخرائج والجرائح: ٢ / ٦١٢ ح ٨ مناقب آل أبي طالب عليه السلام لابن شهر آشوب: ٤ / ٢٢٧، وسائل الشيعة: ١٦ / ١١١، كتاب الجهاد، أبواب جهاد النفس ب ١٠١ ح ١٥.

(٢) دلائل الإمامة: ٢٦٣ ح ١٩٣، الخرائج والجرائح: ٢ / ٦٣٦ ح ٣٧، كشف الغمّة: ٢ / ١٩٠، المحجّة البيضاء: ٤ / ٢٦١.

دوافع نفي الإمام علمه بالغيب

الدافع الأوّل :

إنّ أهمّ دافع جعل الإمام عليه السلام يسلب عن نفسه العلم بالغيب، هو الظرف الخاصّ الذي عاشه الإمام في ذلك الزمان والذي شهد تفتّح آفاق العلم، لينهمك الإمام في بيان أحكام الإسلام وحقائق القرآن ونشر العلم وتفادي كلّ ما من شأنه أن يحول دون القيام بهذه الوظائف.

كان خليفة زمانه الطاغية السفّاح المنصور الدوانيقي الذي كان يتحيّن الفُرَص لقتل الإمام وإزالة هذه العقبة عن طريقه. كان الإمام شديد الحرص علىٰ عدم إثارة مثل هذه المواضيع التي تؤلّب ذلك الجبّار الغاشم من أجل تصفيته والقضاء عليه، الأمر الذي يعني الحيلولة دون نشر معارف الدين والأحكام. فلو قال الإمام: أنا عالم بالغيب جدير بالإمامة والخلافة، لكان ذلك كافياً لسلّ المنصور سيفه وقتله، وعليه فلا ينبغي أن يشيع هذا الأمر بين الأوساط الاجتماعيّة، ويكفي أن يعلم ذلك بعض خواصّه وحملة أسراره، وسوف لن تستطيع الغربان أن تحجب الشمس إلىٰ الأبد، فلابدّ للّيل أن ينجلي ولابدّ للطوق أن ينكسر. ولنعد ثانية إلىٰ مجلس الإمام:

لقد اجتمعت أُمّة عظيمة في مجلس الإمام عليه السلام، وكلام الإمام يفيد أنّ علمه بالغيب قد شاع في المدينة، وأنّ الألسن تتناقل علم الإمام بالغيب، وقطعاً كان الأمر قد بلغ المنصور. فما أحسن هذه الفرصة التي تجعل الإمام يتصدّىٰ للدفاع عن نفسه فيستدلّ بمثل بسيط يقنعهم بعدم علمه بالغيب، ولم يكن هنالك أعمق من ذلك المثال الذي اعتمده الإمام للقضاء علىٰ تلك الشائعة. أنّى للإمام العلم بالغيب وهو الذي عجز عن العثور علىٰ جارية في غرفة من غرف داره؟!

لاشكّ أنّ ذلك الكلام سيؤثّر كثيراً ويؤتي أُكله، كما لاشكّ أنّ جلاوزة المنصور ـ الذين لم ينفكّوا عن تفتيش دار الإمام ـ سينقلون كلامه إلىٰ المنصور

وسيسكن روعه وتهدأ فورته، ثمّ يتاح المجال من جديد أمـام الإمـام لمـواصـلة دروسه ونشر علمه.

وبناءً علىٰ ما تقدّم فلم يبق لصدور تلك الرواية من محملٍ سوى التقيّة، ولكن لم يبق لدىٰ الإمام سوىٰ الخواصّ من أصحابه وهم ليسوا بـالمذايـيع، فـلم يـعد للخوف من سبيل، فأبو بصير وصحبه ليسوا من أعوان المنصور، بل هم من حملة العلم ورواة الحديث وفقهاء الإسلام، والتحدّث إليهم وظيفة شرعية تأريخـية لا تدع للتقيّة من شأن، فيعمد الإمام هنا إلىٰ إظهار مكنون عـلمه والإفـصاح عـن مقامه علىٰ ضوء القرآن، فحقيقة علمه لا يعزب عنها صغير ولا كبير في هذا العالم فضلاً عن مكان تلك الجارية. وهو لا يستطيع الإتيان بتلك الجارية بحركة فحسب بل يسخّر العالم بأسره، ما نفهمه من كلمات الإمام عليه السلام أنّه مطّلع علىٰ كافّة أصناف العلم، وكيف لآصف بن برخيا الذي تجرّع قطرة من بحر علم الكتاب أن يفعل ما فعل، ويغيب عن علم الإمام شيء وهو الذي يعوم في بحر علوم الكتاب ومحيطاته؟

وعلىٰ ضوء هذا التحقيق والتأمّل في هذه الرواية التي تـصرّح بـعلم الإمـام بكافّة الحوادث وتمتّعه بالقوّة والقدرة التامّة علىٰ فعل الأفاعيل، فهل هنالك مـن ماء عكر يمهّد السبيل أمام بعض السذّج ممّن تأثروا بالوهابية للاصطياد فيه؟ وهل يسع أحد أن يقول لنا بعد ذلك: إنّكم من المـغالين في شخصية الإمام؟ فهذا الإمام وقد عجز عن العثور علىٰ جاريته!

الدافع الثاني:

أمّا الدافع الثاني الذي أغضب الإمام وجعله ينفي عنه علم الغيب فهو قضية الإفراط أو التفريط والغلوّ أو الإنكار، التي سـيطرت عـلىٰ أغـلب الأفـراد تجـاه الإمام، وهذا ما يتوصّل إليه بسهولة من سياق الرواية، في أنّ البعض قـد أفـرط

بالاعتقاد بعلم الإمام للغيب حتّى رآه أفضل من النبي صلى الله عليه وآله وبلغوا به حدّ الأُلوهية، علىٰ الرغم من أنّ محور الإمامة كان يهدف إلىٰ تحقيق التوحيد وإيصال الأُمّـة إلىٰ العبودية الحقّة، فالإمام بمثّل العبودية الخالصة لله، وجلّ سعيه هو ربط الأُمّة بمعبودها الأوحد وتطهيرها ممّا علق بها من الأوهام والخرافات، وإلّا فلو قدر للأُمّة أن تضلّ طريقها في تعاملها مع الإمام فإنّ جهوده ستذهب أدراج الرياح، وهو الأمر الذي يأخذ مأخذه من الإمام ويجعل الغضب والتوتّر يسيطر علىٰ جميع كيانه، فيبدو أنّ دافع الإمام من نفيه لعلم الغيب عن نفسه وحصره بالقادر العليم، إنّما يهدف إلىٰ تثبيت الهدف المقدّس المُتبلور في التوحيد وإزالة الأفكار المنحرفة تجاه شخصية الإمام.

ولم يكن هناك من سبيل أمام الإمام سوىٰ التنازل عن واقعه ليعلم الجميع بأنّ الإمام الصادق عليه السلام إنسان كسائر الناس الذين نشأوا وترعرعوا في المدينة، فهو ليس بملك هبط من السماء أو عيسىٰ عليه السلام الذي حلّ فيه روح القدس ليصبح ابن الله!!!

وقد اعتمد الإمام الأسلوب العلمي في سبيل تهذيب أفكار الأُمّة، فينفي عن نفسه العلم بالغيب ويقتصر بهذا الأمر علىٰ الله تبارك وتعالىٰ. والأمر ليس ببدعة فهو يقتدي بالأُسلوب الذي نهجه القرآن، الذي يقتصر علم الغيب بذات الله تعالى، بينما يتوصّل إليه النبي صلى الله عليه وآله من خلال الوحي، والإمام من خلال تعليم الرسول له إلىٰ جانب الإلهامات الربانيّة والفيوضات الرحمانية التي توصله إليه.

ولا يستبعد أن يكون الإمام قد استهلّ كلماته بنفي علم الغيب الذاتي تقيّة، في حين أوكل الحديث عن علمه بالغيب العرضي إلىٰ مجلسه الذي يضمّ خواصّه وحملة أسراره، فقد كشف لهم النقاب عن مدىٰ علمه وقدرته، ثمّ يسند ذلك لعلمه بالكتاب، ومن المفروغ منه أنّ العلم بالكتاب لا يتسنّى دون المعلّم.

وبناءً علىٰ هذا التعليم والتعلّم من مصادر الغيب قد بلغ الإمام تلك الذروة من السموّ والكمال، وعليه فليس هنالك من تناقض بين صدر الرواية وذيلها.

روايتان:

١ ـ قال جابر: قال الإمام الباقر عليه السلام: ما يستطيع أحد أن يدّعي أنّ عنده جميع القرآن كلّه ظاهره وباطنه غير الأوصياء[١].

٢ ـ قال عبدالأعلىٰ مولى آل سام: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «والله إنّي لأعلم كتاب الله من أوّله إلىٰ آخره، كأنّه في كفّي، فيه خبر السماء وخبر الأرض وخبر ما كان وخبر ما هو كائن. قال الله عزّوجل: «فيه تبيان كلّ شيء[٢]»[٣].

ملاحظة:

لا ينبغي أن يتبادر إلىٰ الذهن بأنّ القرآن المتداول غير ذلك القرآن الذي كان آنذاك بيد الأئمّة عليهم السلام، وأنّ الروايات تؤيّد مسألة التحريف، بل المقصود هذا القرآن مع كافّة التفسيرات والتأويلات والأسرار والمكنونات، وقد كان ذلك القرآن الذي بيد أمير المؤمنين عليه السلام، فالروايتان تُشيران إلىٰ مطلبين، هما:

١ ـ معنى أنّ علم الكتاب عند الأئمّة، هو أنّ الأئمّة عليهم السلام محيطون بالكتاب السماوي بجميع ما ينطوي عليه من حقائق وتأويل وتفسير.

٢ ـ ما تتناقله الألسن وتؤيّده الروايات من أنّ الإمام عالم بما كان وما يكون،

---

(١) الكافي ١: ٢٢٨ ح ٢.

(٢) اقتباس من سورة النحل: الآية: ٨٩.

(٣) الكافي ١: ٢٢٩ ح ٤.

إنّما يعني أنّ الكتاب الذي يعتمده الأئـمّة عليهم السلام ينطوي علىٰ كافّة الحوادث الماضية والآتية وجميع الحقائق، وأنّ علم الأئـمّة إنّما يستند في بعض عناصره إلىٰ الإحاطة بهذا القرآن المفصّل.

تكرار وتذكير :

لقد تعرّفنا من خلال الأبحاث التي أوردناها في الروايات والآيات علىٰ علم الإمام عليه السلام، ولعلّ تكرار الدليل ـ بصفته فهرسة للأُمور المذكورة سابقاً ـ يمكـنه أن يوضّح الجوانب العلمية للإمام بصورة أفضل. وإليك هذه الأدلّة:

الدليل الأوّل :

الدليـــل الأوّل عــلىٰ عــلم الإمـام وإحـاطته بـالمغيّبات هـو أنّ الزعـيم الإسلامي ـ الإمام ـ هو الفرد الذي يستند إلىٰ الغيب في زعامته، فلابدّ أن تكـون هناك صلة مباشرة له بمكنونات العالم وخفاياه وإفاضة الحقائق عليه، فـإن كـان الزعيم هو النبيّ فالإفاضة بواسطة الوحي، وإن كان الزعيم هو الإمام فبتعليم النبي أو الطرق الأُخرىٰ كالإلهام والعلم بتفصيلات الكتاب السماوي، والذي سيأتي بيانه قريباً. ويمكن الاستشهاد ببعض الآيات لإثبات هذا الأمر:

١ ـ ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾(١).

٢ ـ ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾(٢).

٣ ـ ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾(٣).

---

(١) سورة النساء: الآية ١٠٥.

(٢) سورة يوسف: الآية ١٠١.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٥١.

٤ ـ ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَوٰةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[١].

لقد أفادت هذه الآيات أنّ الزعيم هو صاحب الملك المصطفىٰ من الله والذي يحظىٰ بعنايته الخاصّة وإرشاده وتوجيهه من أجل الإحاطة والعلم بالمغيّبات، وحيث ثبت في محلّه أنّ الأئمّة الأطهار عليهم السلام هم زُعماء الأُمّة إلىٰ الأبد، فلابدّ من الإذعان بأنّهم مشمولون بلطف الله وفضله؛ ليتمكّنوا بزعامتهم من الأخذ بيد الناس إلىٰ السعادة والفلاح، ويزيلوا بقدرتهم العلمية ما يعترض سبيلهم من مشاكل وصعوبات وأزمات.

الدليل الثاني:

دلّ القرآن الكريم على أنّ زعماء الدين المنصّبون يسلكون الصراط المستقيم ويهدون إليه ﴿أَفَمَنْ يَهدِي...﴾ وأنّهم يهدون إلىٰ الواقع الذي لا يتسلّل إليه الخطأ والزلل، وأنّ استهلال الآية الكريمة بالاستفهام هو تقرير واضح بأنّ هداية هؤلاء الزعماء مطابقة للواقع وتامّة كاملة لا يشوبها الخطأ، واستنتجنا أنّ من لوازم الهداية الواقعية الصائبة استناد الزعماء إلىٰ العلم الغيبي والإحاطة بالحوادث الخفيّة المحجوبة عن أنظار الناس، وعليه: فالأئمّة الأطهار زعماء كِرام من وجهة نظر القرآن، والصواب ما يقولونه وليس للخطأ من سبيل إلىٰ زعامتهم، ولمّا كانت زعامتهم أبديّة فإنّهم مطّلعون علىٰ جميع الأحداث إلىٰ الأبد.

وعلىٰ ضوء ذلك بحثنا رواية الإمام الباقر عليه السلام ـ التي قال فيها: «الإمام يسمع الصوت ولا يرىٰ ولا يعاين الملك»[٢] ـ التي تفيد استناد الإمام إلىٰ الغيب في زعامته.

(١) سورة الأنبياء: الآية ٧٣.

(٢) تقدمت في ص ١٦٧.

الدليل الثالث :

ويدور حول محور الاستنباط القرآني أيضاً ، حيث يفيد القرآن وجود صفوة مجتباة من الناس تتمتّع برؤية وبصيرة ثاقبة لآفاق العلم ، وأنّ الله قد أفاض عليهم من فضله ورحمته ما نوّر به قلوبهم ، بحيث خرقوا الحُجب وأحاطوا بجميع الأحداث والأسرار .

وكانت أهمّ آية طالعتنا في هذا الفصل هي الآية الأخيرة من سورة الحجّ ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَىٰ النَّاسِ﴾[1] فقد كانت هذه الآية إلىٰ جانب القرائن الثلاث القطعية صريحة في أنّ المُخاطب بها صفوة من أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله أبناء إبراهيم الأئـمّة الأطهار عليهم السلام وقد مرّ شرح ذلك . فالآية تفيد إبلاغ الوحي للنبي بآفاق الغيب ، وهو ينقلها بدوره إلىٰ الأئـمّة بما لا يدع مجالاً للشكّ بعلمهم بأعمال الخلائق والإدلاء بالشهادة عليهم في محكمة العدل الإلهي .

وقد تعرّضنا[2] لرواية الإمام الباقر عليه السلام التي تناولت الآية الشريفة ، والرواية سالمة السند ولا بأس بذكر رجالها: علي بن إبراهيم ، عن أبيه ، عن محمّد بن أبي عُمير ، عن ابن أذينة ، عن بريد العجلي قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام ... فالرواية موثوقة السند والرواة من الثقات ، ونوكل الخوض في التفاصيل ـ الخارجة عن بحث الكتاب ـ إلىٰ أُصول الكافي باب «إنّ الأئـمّة شُهداء علىٰ خلقه» .

فقد جاء في الرواية: قلت قوله تعالىٰ: ﴿وَجَاهِدُوا فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾، قال: إيّانا عنى ونحن المجتبون ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ إيّانا عنى خاصّة و ﴿سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ الله سمّانا المسلمين ﴿مِن قَبْلُ﴾ في الكتب التي مضت ﴿وَفِى هَذَا﴾

---

(١) سورة الحجّ، الآية: ٧٨.

(٢) في ص ١٦٨.

القرآن ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[١] فرسول الله ﷺ الشهيد علينا بما بلّغنا عن الله تبارك وتعالىٰ، ونحن الشُهداء علىٰ الناس، فمن صدّق يوم القيامة صدّقناه، ومن كذّب كذّبناه[٢].

فالأئمة عليهم السلام علىٰ رؤية واسعة وبصيرة ثاقبة بحيث لا تخفىٰ عليهم خافية من أعمال الناس، وما هذه إلّا عناية ورحمة إلهية.

واستناداً لما تقدّم يمكن الجزم بأنّ الأئمّة عليهم السلام عالمون بالغيب، محيطون بخفايا الحوادث، بصيرون بشؤون الأُمّة، وهذا ما يستشفّ بوضوح من دلالة الآية ولا سيّما من خلال تأييدها بقول الإمام.

أمّا الآية الأُخرىٰ التي تدلّ علىٰ أنّ هذه الصفوة مشمولة بلطف الله وعنايته فهي: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾[٣].

لقد مررنا سابقاً مرور الكِرام علىٰ هذه الآية، وهي تكشف بعمق عن مدىٰ عظمة الإمام، بحيث خشينا من كثرة الاستعراض فيها أن نكون في زمرة «فمنهم ظالم لنفسه».

دراسة الآية :

سبقت هذه الآية بقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ * ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[٤]. نفهم من الآية أنّ المُراد بالكتاب هو «القرآن»؛ لأنّ

(١) سورة الحجّ: الآية ٧٨.

(٢) الكافي ١: ١٩١ ح ٤.

(٣) سورة فاطر: الآية ٣٢.

(٤) سورة فاطر: الآيتان ٣١ ـ ٣٢.

الخطاب للنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله والكتاب الذي أوحي إليه هو القرآن، ثمّ شرعت الآية الثانية بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾، فالكتاب هو القرآن، والتعريف إشارة إلىٰ ذلك الكتاب العزيز، ثمّ حرف عطف يفيد التراخي وظهور الثاني بعد الأوّل، فالمعنىٰ ثمّ أودعنا القرآن تلك الطائفة المصطفاة من العباد، وبناءً علىٰ هذا فإنّ وارثي الكتاب وحافظي الوحي السماوي هم صفوة مختارة من عباد الله.

عباد، أم صفوة مصطفاة من العباد؟

هل أودع الكتاب صفوة مصطفاة من العباد، أم كافّة العباد؟ بعبارة أُخرىٰ: هل الكتاب إرث عامّ تتولىٰ جميع الأُمّة مسؤولية حفظه وتطبيق تعاليمه وأحكامه فهو وديعة عامّة، أم تقتصر هذه الوظيفة والمسؤولية علىٰ صفوة خاصّة مصطفاة من بين خلّص العِباد؟ ما الذي نفهمه من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾؟ لا نشكّ أنّ هذه الوظيفة الخطيرة إنّما ينهض بها المصطفون؛ لأنّ الآية تفيد نقل الكتاب إلىٰ نخبة من العباد لا جميعهم.

مَنْ هُم المصطفون من العباد؟

ذكرنا سابقاً أنّ ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ هم صفوة مختارة من بين العباد لإخلاصهم وتسليمهم وعبوديتهم المحضة لله وخلوّهم من كلّ عيب ونقص، وقلنا في حينه: إنّ هذه الصفوة هم الأئـمّة الأطهار عليهم السلام. ولا يسعنا إلّا أن نذكر دليلاً واضحاً في إثبات هذا الأمر بغية طمأنة الآخرين.

الدليل الدامغ:

تبيّن ممّا أوردناه بشأن الآية ٣٢ و٣٣ من سورة آل عمران ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ

﴿آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ أنّ الذي يكون علىٰ رأس سلسلة آل إبراهيم في آخر الزمان من التأريخ البشري هو الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ومن بعده الأئمّة الأطهار عليهم السلام، فالآية كاشفة عن الصفوة المختارة «المصطَفين» ولابدّ من القول علىٰ ضوء هذا المصداق: ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ أنّها لا تعني سوىٰ أئمّة الدين، وأنّ هذه الآية هي المفسّرة والحاكمة علمياً علىٰ الآية التي نحن بصددها، أي أنّها تفصح عن أنّ مصداق ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ هم الأئمّة الأطهار عليهم السلام. وهنا لابدّ من التأكيد علىٰ أنّها خاصّة في الأئمّة عليهم السلام فقط؛ لأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وإن كان من ذرّية آل إبراهيم، إلّا أنّ الآية ٣٠ قد حدّدت وضعه، والآية اللاحقة تعيّن الصفوة المختارة بعد النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله.

سؤال:

إذا كان الأئمّة الأطهار عليهم السلام هم ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فما مناسبة اختتام الآية بقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ أي أنّ بعض هؤلاء المصطفين ظلمة، فهل يظلم الأئمّة أنفسهم؟

جواب:

الضمير في «منهم» يعود إلىٰ العباد لا إلىٰ المصطفين، ويؤيّده كلام المحقّق الطوسي في تفسيره للآية في إطار إثباته لرجوع الضمير «منهم» إلىٰ العباد، حيث قال: «لأنّ من اصطفاه الله لا يكون ظالماً لنفسه»[1]، إذن فهل من الممكن فرض كون المصطفين ظالمين لأنفسهم؟[2].

---

(١) تفسير التبيان ٨: ٣٩٤.

(٢) قد تبدو كلمة «عبادنا» واسعة تشمل كافّة عباد الحق تعالىٰ، إلّا أنّ إضافة العباد إلىٰ ضمير الجمع «نا» تفيد ←

إذن، فالمقصود «بالعباد» جماعة أشمل وأوسع من أهل البيت، لا المصطفين من أهل البيت، ويؤيّد ذلك عدّة روايات.

وارث الكتاب الكريم:

أئمّة الدين هم وارثو الكتاب، وأئمّة الإسلام هم صفوة العباد، المبرّأون من كلّ عيب ونقص ودنس، الذين خصّهم الله بعنايته ولطفه، فأودعهم القرآن بأسراره ومكنوناته وخفيّاته، إلىٰ جانب تعليمهم من قبل ربيب الوحي النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، فهم يرون الحقائق كما يراها رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد أفاض عليهم نوره، فهو معلّم أمير المؤمنين عليه السلام الذي علّمه ألف باب من العلم، فكان عليه السلام هو الأُذن الواعية التي لا يعزب عنها شيء حتّى قال فيه: «إنّك تسمع ما أسمع وترىٰ ما أرىٰ، إلّا أنّك لست بنبيّ»[1].

← خصوصية معيّنة: «عبادنا»، فلا يستبعد القول بأنّها طائفة واسعة من أهل الرسالة والتي تستوعب «أهل البيت»، ومن ينكر ذلك فلا يسعه أن ينكر روايتين بل عدّة روايات بهذا الشأن. فمعنىٰ الآية بتفسير الأئمّة الأطهار عليهم السلام: أورثنا الكتاب صفوة من عبادنا من أهل البيت، إلّا أنّ أهل البيت علىٰ ثلاث طوائف: طائفة تظلم نفسها وهي التي تتجاهل نسبها وتقلّد نخبتها من هذه الطائفة، فهذه لا تكون من الأئمّة الأطهار، وطائفة معتدلة، وثالثة سابقة بالخيرات هادية في حركتها وهي تلك النخبة.

هذا هو المراد من الآية بالاستناد إلىٰ الأحاديث المُعتبرة، ولكن نظرة أُخرىٰ إلىٰ القرآن تفيد أنّ الآية الكريمة دراسة لجماعة واسعة باسم «عبادنا» وهم أهل البيت، وأنّ الكتاب ورّث فيهم، وهم علىٰ طائفتين: ١ـ النخبة ٢ـ سائر الطائفة، فالنخبة هُم الأئمّة الأطهار عليهم السلام، وجميع بني هاشم هم سائر الطائفة، فهم قد يظلمون أنفسهم ولكن ليس علىٰ الدوام والشاهد هو الآية اللاحقة **﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾**.

وعلىٰ فرض أنّ هذا الكلام خلاف ظاهر الآية وأنّ كلمة «عبادنا» تشمل جميع المسلمين، لكن مع هذا الفرض وهو أنّ «المصطفين من عبادنا» ليس سوىٰ أهل بيت الرسالة الأئمّة الأطهار عليهم السلام، وقد لاحظتم شرح ذلك، حيث كان الاستدلال مبتنياً علىٰ كلمة «المصطفَين من العباد» لا كلمة عبادنا.

(١) نهج البلاغة لمحمّد عبده: ٤٣٧.

الآية الأُخرىٰ التي كشفت عن علم الإمام بالغيب هي: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

كيف يعلم الجميع ؟!

كيف يعلم جميع المسلمين بسيرة المنافقين أو خفايا بعض الناس؟ الله عالم الغيب والشهادة والذي يكشف الأعمال ويريها من يقوم بها فيضعها نصب أعينهم، فالأعمال التي تصدر من الناس ـ وعلىٰ ضوء ذيل الآية ـ لابدّ أن تكون الأعمال والأفعال الخفيّة، إلّا أنّنا نعلم أنّه لا يمكن للجميع الإطّلاع علىٰ هذه الخفايا، وهنا لابدّ من القول بوجود عدّة معدودة من المؤمنين ـ مضافاً إلى الله ورسوله ـ تمتلك رؤية ثاقبة تجعلها تخترق الحُجب وتطّلع علىٰ الخفاء، فلابدّ أن نعرف من هي هذه العدّة المعدودة من المؤمنين؟

قال المحقّق الطوسي في تفسيره التبيان: هؤلاء هم الأئـمّة الأطهار عليهم السلام، وقد جاء في الخبر أنّ أعمال الأُمّة تعرض كلّ يوم اثنين وخميس علىٰ النبي صلى الله عليه وآله والأئـمّة عليهم السلام[2]، وهذا ما أشار إليه الإمام الرضا عليه السلام لابن الزيّات[3].

إذن، فالآية الكريمة ترىٰ للأئمة رؤية ثاقبة كالتي لرسول الله صلى الله عليه وآله والتي تمكّنهم من الإحاطة بالخفيات. وأدنىٰ تأمّل في صدر الآية وذيلها يقود إلىٰ أنّ تلك العدّة المعيّنة من المؤمنين عالمة بالغيب والشهادة أيضاً، فقد ورد لفظ الجلالة في أوّل الآية دون قيد ثمّ أردف بالرسول، وهؤلاء المؤمنين في طول لفظ الجلالة في الاطّلاع علىٰ

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٥.

(٢) تفسير التبيان: ٥/ ٢٩٥.

(٣) تقدّم في ص ١٧٣.

خفايا الناس، أمّا ذيل الآية فقد ورد لفظ الجلالة متّصفاً بعالم الغيب والشهادة، وهذا العالم هو الله الذي ذكر في صدر الآية، وعليه: فكما أنّ الله عالم الغيب فإنّ رسول الله وبعناية الحقّ سبحانه في طول هذه المزية الإلهية الذاتية ـ لأنّها وردت في طول الله في الآية ـ يتمتّع بإفاضة علم الغيب عليه، وليست هنالك من الأعمال مايخفى عليه، ثمّ كان المؤمنون في طول رسول الله صلى الله عليه وآله، الأئـمّة الأطهار الذين يطّلعون الخفاء بلطف الله فيقفون علىٰ أعمال العِباد، والله أعلم.

الشواهد الحيّة !!!

هل يمكن أن نحصر علم الأئـمّة في دائرة أحكام وتعاليم القرآن رغم هذه الشواهد الحيّة والدلالات القرآنية بعلمهم المطلق وإحاطتهم بالخفايا والأسرار، فلا نراهم أبعد شأناً من المجتهد الذي يستنبط الأحكام الشرعية من القرآن؟! أم لابدّ أن نذعن إلىٰ سعة علمهم وإحاطتهم بكافّة الحوادث؛ لأنّ الزمان والمكان ليس من شأنهما أن يكونا حجاباً يحول دون رؤيتهم لباطن الأمور، وهل يصعب علىٰ هؤلاء الزعماء الخالدين المطهّرين من الرجس والدنس والعلماء بالكتاب والشهداء علىٰ أعمال العباد وحفظة القرآن وأمناء الوحي، أن يتكهّنوا بالحوادث والوقائع التي تهدّد بالخطر كيان الإسلام والمسلمين؟ وهل كان الإمام الحسين عليه السلام المظلوم الذي هبّ للدفاع عن الرسالة غافلاً عمّا ستؤول إليه الأُمور في كربلاء، ولم يكن يمتلك رؤية واضحة لحركته وانطلاقته التأريخية من المدينة إلىٰ كربلاء! لا ننوي الإجابة علىٰ هذه الأسئلة ونترك ذلك للإخوة القرّاء الأعزّاء، ليتحفونا بجوابهم علىٰ ضوء ما واكبناه من أحداث سابقة.

طرق الأئمّة عليهم السلام في الحصول علىٰ العلم:

لقد اتّضح من الأبحاث السابقة أنّ الإمام عالم بالغيب، وأنّه يستمد علمه

الغيبي من خلال المدد الإلهي الذي يدعىٰ بالإفاضة الرحمانية ، كما اتّضح لدينا أيضاً أنّ الزعامة الدائمة الهادية إلىٰ الصراط المستقيم لا يمكنها أن تكون غير محيطة بالحوادث والوقائع التي يواجهها المسلمون والإسلام طيلة التأريخ ، وذلك لأنّها إذا كانت جاهلة بهذه الحوادث فإنّها ستشقّ عصا المسلمين وتفرّق صفوفهم وتعرّض الكيان الإسلامي للتصدّع والانهيار ، وتحيل القرآن الكريم ـ هذا الكتاب الذي يتضمّن سعادة الأُمم والشعوب علىٰ مرّ العصور ـ إلىٰ كتاب لا يبقىٰ منه سوىٰ شكله ورسمه ، بينما وعد الحقّ بخلود هذا الكتاب العزيز وأنّه محفوظ حتّى عن سقوط أحد حروفه ، فكيف يتعامل أئـمّة الدين وزعماء المسلمين مع الأحداث بما يقود إلىٰ تلك النتيجة المؤسفة! أو لا يتعرّض الإسلام إلىٰ الإبادة والزوال من قِبل الأعداء الذين يتربّصون به الدوائر ، والذين لا يرقبون في المسلمين إلاًّ ولا ذِمَّة؟

لاشكّ أنّ هذا السقوط والزوال حتمي وتصدّع القرآن قطعي لو لم يكن الأئـمّة الأطهار عليهم‌السلام عالمين بحوادث الدهر ، في حين قطع القرآن علىٰ نفسه قضية بقائه وديمومته ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[١] ، وبشّر من جانب آخر بانتصار حكومة العدل الإلهي التي ستنشر قيم العدل والفضيلة في كافّة أرجاء المعمورة ، فقال عزّ من قائل: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[٢].

وهنا يُطالعنا هذا السؤال: إذا كانت زعامة الأُمّة من قِبل هؤلاء الأئـمّة الذين لهم مثل هذا العلم والدراية وأنّهم يبلغون بالأُمّة كمالها المنشود ، فكيف يتّجه الإسلام نحو الضعف والأفول؟ وقد قال القرآن ﴿الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أو يدبّ الضعف في صفوف المسلمين في ظلّ زعامة أُولئك الأئـمّة؟ وناهيك عمّا

(١) سورة الحجر : الآية ٩ .

(٢) سورة القصص : الآية ٥ .

تقدّم؛ فإنّ الله هو الذي أنزل القرآن وتكفّل بحفظه، فهو لن يصبح كتاباً عادياً أبداً؟

ونقول في الجواب: إنّ الإسلام لا يتّجه إلىٰ الضعف والأُفول لو كان الأئـمّة الأطهار عليهم السلام هم الذين ينهضون بالأمر، فهم عالمون بصيرون، وهدايتهم ـ لو امتثلت ـ فسوف تؤدّي إلىٰ قوّة شوكة الإسلام والمسلمين، غير أنّ الخطّة التي رسمها القرآن الحكيم لم تطبّق، وانحطاط المسلمين كان نتيجة طبيعية لتنحية أولئك الزعماء، وهذا ما أرادت أن تُشير إليه الآية في أنّ هذا الضعف ناشئ عـن إقـصاء الأئـمّة، وأنّ الإسلام سيستعيد قوّته مستقبلاً، وهذا لا يتسنّىٰ إلّا في ظلّ حكومة أتقياء الدهر وعلىٰ رأسهم إمام العصر والزمـان ـ أرواحـنا وأرواح العـالمين له الفـداء ـ الذي سيبعث الحياة من جديد حين تكون السيادة في حكومته للقرآن وتعاليمه الحـقّة، ستكون الدنيا آنذاك متعطّشة لحكومة العدل القرآني، والتفاصيل في المجلّد الثاني.

أمير المؤمنين عليه السلام والآية الكريمة:

قال علي عليه السلام «لتعطفنّ الدنيا علينا بعد شماسها عطف الضروس علىٰ ولدها»، وتلا عقب ذلك ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ ...﴾[1].

لقد أبان الإمام بهذه العبارة منزلة الإمام، كما أفصح عن دافع ظهور حكومة العدل القرآني، في حين اتّضحت دلالة الآية في حلول اليوم الذي سيشهد حاكمية الإسلام بزعامة الإمام.

ما أشقىٰ الأُمّة حين ولّت ظهرها لهذه الصفوة وأبعدتهـا عن الزعامة! ولكـن سوف لن يكون بوسعها إقصاء مُعزّها الذي سيأخذ بيدها ويفيض عليها بـركات الدنيا والآخرة حين تعلن وفاءها ووقوفها إلىٰ جانبه.

نعم، انحطاط المسلمين كان معلولاً لعدم انصياعهم لزعامة أولياء الله من تلك

---

(١) نهج البلاغة لمحمد عبده: ٧٠٤ حكم ٢١٠.

الصفوة، لا إلىٰ عدم العلم بحوادث التأريخ. وكأنّ السائل أراد بالسؤال أن يشير إلىٰ علّة الضعف التي أفرزتها افتقار الزعامة لمقوّماتها وشرائطها.

وعوداً علىٰ بدء فقد اتّضح أيضاً أنّ الإمام بصفته الزعيم الأبدي، عالم بكافّة الوقائع والحقائق والأسرار والسير نحو الجمال والكمال.

وهنا لابدّ من الإذعان بأنّ بصيرتهم هي عين الواقع التي تأبىٰ الخطأ والانحراف، فقد شعّت أنوار قلوبهم بالله ﴿نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الذي لم يجعل للظلمة من سبيل إلىٰ قلوبهم، فقد طهرت حتّى لم تتمكّن هذه الحُجب من الوقوف بوجهها.

واتّضح أيضاً بأنّ الإمام طالما كان الحاكم الإسلامي والزعيم المطلق؛ فإنّ حكومته متقوّمة بالغيب الذي يشمل حتّى الحوادث الشخصية البسيطة، كما تبيّن أنّ الكتاب السماوي ـ القرآن ـ قد استودعه الله الأئمّة ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾.

وقد تكفّل القرآن ببيان أنّ المراد من هذا الإرث هو استنارة قلوب الأئمّة بنور القرآن: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[1]، وقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «وعندنا والله علم الكتاب كلّه»[2]. كما فهمنا أنّ آصف بن برخيا بنصّ الآية الكريمة قد أوتي بعض العلم بالكتاب، فانطوىٰ علىٰ تلك القدرة والقوّة العلمية، فما بالك بمن أُوتي العلم بالكتاب كلّه! في حين لا زال البعض يعيش القلق الفكري ويتساءل: هل يتجاوز علم الإمام حدّ استنباط آيات الأحكام؟

وأخيراً وقفنا علىٰ إحاطتهم بأعمال العباد، وأنّه لا يعزب عن علمهم مثقال ذرّة من تلك الأفعال، وأنّهم الشهداء علىٰ الناس يوم القيامة في محكمة العدل «فمن

(١) سورة الرعد: الآية ٤٣.

(٢) الكافي ١: ٢٢٩ باب أنّه لم يجمع القرآن كلّه إلّا الأئمّة، وأنّهم يعلمون علمه كلّه ح ٥.

صدّق صدّقناه يوم القيامة، ومن كذّب كذّبناه يوم القيامة»[١]، فإذا أنكر منكر عمله، نادوه: صه فقد كنّا مطّلعين علىٰ عملك، كما علمنا بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ربيب الوحي قد أفاض عليهم علومه مضافاً إلىٰ ما خصّهم الله به من عنايته وفضله وأفاض عليهم من لطفه ورحمته.

كانت هذه نماذج من علم الإمام، والقرآن هو الشاهد علىٰ هذه العلوم، ولنا الآن أن نلتمس سبل هذه العلوم دون اللجوء إلىٰ أقوال تلامذة الوحي، فما مصدر علم الإمام؟

المعلّم الأوّل :

لقد ذكرنا خلال الأبحاث السابقة أنّ النبيّ أو الإمام لا يدرك جميع الأشياء بنبوّته أو إمامته، بل هم لا يستغنون في كلّ آن عن الفيض الإلهي، فالنبوّة والإمامة لا تجعله بمجرّدها عالماً بكلّ شيء.

إذن، فهذا العلم الجمّ الذي يملكه الإمام لابدّ أن يكون قد تعلّمه في مدرسة، وقد مرّ علينا أنّ الإفاضة هي وسيلة الإمام في علمه، فالله هو الذي يفيض ويتلطّف بأئمة الدين زعماء المسلمين، وقد قلنا بأنّه يحكم بما يريه الله ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾[٢]، وأنّهم بعناية الله صفوة عابدة مخلصة عالمة بالكتاب ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا...﴾[٣]، وبيّنا أيضاً بأنّ يوسف كان مُنَصَّباً من قِبَل الله رغم نهوضه بأمر دون الزعامة العامّة، وأنّه معلَّم منه: ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾[٤].

---

(١) الكافي ١: ١٩٠ باب أنّ الأئمّة شهداء الله عزّوجلّ على خلقه ح ٢.

(٢) سورة النساء: الآية ١٠٥.

(٣) سورة فاطر: الآية ٣٢.

(٤) سورة يوسف: الآية ١٠١.

والذي نريد أن نخلص إليه هو أنّ المعلّم الأوّل للإمام هو العليم المطلق، وما ذلك إلّا لإخلاصه وتسليمه وانقياده المطلق للحقّ، فيحظى بالعناية الإلهية و الفضل الربّاني ليتغلّب علىٰ ما يعترضه في مسيرته من حوادث وأحداث.

المعلّم الثاني:

المعلّم الثاني للإمام هو رسول الله ﷺ، فقد قلنا سابقاً بأنّ دعوة إبراهيم وإسماعيل كانت لأجل ظهور صفوة صالحة في ذرّيّتهم تتربّىٰ في مدرسة الرسالة، وكانت نتيجة الدعوة أن تولّىٰ رسول الله ﷺ بشخصه تعليم علي عليه السلام وتربيته منذ نعومة أظفاره. وقد صرّحت بذلك آيات سورة البقرة ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ....﴾[1]. وهو ما أشار إليه الإمام الصادق عليه السلام استناداً إلىٰ الآية، فقال: «لم يعلّم الله محمّداً ﷺ علماً إلّا وأمره أن يعلّمه علياً عليه السلام»[2]. وبناءً علىٰ ما تقدّم فالنبي الأكرم ﷺ هو المعلّم الثاني للإمام.

الإمام الصادق عليه السلام وعلم الإمام:

سأل الحارث بن المغيرة الإمام الصادق عليه السلام عن مصدر علم الإمام، فأجاب عليه السلام: «وراثة من رسول الله ﷺ ومن عليّ عليه السلام». فقال الحارث: إنّا نتحدّث أنّه يقذف في قلوبكم وينكت في آذانكم ﷺ، قال عليه السلام: «أو ذاك»[3].

أي أنّ الإمام ملهم وتلميذ مدرسة النبي ﷺ والإمام علي عليه السلام، وقد مرّ[4] علينا قول الباقر عليه السلام أنّ الإمام يسمع الصوت ولا يرى ولا يعاين الملك»[5].

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٧.

(٢) الكافي ١: ٢٦٣ باب أنّ الله عزّ وجلّ لم يعلّم نبيّه علماً إلّا أمره... ح ١.

(٣) الكافي ١: ٢٦٤ باب جهات علوم الأئمّة عليهم السلام ح ٢.

(٤) في ص ١٦٧.

(٥) الكافي ١: ١٧٦ باب الفرق بين الرسول والنبيّ والمحدّث، ح ١.

القرآن وعلم الإمام عليه السلام:

أمّا أفضل طرق علم الإمام فالقرآن الكريم، وقلنا: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مكلّف بتعليم أئـمّة الإسـلام، وبـالطبع فـقد اقـتصر هـذا التـعليم المـباشر عـلىٰ أمـير المؤمنين عليه السلام، إلّا أنّنا نعلم بأنّ القرآن الذي جمعه الإمام عليه السلام لم يقتصر علىٰ الكـتاب المُنزل، بل ضمّ إليه جميع الأسرار القرآنية والتـفسير والتأويـل وأسـباب النزول وكافّة الأحكام، فقد كان علي عليه السلام يسطّر ما يتلو عليه النبي صلى الله عليه وآله، وأنّ هذا القـرآن كانت تتناقله الأئـمّة دون أن تصل إليه يـد الآخـرين، وهـو الآن بـيد قـائم آل محمّد صلى الله عليه وآله إمام العصر والزمان.

ومن هنا تتبيّن أهمّية وعظمة هذا الكتاب الذي انطوىٰ علىٰ جمـيع الحـقائق والأحكـام وأسرار القـرآن ـ الأعـم مـن التأويـل والتـنزيل ـ والذي أمـلاه رسول الله صلى الله عليه وآله علىٰ أمير المؤمنين عليه السلام ولم تصل إليه يد عامّة الأُمّة، وكيف أنّه يتجاوز المكنونات والمجهولات ؟!

هذه نبذة من الطرق التي تكشف عن علم الإمام وإحاطته بالمجاهيل، ومـن أراد المزيد فليراجع كتاب أصول الكافي لثقة الإسـلام الكـليني، أو كـتب عُـلماء الكلام بهذا المجال ليقف مـن خـلال الأحـاديث والأخـبار عـلىٰ مـصادر عـلم الإمام عليه السلام.

أسئلة وأجوبة :

طرحت عدّة أسئلة في المباحث السابقة من قبيل :

١ ـ هل للإمام عليه السلام علم بالغيب أم لا؟

الجواب: نعم، هو عالم بالغيب، ولكن من خلال الوحي أو الإلهام أو شرح الله لصدرهم بما يزيل عنهم الحُجب فينظرون إلىٰ حقائق الأشياء، وهذا العلم الجمّ من

لوازم الزعامة الخالدة، ولابدّ للحاكم الإسلامي من الإستناد إلىٰ الغيب في حكومته.

٢ ـ هل مجرّد بلوغ النبوّة أو الإمامة يجعلهم يدركون الغيب؟

الجواب: كلّا، فانّ مجرّد الإمامة لا تستلزم هذا الأمر، فهم مقيّدون لا يعلمون دون عناية الحقّ ولطفه، إلّا أنّ سنّة الله جرت في أنّ أئمّة الإسلام أن يحيطوا بكافّة الأسرار بفضل الإفاضة الرحمانية.

٣ ـ هل تنحصر علوم زعماء الدين وأئمّة المسلمين في إطار القرآن وأحكام الإسلام دون الحوادث الواقعة ومصير المسلمين ومستقبل الإسلام؟

الجواب: أفادت الدراسات والأبحاث السابقة أنّ علم الإمام لا ينحصر بالقرآن وأحكام الإسلام، ولابدّ أن يحيط الزعيم بالحوادث ولاسيّما تلك المرتبطة بكيان الإسلام والمجتمع الإسلامي.

٤ ـ هل الأئمّة عليهم السلام عالمون بما كان وما يكون؟

الجواب: أشرنا باختصار إلىٰ هذا الأمر، وقد أوضحته الروايات التي صرّحت بأنّ عندهم المصحف بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخطّ أمير المؤمنين عليه السلام، والذي يحتوي علىٰ جميع الحقائق والأسرار وأُمور التأويل والتنزيل كما ورد في القرآن الكريم: ﴿تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[1] فلابدّ من الإذعان بأنّهم عالمون بما كان وما يكون. ولا نرىٰ المقام يسع للخوض في بيان المقصود بما كان وما يكون.

٥ ـ هل علم الإمام عليه السلام بالأشياء حضوريّ، أم حصولي؟

الجواب: لا نرىٰ من جدوى في إطالة الكلام بهذا الشأن رغم إصرار البعض في مؤلّفاتهم علىٰ أنّ علم الإمام حضوري، فما عند الإمام من العلم هو الإفاضة والعناية، وما يهمّنا هو التأكّد من علمه مهما كانت كيفيّته ما لم يستلزم أمراً غير معقول.

(١) سورة النحل: الآية ٨٩.

العلم الشائي :

هذا اصطلاح أورده علماء الكلام في أنّ الإمام عليه السلام عالم بكلّ شيء ولكن بالعلم الشائي، أي متىٰ شاء علم وإلّا فلا. وبعبارة أُخرىٰ: فإنّ عنان العلم بيد الإمام بمجرّد أن يريد العلم يعلمه.

ولا ندري من أين لعلماء الكلام هذا الاعتقاد، وكيف يستدلّون عليه؟ فإن كان الدليل الأخبار، فإنّنا تتبّعنا الأخبار التي اعتبرت العلم متوقّفاً علىٰ المشيئة، فإذا هي ثلاثة أخبار في أُصول الكافي ـ التي تهتمّ بمثل هذه الأحاديث والأخبار ـ وهي لا تنفع المتكلّمين بهذا الشأن.

إيضاح :

هنالك أمران ينبغي توفّرهما من أجل صحّة الاحتجاج والاستدلال بأيّة رواية، وهما:

١ ـ الوثوق بصدور الرواية عن الإمام عليه السلام.

٢ ـ دلالة نصّ الحديث علىٰ المُراد بصورة واضحة ولو من بعض القرائن.

وممّا يؤسف له أنّ الروايات الواردة بهذا الشأن في باب «أنّ الأئمّة عليهم السلام إذا شاؤوا أن يعلموا علموا» ليست أكثر من ثلاث، وهي تفتقر إلىٰ السند وإلىٰ الدلالة التي قال بها بعض المتكلّمين، بل يمكن القول بأنّها روايتان؛ لأنّ رجال السند بعد ابن مسكان متحد في روايتين، وينتهي السند إلىٰ أبي ربيع الشامي الذي روىٰ عن الصادق عليه السلام.

عبارة الرواية الأُولىٰ: «إنّ الإمام إذا شاء أن يعلم علم»[1] بينما عبارة الرواية

---

(١) الكافي ١: ٢٥٨ ح ١.

الثانية التي متحدٌ في السند مع الأُولىٰ «إنّ الإمام إذا شاء أن يعلم أُعلم»[١] وعبارة الرواية الثالثة «إذا أراد الإمام أن يعلم شيئاً أعلمه الله ذلك»[٢].

وبالتمعّن في نصّ الرواية الثالثة والثانية ترىٰ أنّ كلمة «علم» في الرواية الأُولىٰ بضمّ العين وتشديد اللّام فهي صيغة مجهولة من باب التفعيل لا بمعنى «يعلم»، ولذلك فمفادها واحد، وهو أنّ الإمامعليه السلام متى شاء أن يعلم يعلّمه الله ويفيض عليه «أعلمه الله ذلك».

وعليه: فإن كان مستند هذا البعض من المتكلّمين بالعلم الشائي هذه الرواية، كان لابدّ من القول بأنّ الروايات الثلاث لا تنطبق علىٰ العنوان المذكور في كلام المُتكلّمين، وإن كانت هناك روايات أُخرىٰ فإنّنا لم نعثر عليها. وبغض النظر عمّا مضى فإنّ سند الرواية ضعيف، ويمكن القول بأنّ الروايات الثلاث دالّة علىٰ أنّ علم الإمام إفاضته، ومتى غاب عنهم شيء تلطّف الله عليهم وكشفه لهم.

وهنا نأتي إلىٰ اختتام البحث والتحقيق بشأن الإمامة وشرائطها ولا سيّما علم الإمام. وهنا لابدّ من القول بأنّ بحث الإمامة ليس من الأبحاث السهلة، فمعرفة الإمام تتطلّب رؤية ثاقبة وأُفق واسع، وأنّىٰ للقلوب الملوّثة أن تدرك شأن الإمام، فقد قال الإمام الرضاعليه السلام: «إنّ الإمامة أجلّ قدراً وأعظم شأناً وأعلى مكاناً وأمنع جانباً وأبعد غوراً من أن يبلغها الناس بعقولهم»[٣].

---

(١) الكافي ١: ٢٥٨ ح ٢.

(٢) الكافي ١: ٢٥٨ ح ٣.

(٣) الكافي ١: ١٩٩ باب نادر جامع في فضل الإمام وصفاته ح ١.

علم الإمام سيّد الشهداء عليه السلام بحادثة كربلاء

اتّضح لدينا سابقاً بأنّ الإمام عالم ومحيط بكلّ حادثة في المسيرة التأريخية للمسلمين وإلىٰ الأبد، وعليه: فلم يعد هنالك من معنى للتساؤل عن أنّ سيّد الشُهداء عليه السلام كان عالماً بمصيره في كربلاء وسبي نسائه أم لا، فهذا السؤال مثل من يسأل عن شُعاع الشمس هل يصل إلىٰ ذلك المكان وهو يرىٰ بأُمّ عينيه نورها الذي يضيء كلّ شيء!

ترىٰ ما العمل وقد طرح هذا المبحث منذ القدم لدىٰ العقلاء والمفكّرين؟ الأمر الذي جعلنا نتصدّىٰ للخوض في مثل هذه المباحث، ولعلّ مثل هذه العُقد والشُبهات قد تسلّلت إلىٰ الكتاب المعروف: «شهيد جاويد» والحقّ أنّ المؤلّف قد اعتمد نهجاً جديداً في طرحه لأبعاد تلك الواقعة، غير أنّه أخطأ في بعض الاستنتاجات وقراءة الأحداث، وهذا ما دفعنا لأن نخصّص هذا الفصل لنقد محتوىٰ ومضمون هذا الكتاب، ولا يسعنا إلّا أن نذعن ببراعة الكتاب سوىٰ خاتمته التي طرحت هذا السؤال: هل كان الإمام الحسين عليه السلام يعلم بأنّه سيُقتل في

كربلاء أم لا؟ في حين فرغنا من إثبات علم الإمام بالغيب وأنّ رسول الله ﷺ قد قال لعلي عليه السلام: «إنّك تسمع ما أسمع وترىٰ ما أرىٰ إلّا أنّك لستَ بنبيّ»[١].

ولمّا كان مؤلّف الكتاب من الباحثين وقد ناشد الجميع تذكيره بالهفوات التي ربّما استبطنها الكتاب، وقد دوّن عنوانه بغية استلام الرسائل في هذا المجال، رأينا أنفسنا إتحافه ببعض الأُمور المتعلّقة بالكتاب من خلال هذا الكتاب الذي بين أيدينا ـ لا عن طريق الرسائل ـ فلعلّ كتابه خلّف هاجساً من القلق والاضطراب لدىٰ الرأي العام.

آملين أن يعيد المؤلّف النظر في الطبعات الأُخرىٰ ليتلافىٰ ما فرط منه في ما سبق، سائلين الإخوة المحقّقين والباحثين التماس العذر لنا في ما يبدر منّا من زلل وتذكيرنا به ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[٢].

ثلاثة أخطاء رئيسية:

١ ـ إنكار علم الإمام عليه السلام بشهادته في هذه الحركة.

٢ ـ تضرّر الإسلام والمسلمين إثر حادثة كربلاء وشهادة الإمام عليه السلام.

٣ ـ لم تكن ثورة الإمام عليه السلام سوىٰ دفاعاً عن النفس.

الخطأ الرئيسي الأوّل:

رغم تصريح مؤلّف كتاب «شهيد جاويد» ـ في الصفحة السادسة من كتابه ـ بأنّ الإمام كان يعلم بأنّه سيُقتل في آخر الأمر، إلّا أنّ مباني الكتاب وأُسسه قائمة علىٰ أساس إنكار علم الإمام بشهادته في هذه الحركة وسبي نسائه وعيالاته،

(١) الطرائف لابن طاووس: ٤١٥، وقد تقدّم عن نهج البلاغة في ص ١٨٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

بحيث لو جرّد الكتاب من هذا المحور لاكتسب صبغة أُخرىٰ، فالإصرار علىٰ إنكار رؤيا الإمام عليه السلام وأمره من قبل النبي صلى الله عليه وآله: «يا حسين اخرج إلىٰ العراق...»[١] وحديث أُمّ سلمة وحوار محمّد بن الحنفية، والترديد في دلالة الرواية الصحيحة الواردة في كامل الزيارات بأنّ الإمام عليه السلام قال: «مَن لحق بي استشهد...»[٢] وقوله عليه السلام: «هاهنا والله محطّ رحالنا ومسفك دمائنا...»[٣] وتلاوته لخطبته المعروفة «خُطّ الموت على ولد آدم...»[٤] في مكّة، أو خدشه في دلالة الخطبة «كأنّي بأوصالي...»[٥] أو عدم التعرّض لها، كلّ هذه الأُمور قائمة علىٰ أساس الإنكار، غاية ما في الأمر أنّه يتعرّض لها من زاوية أُخرىٰ، بينما يبقىٰ الهدف الأصلي متمثّلاً بإنكار علم الإمام بشهادته، ولا نرىٰ هذا الكلام جديداً، فقد تعرّض أرباب المقاتل وأجابوا بما فيه الكفاية، إلّا أنّنا لم نلمس مثل هذه الشبهات والشكوك في الكتب التي تعرّضت لحادثة كربلاء.

بالطبع يمكن أن ترد مثل هذه الأُمور في بعض الأوساط الأُخرىٰ التي ليس لها معرفة تُذكر بهذا الشأن وتجهل مقام الإمام، إلّا أنّ هذا الأمر يبدو أنّه يحمل نوعاً من الغرابة بالنسبة لعالم التشيّع الذي تثقّف وفَهِم أفكار وملابسات هذه الحادثة الخالدة.

الخطأ الرئيسي الثاني:

لقد اعترف المؤلّف ـ بالتلويح أو التصريح ـ بأنّ حادثة كربلاء وشهادة الإمام الحسين عليه السلام قد أدّت إلىٰ الإضرار بالإسلام والمسلمين.

---

(١) الملهوف لابن طاووس: ١٢٨، ينابيع المودّة ٣: ٦٠.

(٢) كامل الزيارات: ١٥٧ ح ١٩٥، وعنه بحار الأنوار ٤٥: ٨٧ ح ٢٣.

(٣) الملهوف لابن طاووس: ١٣٩، الاحاديث الغيبية ٢: ٣٠٩.

(٤، ٥) كشف الغمّة ٢: ٢٩، وعنه بحار الأنوار ٤٤: ٣٦٦ ـ ٣٦٧.

الخطأ الرئيسي الثالث :

يفيد التأمّل في الكتاب المذكور أنّه لم تكن هنالك من دوافع لثورة الإمام سوىٰ الدفاع عن النفس ، وذلك لأنّ الإمام وبمجرّد أن يئس من النصر والإصلاح ورأىٰ نفسه في قبضة العدوّ لم يكن له بُدّ من الدفاع عن نفسه .

نعم ، هذه هي أهمّ الأخطاء التي ارتكبها صاحب الكتاب ، ولا يسعنا الخوض في سائر الأخطاء التي لا ترتبط بمنهج هذا الكتاب .

ونخوض الآن في مناقشة الخطأ الأوّل والثاني ، وسيتّضح لدينا من خلال البحث الجواب علىٰ الخطأ الثالث ، ولذلك فلا حاجة لعنوان مستقلّ .

الكتاب والخطأ الأوّل :

١ ـ يستنتج من البحث الوارد بشأن دوافع الثورة بأنّ «الإمام ثار من أجل إنشاء الحكومة الإسلامية ، وهذا هو الهدف الأصلي والواقعي في حركته نحو الكوفة ، وذلك لأنّ كافّة الظروف كانت ممهّدة لنيل النصر» .

ويمكن القول بأنّ الهدف الأصلي للكتاب قد تبلور في هذا الأمر ، أي إنشاء الحكومة الإسلامية والقضاء علىٰ حكومة يزيد ، ولسنا الآن بصدد دراسة هذه القضية ، وسنتّفق والكاتب في أنّ هدف الإمام كان يتمثّل بالأخذ بزمام الأُمور ، إلّا أنّه ذكر في الصفحة السادسة من الكتاب «أنّ الإمام كان يعلم بأنّه سيُقتل فكيف له بذلك العسكر الذي رافقه أن يطيح بحكومة يزيد» .

وبناءً علىٰ هذا فلا يمكن الجمع من وجهة نظر الكاتب بين العزم الراسخ بالإطاحة بحكومة يزيد ، والعلم بالشهادة في تلك النهضة ، فهناك تباين بين الأمرين . فقد ظنّ بعدم إمكانية تحقيق الإمام للهدف وتعبئة الجهود من أجله ، بينما كان يعلم بأنّه سيُقتل دون نيل ذلك الهدف ، وحيث كان الهدف الذي ركّز عليه

الإمام عليه السلام من وجهة نظر الكاتب هو إنشاء الحكومة ، فلم يجد بدّاً من التنكّر لقضية علم الإمام عليه السلام بقتله في هذه النهضة ، ولا نريد أن نقول بأنّ هذا الفصل من الكتاب صرّح بنفي علم الإمام بشهادته ، بل حيث توصّل الكاتب إلىٰ أنّ علم الإمام بشهادته في هذه الحركة يتنافىٰ وهدف الكتاب في قيام الإمام من أجل الإطاحة بحكومة يزيد وإنشاء الحكومة الإسلامية ، فلم يكن أمامه من سبيل سوىٰ إنكار علم الإمام بشهادته في هذه الحركة ، وهذا هو الأساس الذي ابتنىٰ عليه الكتاب .

٢ ـ لقد تنكّر الكتاب لكافّة الأدلّة التي تفيد ـ بغضّ النظر عن الأدلّة العامّة التي تصرّح بالعلم المطلق لكلّ إمام ـ علم الإمام عليه السلام بشهادته في هذه الحركة ، فهو إمّا كان يطعن فيها من حيث السند والاعتبار أو يناقشها من حيث الدلالة ، وهنا لا يجب أن ننسىٰ أنّ المؤلّف قال: لم يخرج الإمام من أجل الشهادة أبداً ، ففنّد كلّ ما يفيد هذا الأمر ، فمثلاً علّق علىٰ عبارة الإمام عليه السلام: «من لحق بي استشهد» فقال: لا تعني هذه العبارة أنّ كلّ مَن يلحق بي يُقتل ، في حين لا يفهم العرف واللغة سوىٰ ذلك ، بل يرىٰ أنّ المعنىٰ: مَن يلحق بي إنّما يتعرّض إلىٰ الأخطار والشهادة ، أَوَ لا يعني بهذا أنّه ينكر علم الإمام بما سيقع في كربلاء؟

وبالطبع لا أُريد أن أقول بأنّ كافّة الأدلّة قطعية السند تأريخياً ، رغم القول بصحّتها من قبل كبار أرباب المقاتل ، بل أقول: إنّ كلّ ما بدر من المؤلّف كان اجتهاداً في التأريخ وليس من التأريخ في شيء ، ولم يهدف سوىٰ إنكار علم الإمام عليه السلام بشهادته في هذه الحركة .

٣ ـ كيف لنا أن نفترض عدم تنكّر المؤلّف لعلم الإمام بشهادته ، وهو الذي أورد عنواناً تساءل فيه عن قتل الإمام هل كان بنفع الإسلام أم بضرره ، ثمّ يذهب صريحاً ـ وسيأتي ذلك في مناقشة الخطأ الرئيسي الثاني ـ إلىٰ أنّ قتل الإمام عليه السلام وحادثة كربلاء وسبي عيالات أهل البيت إنّما شكّلت ضرراً علىٰ الإسلام ، حيث

ذهب أيضاً إلىٰ أنّ القول بالعلم يستلزم الاعتراف بإقدام الإمامعليه السلام علىٰ عمل لم يتضمّن سوىٰ ضرر الإسلام والمسلمين، لو كان الإمام عالماً بما ارتكب وما يتنافى والإسلام، وعليه: فلا مفرّ للمؤلّف من الاعتقاد بعدم علم الإمام بشهادته في تلك النهضة.

وبعبارة أوضح: يعتقد المؤلّف بأنّ حادثة كربلاء قد أضرّت بالإسلام ـ سيأتي الردّ قريباً ـ وعلىٰ هذا الأساس كان لابدّ له من التنكّر لعلم الإمام بما سيجري في تلك الحادثة، وإلّا لما ارتكب ذلك الفعل الذي أدّىٰ إلىٰ ضرر الإسلام، وعليه: فلم يكن للإمام علم، وإلّا كان متعمّداً ـ والعياذ بالله ـ للإضرار بالإسلام.

٤ ـ يفهم من الأدلّة التي ساقها المؤلّف في إطار حركة الإمام الحسينعليه السلام إلىٰ الكوفة وإنشاء الحكومة الإسلامية، أنّ الإمام لم يكن ملتفتاً إلىٰ الأحداث والوقائع التي ستنطوي عليها حادثة كربلاء. فقد صرّح في ص ٥٥ قائلاً: «علىٰ ضوء المعادلات الطبيعية ـ والمقصود بالمعادلات الطبيعية هنا بقرينة العبارات السابقة واللاحقة: إعداد العدّة والعدد وشعبية الإمام ونصرة الكوفة له و.... ـ فإنّ الإمام كان يأمل بتحقيق النصر في هذه المعركة والإطاحة بحكومة يزيد».

ولنا هنا أن نسأله: هل يمكن الجمع بين الأمل ـ الذي يمثّل إحدىٰ الصفات الإنسانية ـ والعلم بالشهادة في هذه النهضة؟ هل يمكن القول بأنّه كان يأمل بالإطاحة بحكومة يزيد والأخذ بزمام السلطة، كما كان عالماً بأنّه سيُقتل قبل وصوله إلىٰ الكوفة؟ كأن نقول مثلاً بأنّ مسافراً انطلق من مدينة قم وهو يأمل بأنّه سيصل طهران في نفس ذلك اليوم، كما أنّه موقن بأنّه سيموت في حادثة اصطدام خلال الطريق قبل أن يبلغ طهران.

أجل، لا يمكن الجمع بين العلم بالشهادة في هذه الحركة، والأمل التامّ بالنصر الذي يتمثّل بالإطاحة بحكومة يزيد.

ولعلّ هناك من يقول: إذن، فأنتم تتّفقون مع مَن يقول: إنّ الإمام إنّما خرج من أجل القتل، لا بقصد الاتّجاه إلىٰ الكوفة والقضاء علىٰ زعامة الفاسق يزيد؟

وللإجابة علىٰ هذا الزعم نقول: لا ننوي فعلاً الدخول في ماهية قضية كربلاء ونبدي بعض وجهات النظر بهذا الخصوص، بل إنّما نريد الإشارة إلىٰ الأخطاء التي ارتكبها مؤلّف كتاب شهيد جاويد، كما نريد أن نقول بأنّ أساس الكتاب إنّما وُضع علىٰ أساس إنكار علم الإمامعليه السلام بالشهادة في هذه الحركة، ولكن لا بأس بالإجابة علىٰ ذلك الزعم الموهوم.

فقد استبطنت حكومة يزيد الزائفة عدّة خطط وبرامج خطيرة، فلم يكد المسلمون يتنفّسون الصعداء إبّان عصر الاستبداد والطغيان الذي شهدته حكومة معاوية، حتّى رأىٰ المسلمون هذا الفاسق شارب الخمر وقد تربّع علىٰ عرش السلطة. السلطة التي جعلت المسلمين يذوقون الأمرّين من هذا الفتى الطائش ـ يزيد ـ، وقد أخذ الظلم مأخذه من الناس بالشكل الذي جعلهم يرفعون أصواتهم ويصرخون بوجه الظلم ويطلبون النجدة من الرجل الصالح الجدير بزعامة الأُمّة وإمامتها ويرون فيه أملهم المنشود. أمّا الإمام من جانبه فقد كان عالماً بحكومة يزيد التي لا تريد سوىٰ زعزعة أركان الإسلام ومحو آثار القرآن، وأنّها ستنشد يوماً:

لعبت هاشم بالملك فلا   خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزل[1]

وستجدّد مفاخر الجاهلية وتقضّ مضاجع الدين، الأمر الذي يجعل الإمام ينهض لممارسة وظيفته تلبية لدعوة الأُمّة، وهي الوظيفة التي ينهض بها كلّ إمام حسب الظروف والشرائط. فلم يكن ينبغي للإمام الحسينعليه السلام أن يصمّ آذانه عن

(١) روضة الواعظين: ١٩١، الاحتجاج ٢: ١٢٢ رقم ١٧٣، الملهوف: ٢١٥.

سماع صراخ المظلومين، ولذلك أعلن عن عزمه علىٰ خلاص الإسلام والأُمّة من مخالب يزيد، حتّى لا يتفوّه أحد بأنّ الأُمّة استغاثت بالإمام ولم يجبها وتهرّب من ممارسة وظيفته ومسؤوليته!

كان هذا الأمر يتطلّب توفير بعض المقدّمات من قَبيل الحركة نحـو الكـوفة ليعلن للعالم بأنّي لن أخلد إلىٰ السكون والراحة.

نعم، فالسبيل الذي سلكه يزيد والعلم الذي يعلمه الإمام لم يجعل أمامه من سبيل سوىٰ القيام والثورة، هذا من جانب، ومن جانب آخر فقد كان عالماً عارفاً أنّه لن يحقّق هدفه ويُنهي حكومة يزيد ويقيم الحكومة الإسلامية، بل إنّ سـبيل التضحية والفداء هو الذي سيسقي شجرة الدين التي جفّت عروقها خلال سنوات حكم معاوية، وأنّ تضحيته ستنفخ الروح من جديد في جسد الإسلام الذي أصبح جثّة هامدة بلا حركة، وكان يعلم جيداً بأنّه سيتمكّن بهذه التضحية من أداء دينه للإسلام، وستتحقّق مقولة جدّه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله «حسينٌ منّي وأنا من حسين»[1].

إذن، فالانطلاق نحو الكوفة لزعامة الأُمّة كان مـن أجـل كَـمّ الأفـواه التي فتحت آنذاك وستفتح اليوم وغد، علىٰ أنّ السبيل كان ممهّداً والظروف مناسبة فَلِمَ لَمْ ينهض الإمام الحسين عليه السلام غير أنّ العلم بالشهادة والذي يجعل الهدف يـكمن في كربلاء لم يكن يصدّ الإمام عن القيام والثورة، فالإمام كان يعلم بأنّه سيُقتل في هذه الحادثة ـ وهذا ما سنشير إليه لاحقاً ـ ولكن لابدّ من الانطلاق نحو الكوفة وتمهيد المقدّمات لكي لا تخرج النهضة عن دائرة العقلائية والحسابات التـقليدية، رغـم علمه بأنّه سوف لن يصل الكوفة.

إذن، فالإمام رام بهذه الحركة إفهام العالم بأنّه قام من أجل إحـياء الإسـلام وإنقاذ الأُمّة المظلومة من قبضة حكومة يزيد، وأنّه سيُقتل إثر هذا القيام، ولم يكن

---

(١) كامل الزيارات: ١١٦ ح ١٢٦، وعنه بحار الأنوار ٤٣: ٢٧٠.

للأُمّة أن تدرك مغزىٰ هذا القيام ما لم ينطلق صوب الكوفة، أمّا الإمام فقد كان علىٰ علم بأنّه لن يصل الكوفة.

وهنا يبرز هذا السؤال: إذا كان الإمام يعلم بأنّه سيُقتل قبل الوصول إلىٰ الكوفة والظفر بإنشاء الحكومة الإسلامية ـ الحسينية ـ فلماذا قام ونهض بالأمر؟ وَلِمَ سلّم أهل بيته للقتل طواعية حيث لم يكن هنالك من احتمال ولو واحد بالمائة بالغلبة والنصر؟

والجواب: لم يكن الأخذ بزمام الأُمور والسيطرة علىٰ الحكومة هو الهدف الواقعي للإمام؛ لأنّ الإمام كان يعلم بعدم إمكانية تحقّق هذا الأمر، وأنّه سوف لن يبقىٰ حيّاً قبل أن يصل الكوفة، بل كان هدفه الأصلي إحياء الإسلام، وتطبيق القرآن، وإبقاء عزّة المسلمين وشريعة خاتم النبيّين صلى الله عليه وآله، وإزالة البدعة وإحياء السنّة، وليس هنالك من سبيل سوىٰ الشهادة لتحقيق هذا الهدف العظيم ـ وهذا ما سنتعرّض له في مناقشة الخطأ الرئيسي الثاني ـ وهذه المهمّة كانت تشكّل وظيفة من وظائف الإمامة التي كان على الإمام السعي للقيام بها، وأن يُحمل رأسه علىٰ الرماح من أجل رفعة الإسلام العزيز.

وعلىٰ العموم ليست هنالك من منافاة بين الحركة نحو الكوفة وتلبية دعوة الأُمّة وإعداد مقدّمات النهضة، وبين علم الإمام بالشهادة، وذلك لأنّ الغرض الأصلي هو إفشال مخطّطات يزيد وإحياء الإسلام، ولم يكن من سبيل لذلك سوىٰ القتال المستميت في كربلاء حتّى الشهادة، ولم يكن يعلم بهذا الأمر سوىٰ الإمام عليه السلام، وأنّ هذا الهدف العظيم إنّما يتحقّق في ظلّ الشهادة لا الحكومة.

أمّا حركة الإمام باتّجاه الكوفة إنّما كان يهدف منها توضيح أسباب قتل الإمام، وليعلم العالم بأسره أنّ الإمام ثار من أجل إنقاذ الأُمّة الإسلامية والحيلولة دون اضمحلال ومحو الدين من قبل حكومة يزيد وأنّه قُتل في هذا السبيل.

ولعلّ الإدراك الحقيقي لفلسفة حركة الإمام والوظيفة التي قام بها قد يتعذّر علىٰ الناس لو كان الإمام قال منذ بداية حركته: إنّما انطلق إلىٰ الأرض التي سأُقتل فيها، كما سيتعذّر عليهم إدراك كيفية قيام الإمام بهدف إحياء الإسلام، أمّا الإمام فكان يعلم شخصياً بأنّ السبيل الوحيد للانتصار وزعزعة سلطة يزيد وإحياء الإسلام إنّما يكمن بالشهادة والتضحية بالغالي والنفيس.

نعم، جرت عادة الأئـمّة المعصومين عليهم السلام باعتماد بعض الأُمور من أجل إفهام الناس بعض الحقائق والوقائع، فقد رقد الإمام علي عليه السلام في الفِراش بعد أن ضُرب في محراب عبادته، فهو كان يعلم بأنّ ضربة ابن ملجم قاتلة، وقد كشف النقاب عن جميع تفاصيلها قُبيل وقوعها، ولكن كيف له أن يفهم الآخرين بأنّ تلك الضربة قاتلة؟ لاشكّ في أنّه ليس هنالك من سبيل سوىٰ استدعاء الطبيب لفحصه وإبداء وجهة نظره بهذا الشأن، فلولا فحص الطبيب وتشخيصه بأنّ الضربة قاتلة ولا أمل في الحياة، فلعلّ هناك من يتساءل لو كان عليّ عليه السلام راجع الأطباء وقدّموا له العلاج والدواء فلربما تماثل للشِفاء ونجىٰ من الموت، وهذا هو جواب أولئك الذين يلتبس عليهم الأمر فيقولون: إذا كان علي يعلم بأنّه سيفارق الدنيا إثر ضربة ابن ملجم وأنّه ميّت لا محالة، فَلِمَ أخضع نفسه لإشراف وفحص الطبيب؟ ولمَ استعدّ لتلقّي العلاج؟ أوليس هذا دليلاً علىٰ عدم علمه عليه السلام بأنّه سيموت إثر هذه الضربة، فعلي عليه السلام كان يعلم أن لا جدوىٰ من العلاج وأنّه سيُفارق الحياة، ولكن كيف له أن يفهم الآخرين هذا الأمر ولاسيّما عوام الناس؟ فهل هناك سوىٰ السبيل الذي سلكه الإمام عليه السلام؟ وهذا ما يصدق علىٰ واقعة كربلاء وحركة الإمام نحو الكوفة، الأمر الذي سنتعرّض له لاحقاً.

٥ ـ يتّضح من الإجابة التي أوردناها علىٰ السؤال في النقطة الرابعة أن ليس هناك أيّة منافاة عقلية وعقلائية بين أساس النهضة من أجل الإطاحة بحكومة

يزيد والعلم بالشهادة في هذه النهضة من أجل تحقيق هذا الهدف.

أمّا المؤلّف ـ وبغضّ النظر عن العلم بالشهادة في هذه الحركة ـ فلم يجد من سبيل للجمع بين تحقيق الهدف وأساس النهضة، فظنّ أنّ فرض صحّة هذه الحركة إنّما تتأتّىٰ إذا غضضنا الطرف عن علم الإمام عليه السلام بحادثة كربلاء، ثمّ يستنتج علىٰ هذا الأساس أنّ الإمام لا يستطيع أن يطيح بحكومة يزيد من خلال هذا الطريق، فكيف تأهّب لمثل هذه الحركة، فالقيام والنهضة لم تعدّ عملية عُقلائية!

وعليه: فيرىٰ المؤلّف أنّنا إذا أردنا أن نسند الثورة لهذا الأساس وجب علينا أن نغضّ النظر عن علم الإمام، ولمّا أجبنا علىٰ هذا السؤال الوارد بهذا الشأن، فإنّنا نرىٰ أنّ المؤلّف لم يستطع أو لم يرد أن يشخّص الطريق الصحيح، فان استند إلىٰ مبناه في أنّ الهدف هو إسقاط حكومة يزيد والأمل بالنصر وإنشاء الحكومة الإسلامية، وجب عليه القول بعدم علم الإمام بما ستؤول إليه الأحداث، أو أن يتراجع عن قوله: من أنّ الهدف هو إسقاط حكومة يزيد.

ونخلص من هذا إلىٰ أنّ الإذعان بالعلم يستلزم نسف كلّ ما ورد في الكتاب، إلّا أنّنا نعتقد أنّ الهدف كان يتمثّل بالإطاحة بحكومة الظلم والجور إلىٰ جانب تلبيته لدعوة الأُمّة المتعطّشة إلىٰ الحرية وحكومة العدل، كما كان عالماً بالأحداث، وفي ظلّ هذا الأمر يتحقّق الهدف، لكن ليس في ظِلّ إنشاء الحكومة، بل بواسطة التضحية، وهذه حقيقة معنوية ووظيفة إلهيّة كانت معلومة منذ البداية، وقد قلّد رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام حسيناً عليه السلام هذه المسؤولية التأريخية وقَبلها بكلّ رحابة صدر.

وبناءً علىٰ هذا ينبغي علىٰ المؤلّف الذي ظنّ بأنّ السبيل العقلائي لهذه النهضة يقوم علىٰ أساس غضّ النظر عن علم الإمام، وبالنظر إلىٰ الكلمات والخطب التي أوردها الإمام بشأن علمه بشهادته؛ فإنّ الكتاب يكون قد نقض أو نسف تماماً،

وإلّا فلا خيار آخر سوىٰ الاعتراف بعدم علم الإمام عليه السلام.

٦ ـ لقد تبيّن من خلال الأدلّة السابقة أنّ المؤلّف ـ وأساس الكتاب ـ لا يمكنه أن يقول بعلم الإمام بشهادته في هذه الحركة، إلّا أنّنا لم ندّعِ تصريح المؤلّف بإنكار علم الإمام.

١) قال المؤلّف في ص ٢٩٠ و ٢٩١ ـ بعد الاتّفاق الذي حصل بين الحرّ بن يزيد والإمام ـ: «لزم الإمام ميسرة الطريق وانطلق» ثمّ أضاف المؤلّف: «فلو سأله أصحابه أين ننطلق؟ ما مصير هذه الحركة؟ أين سنحلّ؟ ماذا سنفعل؟ هل هناك من مشاكل ستواجهنا؟ لا يسع الإمام أن يقدّم من جواب سوىٰ القول: «لا ندري علىٰ ما تتصرّف بنا وبهم الأُمور»، فهل يسع المؤلّف بعد التصريح بنفي علم الإمام بالأحداث والمصير أن يقول: لقد غضضنا الطرف عن علم الإمام ومعرفته بالأُمور، فما الحاجة هنا لغضّ الطرف، فالإمام عليه السلام قد رأىٰ نفسه في قبضة العدوّ، ولم يكن له سوىٰ الاتّجاه نحو ميسرة الطريق بعد رفض العدوّ لاقتراحه بالرجوع، كما تزعم بأنّ الإمام أخذ يلتفت شيئاً فشيئاً أنّه سوف لن يظفر بهدفه المقدّس، فكيف نغضّ الطرف عن علمه رغم علمه ومعرفته!

لقد غضضت طرفك حين تعذّر عليك الجمع بين العلم وتحقّق الهدف، أمّا وقد انعدم الأمل ولاحت بوادر انتصار يزيد، وذلك لأنّه وقع في قبضة العدوّ قبل أن يدخل الكوفة ويتّصل بقواعده الجماهيرية، وقد أغلق حتّى طريق الرجوع بوجهه! فهل غضّ طرفه عن علم الإمام في ظلّ هذه الظروف، والجملة التي ذكرتها ـ والتي تفيد عدم اطّلاع الإمام ـ استندت فيها على ما ورد في الكتاب التأريخي الفلاني، فهل بقي من طريق عقلائي لغضّ الطرف عن العلم!!

نعتقد بأنّ هذه الجملة ليست تفيد عدم علم الإمام بما ستؤول إليه الأحداث في كربلاء فحسب، بل تفيد أيضاً أنّ الإمام لم يشعر ـ والعياذ بالله ـ بأدنىٰ خطر من

هذه الحادثة المروّعة الخطيرة، وهو الوقوع في قبضة الحرّ وجيشه المتعطّش للدماء.

لعلّ المؤلّف يقول: أين أوردنا إسم الإمام في جواب علىٰ سؤال؟ نقول: ليس هنالك من جواب علىٰ تلك الأسئلة سوىٰ تلك العبارة.

أمّا جوابنا علىٰ السؤال فنقول: علىٰ مَن يطرح الأصحاب أسئلتهم؟ ليس هم سوىٰ الإمام، أضف إلىٰ ذلك فإنّك نقلت تلك العبارة من تأريخ الطبري، فالتأريخ المذكور ينسب هذه العبارة صراحة إلىٰ الإمام، وهي صريحة بعدم علمه بحادثة كربلاء.

وربّما قال المؤلّف: نعم، لقد استندت إلىٰ تأريخ الطبري في نقل تلك العبارة، ثمّ تبعته في قضية عدم اعتقاده بعلم الإمام بالحادثة. فنقول:

أوّلاً: هل يصحّ الاستدلال بالتأريخ في المسائل العقائدية المرتبطة تماماً بعلم الكلام، والتي ينبغي التوصّل إليها من خلال الأدلّة العقلية أو الأدلّة النقلية الموثّقة!

فعلم الإمام، بالحوادث المستقبلية من المواضيع العقائدية، وليس للتأريخ أن يبدي وجهة نظره بهذا الشأن سلباً أو إيجاباً.

ثانياً: تأريخ الطبري ليس وحياً مُنزلاً، فهل كلّ ما ورد فيه موثوقاً معتمداً عليه وإن خالف أقوال كِبار محدّثي الشيعة ومؤرّخيهم؟ نعم، تأريخ الطبري قد اشتمل علىٰ مالا يحصىٰ من الأخبار الموضوعة، وإذا أردت التأكّد فإليك ما أورده العلّامة الأميني صاحب الغدير بشأن بعض تجنّيات هذا التأريخ، فقد قال العلّامة ـ في الجلد الثامن ص ٤٥٧ ـ ٤٦٠ ـ حين تعرّض الطبري في تأريخه إلىٰ تأريخ أبي ذرّ قال:

في هذه السنة ـ أعني السنة الثلاثون ـ كان ما ذكر من أمر أبي ذر ومعاوية، وإشخاص معاوية إيّاه من الشام إلىٰ المدينة، ثمّ ذكر أسباباً دعت معاوية لنفيه، ولا

أرغب بالتعرّض لها «فأمّا العاذرون معاوية في ذلك فإنّهم ذكروا في ذلك قصّة»، ثمّ يخوض الطبري في ذكر تلك القصص، ثمّ يضيف العلّامة الأميني قائلاً: «ما الذي دفع الطبري للاقتصار علىٰ ذكر القصص التي تعذر معاوية، بينما يتحفّظ عن ذكر العلل والأسباب التي أوردها الآخرون والتي تصوّر بشاعة هذا العمل؟ فهل كان له من هدف سوىٰ إعذار معاوية وإثبات حسن صنيعه؟ فَلِمَ لَمْ ينقل الحقائق المتعلّقة بهذه الحادثة، والحال أنّها مرتبطة بواقع تأريخ الأُمّة الإسلامية، لقد ظنّ بأنّ هذه الحقائق ستبقىٰ مستورة إلىٰ الأبد وقد غفل عن وضوحها في كتب الحديث وزوايا التأريخ» ثمّ قال الأميني: «لقد شوّه الطبري تأريخه بالمكاتبات التي نقلها السرّي الكذّاب الوضّاع عن شعيب، عن سيف، وذلك لأنّ السرّي اسم لفردين معروفين بالكذب ووضع الأحاديث، وشعيب ـ علىٰ ضوء المختصّين بعلم الرجال كابن عدي والذهبي ـ مجهول، وسيف ضعيف ومتروك وساقط من الإعتبار، بل متّهم بالزندقة من قِبل الحفّاظ وأرباب الجرح والتعديل، لقد نقل الطبري ما يربو علىٰ السبعمائة رواية ـ والتي تعادل عدّة مجلّدات من تأريخه ـ عن السرّي، عن شعيب، عن سيف، وغرضه هو إخفاء الحقائق التي وقعت منذ سنة ١١ هـ حتّى سنة ٣٧ هـ، أي عصر الخلفاء الثلاثة».

ثمّ يخوض العلّامة الأميني بالتفصيل في هذه الروايات والحوادث المتعلّقة بكلّ سنة في ذلك العصر.

أمّا غرضنا من نقل أقوال العلّامة الأميني هو أنّه كيف يسعنا اعتبار تأريخ الطبري سنداً تأريخياً قاطعاً ونذعن من خلاله بعدم علم الإمام عليه السلام بحادثة كربلاء وما آلت إليه الأحداث!!

ثالثاً: لقد نقلت في هذا التأريخ ـ كما سيأتي لاحقاً ـ بعض القصص التي تفيد علىٰ نحو الجزم علم الإمام بشهادته في هذه الحركة، فلم لم تتبع هذه الأُمور في

تأريخ الطبري!!

٢ـ قال المؤلّف ـ في ص ٢٩٠ ـ: «يا لها من فاجعة! في أن يمنح الإمام أصحابه حالة السكينة والطمأنينة في ظلّ تلك الأوضاع المزرية التي عصفت بهم، ثمّ يتّجه بهم في تلك الصحراء الطويلة العريضة إلىٰ موضع لم يتكهّن به».

وهنا نسأل المؤلّف: «يتّجه بهم إلىٰ موضع لم يتكهّن به» ماذا تعني هذه العبارة؟ أَوَ لا تعني أنّ الإمام لا يدري أين يذهب، ولا يعلم بأنّ ذالك الموضع هو كربلاء؟ فإذا كان كذلك فهل يمكن التصديق بأنّ الإمام عالم بأنّه سيحلّ في كربلاء، حقّاً أنّ مثل هذه الحيرة لا تليق بشأن الإمام العالِم بكلّ شيء ولاسيّما تفاصيل وجزئيات حادثة كربلاء، فهذه الأُمور لا تقود بالتالي إلّا إلىٰ الحطّ من المنزلة العلميّة للإمام عليه السلام، لِمَ هبطت بمقام الإمام الىٰ هذه الدرجة بعد تغليف العبارات بهالة من التراجيديا والغمّ؟ في حين تعتقد بأنّ كتابك قد أدّىٰ إلىٰ رفعة مقام الإمام وتقول: «إنّ هذا الكتاب ليس فقط لم يقلّل من شأن مقام الإمام، بل قد رفع مقام الإمام بشهادة العلماء إلىٰ درجة أرفع ممّا كانت تتصوّره عامّة الناس».

فهل افتراض عدم العلم والاطّلاع ترفع منزلة الإمام؟ وهل الحيرة والترديد من قِبل الإمام دفعت أولئك العُلماء للإدلاء بتلك الشهادة؟ وهل عوامّ الأُمّة فقط يرون الإمام عالماً عارفاً؟ لا يسعنا هنا إلّا أن نناشدك بأن تعتبرنا جزءاً من عوامّ الأُمّة.

٣ـ قال في ص ٣٠١ ـ بعد أن نقل شيئاً يسيراً عن نزول الإمام وصحبه في كربلاء ـ: «لقد تذكّر الإمام حديث والده أمير المؤمنين عليه السلام بشأن هذه الأرض، حيث قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام للحسين ـ حين كان له من العمر ثلاث وثلاثين سنة ـ: سيُقتل هنا ثلّة من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وقد ابتليت ثلّة منهم اليوم بهذه الأرض». أو ليست تلك العدّة المعدودة من أهل البيت التي تحدّث عنها أمير

المؤمنينعليه السلام هم الحسينعليه السلام وأهل بيته؟ أَوَ لا ينطبق ذلك الحديث الذي ذكره أمير المؤمنينعليه السلام قبل أربع وعشرين سنة بشأن قتل عدّة معدودة من أهل البيت في ذلك الموضع علىٰ الحسينعليه السلام وأهل بيته؟ لقد نقل الحسينعليه السلام ذلك الحديث إلىٰ صحبه، وبالطبع فإنّهعليه السلام كان يحتمل بأنّه هو المعنيّ بالكلام، فجعل يستعدّ وصحبه لذلك البلاء.

والذي نخلص إليه من عبارات هذه الصفحة من كتاب المؤلّف الذي أثار مثل هذه الاستفهامات:

١ ـ أنّ الإمام الحسينعليه السلام حين بلغ كربلاء وحاصره العدوّ، تذكّر ما قاله أمير المؤمنينعليه السلام: إنّ صفوة من أهل البيت تقتل في هذا الموضع.

٢ ـ لقد أورد أمير المؤمنينعليه السلام عبارته بضمير الغائب «هم» في قوله: «مهراق دمائهم...»[1] ورغم كون الحسينعليه السلام معه إلّا أنّه لم يعتقد بأنّه المعنيّ بذلك الحديث.

٣ ـ لم يتذكّر الإمامعليه السلام حديث أمير المؤمنينعليه السلام طيلة مسيره حتّى حلّ في كربلاء و حاصره العدو.

٤ ـ حين تذكّر الإمامعليه السلام ذلك الحديث، خشي أن يكون هو وصحبه المصداق للعبارة: «مهراق دمائهم» ورغم جميع القرائن والشواهد من قبيل حديث أمير المؤمنينعليه السلام بشأن تلك الأرض، وقرينة نزول الإمام فيها، ومحاولة قتله من قِبَل يزيد، والمعاملة الفَضّة لعبيدالله بن زياد ومحاصرته للإمامعليه السلام، وما قاله الفرزدق حين التقاه، ومئات القرائن الأُخرىٰ، فإنّ الإمام تذكّر توّاً حين نزل في تلك الأرض أن يكون هو وصحبه المقصودين بذلك الحديث الذي أورده أمير المؤمنينعليه السلام قبل أربع وعشرين سنة، فرجع الإمام إلىٰ نفسه وأحسَّ بالخطر الذي

---

(١) اختيار معرفة الرجال، المعروف بـ«رجال الكشي»: ١٩ ح ٤٦، وعنه بحار الأنوار ٢٢: ٣٨٦ ح ٢٧، الأحاديث الغيبية ٢: ١٦٤ ـ ١٦٥، ويأتي مفصّلاً في ص ٢٥٩.

يواجهه، في حين لم تكن كلّ تلك القرائن والشواهد سبباً ليقين الإمام عليه السلام، أمّا عبارته: «هاهنا والله محطّ رِحالنا...» فقد نسبت إليه من قِبل ابن الأعثم المشهور بالكذب.

أمّا العبارات المنمّقة التي اعتمدها المؤلّف ـ في هاتين الصفحتين من الكتاب ـ فهي لا تفيد كون الإمام لا يعلم بقتله في هذه الحادثة، ولم يستطع تشخيص الواقعة فحسب، بل وردها على أساس الاحتمال. وهنا نقول: كيف يقرّ المؤلّف بعلم الإمام بالشهادة منذ انطلاقته، والحال كانت هذه هي النتيجة لدراسة الصفحتين المذكورتين؟ ولعلّ المؤلّف يقول: إنّي لا أنكر التفات الإمام لهذا الأمر، بل أقول: إنّه لم يطلق هذه العبارة: «هاهنا والله محطّ رِحالنا...» وقد نسبها إليه الكذّاب ابن الأعثم. فأقول:

أوّلاً: ما أوردناه هو نتيجة التحقيقات في ص ٣٠١.

وثانياً: لِمَ التعرّض إلى مقولة ابن الأعثم والإصرار على إثبات عدم صحّتها؟ التعرّض لذلك لا يكون إلّا لأنّ المؤلّف قد التفت إلى عدم العلم، وأراد بتضعيف هذه العبارة أن يزعزع أساس علم الإمام، ويخلص بالتالي إلى أنّ الإمام عليه السلام لم يقل: «هاهنا مسفك دمائنا»، أضف إلى ذلك على فرض أنّ ابن الأعثم كذّاب وضّاع، فهل لنا أن نرميه بالكذب في الخبر الذي ينقله عن الإمام إذا كان مخالفاً لبعض الواقعيات حسب بعض القرائن؟ وهل هذا هو الأُسلوب الذي ينهجه المؤلّف في استنباطه للأحكام الشرعية؟ مثلاً إذا كانت رواية دون سند، أو كان بعض رواتها من يخدش فيهم، إلّا أنّ الرواية موافقة لرواية موثوقة، فهل تسقط هذه الرواية من الاعتبار؟

هنالك مالا يحصىٰ من القرائن التي تجعل من الطبيعي نسب عبارة «هاهنا والله محطّ رِحالنا» إلى الإمام، وفرض كذب ابن الأعثم في سائر الموارد لا يعتبر

دليلاً علىٰ صحّة هذه المقولة، وليس هنالك ما يدعو إلىٰ تكذيب ابن الأعثم في إيراده لمقولة تنسجم وسائر الموازين العلمية والقرائن الخارجية، ولا يسعنا إلّا أن نردّ إصرار المؤلّف علىٰ التكذيب إلىٰ مبدئه الأساسي القائم علىٰ إنكار علم الإمام بمقتله في هذه الحادثة.

ومن المناسب هنا أن نشير إلىٰ نقطتين:

النقطة الأُولىٰ: ترىٰ الشيعة الإماميّة أن لا فرق بين الأئمّة الطاهرين عليهم السلام في جميع الامتيازات والفضائل، فهم متشابهون في القدرة والعلم وما إلىٰ ذلك من الصفات، وهنا نطرح هذا السؤال: ما الفرق بين أمير المؤمنين والحسين عليهما السلام؟ فإذا كان أمير المؤمنين عليه السلام عالماً بواقعة كربلاء، فما الذي يدعونا للقول بعدم علم الإمام الحسين عليه السلام بها، بحيث يكون هناك فارق في العلم بين الإمامين؟ ولعلّ هناك من يقول:

أوّلاً: لقد نقل أمير المؤمنين عليه السلام هذه المقولة كرواية أو حكاية عن رسول الله صلى الله عليه وآله، فما الضير ألّا يكون الإمام الحسين عليه السلام قد سمعها من النبي صلى الله عليه وآله؟

ثانياً: لقد تطرّق أمير المؤمنين عليه السلام إجمالاً لهذه الحادثة، ولعلّه لم يقف علىٰ تفاصيلها ولا يعلم أنّها بشأن ولده الحسين عليه السلام.

فنقول في الجواب:

أوّلاً: لم يتعرّض لها المؤلّف كرواية أو حكاية عن رسول الله صلى الله عليه وآله، بل اعتمدها المؤلّف كنقل آخر من قبيل كونها نبوءة لأمير المؤمنين عليه السلام فقط.

ثانياً: يفيد ظاهر الكتاب أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان مطّلعاً علىٰ تفاصيل الواقعة وأنّها بشأن ولده الحسين عليه السلام، وفي هذه الحالة يبقىٰ سؤالنا قائماً: كيف نقول بالفارق بين إمامين مفترضي الطاعة فنثبت لأحدهما من العلم ما ليس للآخر؟!

النقطة الثانية: من المسلّم لديك أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قد أشار إجمالاً في معركة صفّين إلىٰ هذه الواقعة ولم يصرّح بشيء بخصوص ولده الحسين عليه السلام، في حين

أفادت المصادر والروايات أنّه صرّح بـإسم ولده الحسـين عليه السلام وبحـضوره، وقـد وردت أغلب هذه الروايات في كتاب البحار للعلّامة المجلسي رحمه الله في المجلّد الأربع والأربعين ص ٢٥٢ ـ ٢٦٦، ونكتفي هـنا بـذكر روايـة واحـدة تـدحض قـضية الإجمال:

فقد قال العلّامة المجلسي رحمه الله: «وروي في بعض الكتب المعتبرة عن لوط بـن يحيىٰ[1] عن عبدالله بن قيس قال: كنت مع مَن غزا مع أمير المؤمنين عليه السلام في صـفّين وقد أخذ أبو أيّوب الأعور السلمي الماء وحرزه عن الناس، فشكـىٰ المسـلمون العطش، فأرسل فوارس علىٰ كشفه فانحـرفوا خائبين، فضاق صـدره، فـقال له ولده الحسين عليه السلام: أمضي إليه يا أبتاه؟ فقال: إمضِ يا ولدي، فمضىٰ مع فوارس فهزم أبا أيّوب عن الماء، وبنىٰ خيمته وحطّ فوارسه، وأتىٰ إلىٰ أبـيه وأخـبره، فـبكىٰ علي عليه السلام، فقيل له: ما يبكيك يا أمير المؤمنين وهذا أوّل فتح ببركة الحسـين عليه السلام؟ فقال: ذكرت أنّه سيُقتل عطشاناً بطفّ كربلاء حتّى ينفر فرسه ويحمحم...»[2].

ولعلّ المؤلّف يقول: ليس هناك من منافاة بين هذه الرواية وما ذكرته، فـقد قلت بأنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يتطرّق إلىٰ ذكر الحسـين عليه السلام خـلال مـروره بأرض كربلاء متوجّهاً إلىٰ صفّين، ولعلّه صرّح بذلك حين المعركة، فأقول: لو سلّمنا ذلك، فالتصريح بالإسم خلال المعركة هل يـبقي هـنالك مـن مجـال للإجمـال، أو ليس التصريح موضحاً للإجمال؟

نتيجة الأدلّة:

كانت الأدلّة السـابقة نمـاذج تـثبت عـدم إمكـانية تـصديق المـؤلّف لعـلم

---

(١) لوط بن يحيىٰ هو أبو مخنف الذي يروي عنه الطبري، وقد أدرك زمان الإمام الصادق عليه السلام.

(٢) بحار الأنوار ٤٤: ٢٦٦ ح ٢٣.

الإمام عليه السلام بشهادته في هذه الحادثة، الأمر الذي دوّن من أجله الكتاب.

وبالالتفات إلىٰ ما أوردناه سابقاً فلعلّ هنالك من يقول بأحد الموضوعين التاليين:

الموضوع الأوّل:

لقد ألّف كتاب شهيد جاويد بغضّ النظر عن علم الإمام عليه السلام بالشهادة في هذه النهضة، وهو عبارة عن دراسة دقيقة تثبت نهضة الإمام علىٰ أسس عقلائية ومنطقية من خلال المعادلات الطبيعية.

الموضوع الثاني:

قد يُقال: وهل العلم بالشهادة في هذه النهضة من ضروريات المذهب بحيث يدعو إنكاره إلىٰ مثل هذه الضجّة؟ فما الضير ألّا يكون الإمام عالماً بموضوع قد يكون من المسلّمات؟!

جواب الموضوع الأوّل:

١ ـ إذا كان هناك انسجام بين الدراسة التي تناولها الكتاب وعلم الإمام، ورأيتم أنّها ليست منسجمة فحسب، بل بالتوجّه إلىٰ ما ذكر من أنّ علم الإمام يمكن جمعه مع الحركة المنطقية والعقلائية للإمام، فما الحاجة لصرف النظر هذا؟ في الواقع يعتبر صرف النظر هذا اعترافاً صريحاً يتعذّر معه الجمع بين الكتاب وعلم الإمام، وأنّ مضمون الكتاب قد دوّن علىٰ أساس عدم علم الإمام.

٢ ـ يمكن افتراض موضوع «غضّ النظر عن العلم» من وجهة نظر المباحث العلمية والدراسات العقلية السائدة بين العلماء، أمّا من ناحية الأُمّة فلا يمكن

قبوله؛ لأنّ الكتاب إنّما دوّن لغرض استفادتها، فليس للأُمّة أن تغضّ النظر عن علم الإمام وتدرس المباحث دون الأخذ بنظر الاعتبار ذلك العلم.

٣ـ أين ذكر الادّعاء بغضّ النظر عن علم الإمام بشهادته في النهضة من مباحث الكتاب أو مقدّمته، في حين لم ينس الكاتب الإشارة إلىٰ المواضيع التي ليست بذات أهمّية، أو لا يستحق موضوع علم الإمام عليه السلام بشهادته في هذه النهضة والذي تعتقد به الأُمّة الإسلامية إذا غضّ الكتاب طرفه عن ذكره بحيث دوّن بما يتنافى وذلك العلم من ذكر تلميح أو تصريح في أوّل صفحة من الكتاب؟

٤ـ هل من فائدة تُذكر لكتاب أسّس بنيانه علىٰ فرض غير صحيح ومخالف للواقع؟ يمكن أن يُقال: إنّ فائدته كما ذكرنا في الصفحة السادسة هو دراسة النهضة الحسينيّة علىٰ المستوىٰ العالمي غير الشيعي إلىٰ جانب نفعه لأهل الإيمان من خلاله اعتماده الموازين العُقلائية.

والجواب: لو أذعنّا لهذا الزعم، كان لابدّ أن ينشر الكتاب بإحدىٰ لغات العالم الحيّة ويقتصر علىٰ العالم البعيد عن التشيّع، ولا ينبغي أن يطّلع عليه العالم الشيعي فتجرح مشاعره، وللزم من ذلك أن يقول: إنّنا نقدّم هذا الكتاب للعالم غير الإسلامي، بدلاً من العبارة التي ذكرها في ص٧: «إنّنا نقدّم هذا الكتاب إلىٰ المجتمع الإسلامي وغير الإسلامي بصفته فرضية تأريخية حول نهضة الإمام الحسين عليه السلام».

جواب الموضوع الثاني:

لا بأس هنا من الالتفات إلىٰ بعض المواضيع المهمّة وإن تعرّضنا لشرحها آنفاً:

١) هل يقتصر علم الأئمّة الأطهار عليهم السلام علىٰ أحكام الإسلام وتعاليم الدين وقوانين الشرع بالاستناد إلىٰ الاجتهاد في القرآن الكريم وسنّة النبي صلى الله عليه وآله، أم أنّهم

مفسّرون للقرآن ولهم معرفة تامّة بالغيب وأسرار وبطون القرآن والأحكام والسنّة النبويّة؟

٢) هل الإمام عالم بالموضوعات وتفاصيلها أم لا؟ والاعتقاد بهذا الأمر جزء من ضروريات المذهب أم لا؟ وهل الموضوعات علىٰ درجة واحدة، أم هنالك فوارق بينها؟

٣) إذا افترضنا عدم علم الإمام بالموضوعات، ولم يكن الاعتقاد بهذا الأمر من ضروريات الدين، فهل الإمام الحسين عليه السلام كان عالماً بوقائع حادثة كربلاء في نهضته أم لا؟

هذه أسئلة يبدو أنّ دراستها وتحقيقها في غاية الأهمّية، وأهمّها هو السؤال الثالث الذي يجب دراسته حتّى تنكشف حقيقة الأمر ويزال الالتباس عن ذهنيّة الأُمّة المسلمة المناصرة لرسالة الإمام وإبعاد الشبهات عن نهضة سيّد الشهداء عليه السلام، التي ـ لا سمح الله ـ ستؤدّي إلى التقليل من أهمّية مقام الولاية.

وإليك جواب السؤال الثالث:

جواب السؤال الثالث :

أوّلاً: إذا افترضنا جدلاً بعدم علم الأئمّة الأطهار عليهم السلام بالحوادث والموضوعات، وقلنا من وجهة نظر المباني الدينيّة: إنّ الاعتقاد به ليس ضروريّاً، ولكن لا يمكن هنا إنكار حقيقة، وهي أنّه لا يمكن إخضاع كافّة الموضوعات لمقياس واحد، فإذا افترضنا أنّ الإمام لا يعلم اسم الشخص الفلاني، أو أين تقع الأرض الفلانية، أو وجود الكهرباء، فهذه الأُمور لا تمتّ بصلة من قريب أو بعيد إلىٰ أساس الإسلام ومصير الأُمّة الإسلامية. ولكن هل لنا أن نفترض عدم علم الإمام بالموضوعات التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بسعادة المسلمين وحياتهم وتؤثّر

مباشرة علىٰ المسيرة الإسلامية؟ وهل يمكننا القول بصراحة بأنّه لايجب أن يحيط الإمام عليه السلام علماً بمثل هذه الأُمور؟

بالاستناد إلىٰ هذا التفكيك في الموضوعات، يبدو من الواضح ضرورة الاعتقاد من وجهة نظر الدين بأنّ مثل هذه الحوادث ليست بخافية علىٰ الإمام عليه السلام وإلّا تعرّض كيان الإسلام إلىٰ خطر السقوط والزوال، وعليه: فلا يمكن إصدار نفس الحكم بشأن كافّة الموضوعات.

فإن قُلنا أيضاً بعدم امتلاكنا للدليل علىٰ علم الإمام بهذه الحوادث وتشخيصه لها، فإنّنا لابدّ أن نعتقد بأنّ إمكان خطأ الإمام في تشخيصه لمثل هذه الحوادث من شأنه أن يسدّد بعض الضربات الموجعة إلىٰ الإسلام والمسلمين، فهل تجب طاعة واتّباع مثل هذا الإمام؟ أولا تنصرف الآية ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1] إلىٰ شيء آخر؟ أو لا تجب طاعة أُولي الأمر في الحوادث؟ هل تجب الطاعة للولي الذي يجوز عليه الخطأ؟

والآن نسأل هذا السؤال: واقعة كربلاء مِصداق لأيّ من الحوادث والموضوعات المذكورة آنفاً؟ هل هذه الواقعة المأساوية أمر جزئي لا مساس له بالإسلام والعالم الإسلامي؟ وهل كانت مصادمة عاديّة بين زعيم صالح وزعيم جبّار؟ أم أنّها كانت حادثة جوهرية ذات تأثير بالغ علىٰ مصير الإسلام؟

الجواب واضح تماماً، فلا شكّ أنّ حادثة كربلاء كانت حادثة بالغة الخطورة علىٰ الإسلام والمسلمين، وعلىٰ ضوء ما أوردناه فإنّ علم الإمام عليه السلام بهذه الحادثة يبدو منطقياً تماماً، كيف ينسب الجهل إلىٰ الإمام وأنّه ورد ميداناً لم يتكهّن به حتّى سبّب ذلك ضرراً علىٰ الإسلام حسب رأي البعض! وكيف يحمل يزيد وزر تلك الأضرار والخسائر ؟! وكيف تجب طاعة الإمام في هذه الحركة التي لم يكن

---

(١) سورة النساء: الآية ٥٩.

يعلم بعاقبتها؟!

يرىٰ المؤلّف أنّ الإمام لم يكن علىٰ علم بعاقبة تلك الأُمور! ثمّ حذا حذو الطبري في أنّه لو سُئل: أين نذهب؟ أين سننزل؟ ما عاقبة هذا الأمر؟ لما أجابهم إلّا بالقول: «لا ندري علىٰ ما تتصرّف بنا وبهم الأُمور». كما يرىٰ المؤلّف أنّ عاقبة الأمر لم تكن سوىٰ تلك الخسارة العظيمة التي سدّدها يزيد الفاسق إلىٰ الإسلام والمسلمين.

إذن، فهو يعتقد بأنّ الإمام قد ارتكب عملاً لا عن علم انطوىٰ علىٰ تلك النتيجة الخاسرة، إلّا أنّ الخسارة يتحمّلها يزيد وهو المسؤول عنها!

وعلىٰ هذا فإنّ الأفراد الذين تخلّفوا عن الركب وعلىٰ ضوء ذلك المصير معذورون في تركهم الإمام! هل هنالك من مسؤولية تقع علىٰ عبيدالله بن الحرّ الجعفي! طبعاً ليس أمامنا من سبيل سوىٰ الإذعان باطّلاع الإمام عليه السلام وعلمه بكافّة تفاصيل الحوادث.

طريق مغلق ؟!

لعلّ هنالك من يسألنا: لم تحشرون أنفسكم في طريق مسدود، فأنتم تقولون بأنّ الإمام عليه السلام كان عالماً بعاقبة النهضة، فإذا كان الأمر كذلك فكيف يلقي بنفسه في تلك التهلكة المميتة؟ كيف أقدم الإمام علىٰ تلك الحادثة ولم يتريّث رغم إضرارها بالإسلام والمسلمين؟ لِمَ لَمْ يستجب لنصائح ابن عباس ومحمّد بن الحنفية؟ ولِمَ لَمْ يتمكّن من التقى الإمام في مسيره عن ثني الإمام عن عزمه؟ فنقول في الجواب:

أوّلاً: أنّ حادثة كربلاء ليس فقط لم تضرّ بالإسلام والمسلمين، بل ـ سنثبت في الفصل القادم إن شاء الله ـ أنّ هذه الحادثة كانت الخطوة الأُولىٰ لاستعادة الإسلام حيويّته، كما كانت الضربة الموجعة التي وجّهت لحكومة يزيد الغاشمة.

وعليه: فالنهضة الحسينية كانت اللبنة الأساس لإقامة الحياة الإنسانية القائمة علىٰ أساس مفردات العزّة والكرامة والشجاعة ورفعة الإسلام والمسلمين.

ومن هنا فإنّ طاعة الإمام عليه السلام واجبة علىٰ كلّ مسلم وإنسان حرّ غيور، والتخلّف عنه وعدم الالتحاق به يعدّ أسوأ أنواع إلقاء النفس في التهلكة والقضاء علىٰ كيان الإسلام والمسلمين، والموت معه هو الموت من أجل العدل والحرية والإسلام والقرآن والتوحيد.

فحركة الحسين عليه السلام أنصع صفحة ذهبية في التأريخ علّمت الناس دروس التضحية والكفاح، وفضحت أساليب الأعداء وما يضمرون من شرٍّ وعدوان للإسلام، ولذلك فإنّ عزمه الذي يستند فيه إلىٰ المصلحة الإسلامية التي رسمها له الحقّ والنبيّ وأمير المؤمنين لم يكن ليضعف لأقوال ابن عباس وأمثاله، فهؤلاء لا يعلمون خطورة وظيفة الحسين عليه السلام؟ أمّا الإمام عليه السلام فقد كان يعلم أين يتّجه وماذا سيحدث.

ثانياً: هناك بعض الأسناد والوثائق التأريخية التي استدلّ بها المؤلّف، ونذكرها بأجمعها:

١) لقد نقل الطبري في تاريخه عن أبي مخنف لقاء الإمام لزهير بن القين وقال: «قال زهير لصحبه حين رجع من عند الإمام: مَن أَحبّ منكم أن يتبعني، وإلّا فإنّه آخر العهد. إنّي سأُحدّثكم حديثاً: غزونا بلنجر ففتح الله علينا وأصبنا غنائم، فقال لنا سلمان الباهلي: أفرحتم بما فتح الله عليكم وأصبتم من الغنائم؟ فقلنا: نعم، فقال لنا: إذا أدركتم شباب آل محمّد فكونوا أشدّ فرحاً بقتالكم معهم بما أصبتم من الغنائم، فأمّا أنا فإنّي أستودعكم الله، قال: ثمّ والله ما زال في أوّل القوم حتّى قُتل»[١].

إنّ هذا النقل من الطبري جدير بالتأمّل، فهو موثوق تماماً من حيث السند؛

(١) تاريخ الطبري ٤: ٢٩٩.

لأنّه يروي عن أبي مخنف الذي يرىٰ البعض أنّه يأبىٰ الخدش والطعن، وزهير هو ذلك الرجل الذي كان يتحاشىٰ لقاء الإمام حين رجع من مكّة بعد أن أدّىٰ مراسم الحجّ، إلّا أنّه التقىٰ الإمام صدفة، كان زهير يأبىٰ لقاء الإمام والالتحاق بركبه، فما الذي سمعه خلال ذلك اللقاء؟ وماذا رأىٰ؟ حتّى يعود إلىٰ خيمته ويودّع صحبه، أو لم يكن يدرك بأنّه سيرد ميداناً يحصل فيه على الشهادة؟ ألم يذكّره الإمام عليه السلام بتلك القصّة ويبيّن له حقيقة الأمر؟ أفقال له الإمام عليه السلام: إذا وقفت إلىٰ جانبي فإنّي لأرجو أن أنتصر وأستولي علىٰ الكوفة وستصبح من أعيانها وأشرافها في الحكومة؟ لو كان هذا ما قاله الإمام لزهير لما ودّع قومه وقال: إنّه آخر العهد، فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام قد أخبره بواقع الأمر.

إذن، فالإمام كان عالماً بعواقب الأُمور وقد أخبر بها زهير ووعده بالشهادة، وهذا هو الأمر الوحيد الذي من شأنه تفسير حديث زهير، ولم يكتف الرجل بهذا المقدار، بل تطرّق إلىٰ معركة بلنجر وحديث سلمان، وعليه: فسلمان كان يعلم بهذه الحادثة أيضاً، سلمان الفارسي[(١)] الذي تربّىٰ علىٰ يد رسول الله صلى الله عليه وآله.

ولا أُريد أن أقول بأنّ سلمان كان علىٰ علم بكلّ تفاصيل الحادثة، إلّا أنّه كان علىٰ يقين بتلك الواقعة المريرة علىٰ الحسين عليه السلام، وكان يعلم أنّ زهيراً أيضاً سيشارك فيها، وكان زهير أيضاً على يقين بأنّ المراد بالحديث كربلاء وشهادته هناك. فهل ما زال الإمام يفكّر بتحقيق النصر والقضاء علىٰ الحكومة الظاهرية ليزيد وتسلّم مقاليد الحكم؟ فسلمان كان يعلم بتلك الحادثة التي سيحصل فيها زهير على الشهادة دفاعاً عن إمام الإسلام والمسلمين، بينما ليس للحسين عليه السلام مثل هذا العلم وتفاصيل الحركة مجهولة بالنسبة له، وليس لديه ما يقوله سوىٰ: «لا ندري علىٰ ما تتصرّف بنا وبهم الأُمور».

---

(١) ذكر ابن الأثير في الكامل ٤: ٤٢ أنّه سلمان الفارسي، وكذا المفيد في الإرشاد ٢: ٧٣ وغيرهما.

٢ ـ نقل ابن الأثير في الكامل حادثتين، وسنورد عباراته ثمّ نناقشها، فقد قال: «فلمّا أتىٰ الحسين خبر قتل أخيه من الرضاعة ـ في منزل زُبالة ـ ومسلم بن عقيل ـ في منزل الثعلبية ـ أعلم الناس ذلك وقال: قد خذلنا شيعتنا، فمن أحبّ أن ينصرف فلينصرف ليس عليه منّا ذمام، فتفرّقوا يميناً وشمالاً حتّى بقي في أصحابه الذين جاؤا معه من مكّة، وإنّما فعل ذلك لأنّه علم أنّ الأعراب ظنّوا أنّه يأتي بلداً قد استقامت له طاعةُ أهله فأراد أن يعلموا علامَ يقدمون.

ثمّ سار حتّى نزل بطن العقبة، فلقيه رجل من العرب فقال له: أنشدك الله لما انصرفت، فوالله ما تقدم إلّا علىٰ الأسنّة وحدّ السيوف، فإنّ هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤونة القِتال وطّؤا لك الأشياء فقدمت عليهم لكان ذلك رأياً، فأمّا على هذه الحال التي تذكر، فلا أرىٰ أن تفعل، فقال: إنّه لا يخفى عليّ ما ذكرت، ولكنّ الله ـ عزّ وجل ـ لا يغلب علىٰ أمره، ثمّ ارتحل منها»[1].

فالذي نخلص إليه هو أنّ الإمام عليه السلام لم يشعر بأيّ تردّد حين أخبر بقتل رسوله مسلم بن عقيل ولم تضعف إرادته، ثمّ يواصل مسيرته رغم تصريحه بعدم وجود جيش لنصرته في الكوفة وأنّ أشياعه لم يفوا بعهودهم، فهل يفهم من كلامه عليه السلام: «خذلنا شيعتنا» أنّ البعض قد تخلّىٰ عن نصرتنا؟ أم قصده زال مركز ثقلنا ولم نعد نمتلك القوّة الشعبية الموالية هناك؟ وما إن سمع البعض مقالة الإمام حتّى تفرّقوا يميناً وشمالاً، فهل بقي من أمل بالنصر فلم تقطع الصلة لحدّ الآن بين القيادة والجيش؟ أفلا يعني رفع البيعة والتخيير بالبقاء والانسحاب أنّ باب النصر قد أُغلق؟ فلِمَ واصل الإمام حركته ولم يتردّد حتّى بلغ كربلاء! لِمَ رجع مَن التحق به في الطريق ممّن يبحثون عن الطعام الدسم، بينما واكبه من انطلق معه من مكّة ممّن سمع خطبته

(١) الكامل لابن الأثير ٤: ٤٣.

«خُطّ الموت...»(١) وقد أُحيطوا علماً بالحوادث والوقائع التي لم تزيدهم سوىٰ قوّة وصلابة؟ أوَ لا يعني انصراف ذلك النفر استحالة النصر وبقاء أولئك الأصحاب لعلمهم منذ البداية بتلك الحادثة المروّعة؟

ثمّ أخذت الأخبار المحزنة تتقاطر عليهم، حتّى إذا بلغوا العقبة، انبرىٰ لهم ذلك الرجل العربي البليغ الذي صوّر للإمام أوضاع الكوفة «أنشدك الله لما انصرفت فوالله ما تقدم إلّا علىٰ الأسنّة وحدّ السيوف...» إلّا أنّ هذا الكلام المنطقي لم يكن له أدنىٰ أثر علىٰ إرادة الإمام حتى قال: «ولكن الله عزّوجلّ لا يغلب علىٰ أمره»، أي هناك وظيفة لابدّ أن أقوم بها وليس لي من إرادة مقابل إرادة الله، فهل ما زال الإمام عليه السلام لا يعلم عواقب الأُمور راجياً النصر وتشكيل الحكومة الإسلامية فيواصل مسيرته، أم كان هناك شيء آخر يدفع الحسين عليه السلام ؟

لقد ردّ الإمام عليه السلام علىٰ ذلك الرجل: أنّه لا يخفىٰ علينا ما ذكرت إلّا أنّ طريقنا لا يعرف الرجوع، وليس لي سوىٰ التسليم للحقّ، فالله لا يغلب علىٰ أمره. فهنالك رسالة مُلقاة علىٰ عاتقي ولابدّ لي من النهوض بها، أولم يتحدّث الإمام عن مشيئة الله؟ أفلم يكن عالماً بشهادته؟ الشهادة التي أرادها الله لحسين عليه السلام فتقبّلها بقبول حسن.

نعم، لم يكن هناك من شيء خافياً علىٰ الحسين عليه السلام، ولم يكن هناك من عامل يمكنه أن يثني الإمام عن عزمه، حيث نراه يحثّ الخطى بعد ذلك الحوار ليواصل مسيرته ويقوم بوظيفته.

٣ ـ أورد ابن الأثير في الكامل قصّة الأفراد الأربعة الذين أتوا الإمام عليه السلام من الكوفة والتقوه في «عذيب الهجانات» فقال بعد أن ذكر التفاصيل: «فقال لهم الحسين: أخبروني خبر الناس خلفكم، فقال له مجمع بن عبدالله العائذي وهو

---

(١) يأتي في ص ٢٣٢.

أحدهم: أمّا أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم، وملئت غرائره فهم أَلْبٌ واحد عليك، وأمّا سائر الناس فإنّ قلوبهم تهوي إليك وسيوفهم غداً مشهورة عليك، وسألهم عن رسوله قيس بن مِسهر، فأخبروه بقتله وما كان منه، فترقرقت عيناه بالدموع ولم يملك دمعته، ثمّ قرأ: ﴿فَمِنْهُم مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾[1]، اللّهمّ اجعل لنا ولهم الجنّة، واجمع بيننا وبينهم في مستقرّ رحمتك وغائب مذخور ثوابك»[2].

فالذي نخلص إليه من هذا الحوار واستشهاد الإمام عليه السلام بالآية، هو أنّ الإمام أشار إلىٰ هدفه في إحقاق الحقّ وإجابة دعوة أهل الكوفة، فقد كان أوّل سؤال سأله أولئك الأفراد هو خبر أهل الكوفة وحالتهم الروحية، هل هم متأهّبون لدخولنا؟ إلّا أنّ إجابتهم كانت مثبّطة، فقد وقفت الآلاف التي بعثت لك برسائلها إلىٰ جانب العدوّ، فالأشراف قد أعظمت رشوتهم، أمّا الضُعفاء فهُم متعطّشون لبسط العدل والقسط، ولكن ليس لديهم القدرة علىٰ اتّخاذ القرار في المجتمعات الفاسدة، فالضعف الماليّ والحرمان وضعف الإرادة تجعلهم خاضعين لإرادة الدولة، فهم مع الإمام قلباً وضدّه سيفاً، فإذا قلنا: ما زال الإمام حتّىٰ في ظلّ هذه الظروف يأمل بتحقيق النصر، لا نرىٰ أيّ منطق وعقل يوافقنا علىٰ ذلك، مع ذلك لم تتزلزل إرادة الإمام عليه السلام ولم ينثنِ عن عزمه ومواصلة مسيرته.

ومن هنا يعلم بأنّ هناك هدفاً أسمىٰ يسعىٰ الإمام إلىٰ تحقيقه، فالإمام عليه السلام لم يقترح علىٰ الحرّ الرياحي الرجوع والانصراف، في حين لم يكن الحرّ يعلم بهدف الإمام، وأولئك القادمون من الكوفة كانوا يظنّون أيضاً بأنّ الحسين عليه السلام إنّما يروم السيطرة علىٰ الكوفة، ولذلك أشاروا عليه بالانصراف، بينما كان الإمام عالماً بما

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢٣.

(٢) الكامل لابن الأثير ٤: ٤٩ ـ ٥٠.

أخبره رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام ولذلك حين يخبر بشهادة قيس يتلو ﴿فَمِنْهُم مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَنْ يَنْتَظِرُ...﴾.

فمنشأ هذه الأسئلة وتلاوة الآية هو ما ذكرناه من غرض الإمام عليه السلام في إسقاط حكومة الجور والظلم وإعلام العالم بأنّنا نريد تطبيق القرآن وأحكام الإسلام، ولذلك عزمنا علىٰ الإطاحة بهذه الزعامة الفاسقة، فإن قتلنا فذنبنا هو أنّنا نريد إعلاء كلمة الله. وإنّا لعالمون بأنّنا لا نتمكّن من تحقيق أهدافنا سوىٰ بالقتال والشهادة، فقد سأل أربعة أفراد من أهل الخبرة ـ أجوبتهم تدلّ علىٰ أنّهم من أهل الخبرة ـ ليدلوا بشهادتهم علىٰ عدم استعداد أهل الكوفة وجيشها لمواكبة مسيرة الإمام فلا من عدد ولا عدّة، وبالنتيجة لتعلم الدنيا بأنّ الحسين عليه السلام لبّىٰ دعوة الأُمّة، في حين لم تصمد الأُمّة وتمارس وظيفتها وهو فقط الذي واصل مسيرته حتّى الشهادة، وما زال هدفه لم يتحقّق إلّا بالشهادة التي أخبرها به جدّه وأبوه.

إذن، فالدافع من السؤال عن أهل الكوفة إقرار خبراء الاجتماع بالأوضاع الاجتماعيّة التي يعيشها أولئك الناس واستماتتهم في الدفاع عن حكومة يزيد حتّى لا تصدر محكمة التأريخ أحكامها جزافاً، وتعلم بأنّ هنالك علّة لم تدع الإمام ينصرف عن مواصلة حركته، العلّة التي لا يعرفها الناس بينما يعلمها الإمام، والتي يكشف السؤال عن قيس وتلاوة الآية سرَّها في عدم تسليم الإمام والانسحاب من الميدان والقتال حتى الشهادة، وما إن يتلو الإمام الآية حتّى يبتهل «اللهمّ اجعل لنا ولهم الجنّة».

٤ ـ جاء في الإرشاد للمفيد: «روىٰ سالم بن أبي حفصة قال: قال عمر بن سعد للحسين عليه السلام: يا أبا عبدالله إنّ قِبلنا ناساً سفهاء يزعمون أنّي أقتلك، فقال له الحسين عليه السلام: إنّهم ليسوا بسفهاء ولكنّهم حلماء، أما إنّه تقرّ عيني ألّا تأكل من برّ

العراق بعدي إلّا قليلاً»[١].

فالقصّة مثيرة حقّاً، كيف أخبر هؤلاء الناس بقضية عمر بن سعد؟ لِمَ طُرح ابن سعد كقاتل للإمام الحسين؟ كان سلوك عمر يوحي بصلاح ظاهره، فلم يكن آنذاك ما يشير إلىٰ اقترافه هذه الجريمة البشعة، فكيف اتّفق الناس علىٰ أنّه قاتل الحسين؟ فهل ذلك سوىٰ ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام لأبيه سعد بن أبي وقّاص؟ وكانت مقالة علىٰ درجة من الجزم بحيث كان الجميع يناديه بقاتل الحسين حين يروه في الأزِقّة والأسواق، حقّاً ليس هناك شيء آخر، فسيأتي اليوم الذي يرتكب فيه هذا الفرد ـ الذي لا يفارق زيفاً الجماعة ـ تلك الجريمة ويسوّد وجه التأريخ.

أمّا عمر بن سعد فقد كان مطمئناً لنفسه بحيث يهزأ بكلّ مَن يتفوّه بذلك الكلام، ولا يراه إلّا سفيه خفيف العقل، حتّىٰ ظنّ بأنّ اللغط قد كثر وأنّه لم يطق التحمّل فيحدّث الإمام عليه السلام بذلك الحديث: «إنّ قِبلنا ناساً سُفهاء» كيف لي أن أكون قاتلاً؟ ولم أُقارف أيّ جرم لحدّ الآن! فهل هذا إلّا منطق السفه والسخف؟

أمّا الإمام عليه السلام فردّ عليه قائلاً: «هؤلاء ليسوا سُفهاء بل حلماء»، يعلمون قاتل إمامهم، ويرون تلطّخ يدك بدمي.

هذا هو الحوار بين الإمام الحسين عليه السلام وعمر بن سعد منذ زمان بعيد عن الطفّ، فالإمام يصدّق ما قالوه، ويفهم قاتله بأنّه عالم بما ستؤول إليه الأحداث، ولو كانت الأُمّة تعلم هذه الأُمور علىٰ نحو الإجمال فإنّ الحسين عليه السلام محيط بالتفاصيل، فيخبره بما ينتظره. فالعراق مذبحي وميدان صولتك. وستقدم علىٰ قتلي طمعاً بدنيا الريّ إلّا أنّك لا تبلغ ما ترجو. إنّك لن تعمّر بعدي وستدخل النار بقتلي.

ولك أن ترىٰ ـ عزيزي القارئ ـ ما أورده مؤلّف كتاب «شهيد جاويد» وله

---

(١) الإرشاد ٢: ١٣٢.

نفسه أن يراه، هذا الحوار بين الحسين وعمر بن سعد، فقد كانعليه السلام عالماً بتفاصيل واقعة كربلاء، فالأُمّة كانت تعلم بأنّ الحسينعليه السلام يقتل في المعركة وقاتله عمر بن سعد، أمّا الحسينعليه السلام فقد كان يعلم دافع عمر بن سعد من قتله، كما كان يعلم بأنّ ابن سعد سوف لن يظفر ببغيته، فهل يمكن بعد هذا أن تزعم بأنّ الإمام لم يكن يعلم بتلك الحادثة؟ أو أنّه يعلم بشهادته ولكن ليس في هذه النهضة؟ فكلّ هذه الأسرار عرضها الحسين لعمر بن سعد ثمّ قال بأنّه لم يكن يعلم، حتّى حين اقترب من كربلاء بحيث لو سُئل: أين نذهب، وماذا سيحصل، وأين سننزل وما العاقبة؟ لأجاب: «لاندري علىٰ ما تتصرّف بنا وبهم الأُمور؟!» أو نقول: احتمل الأصحاب أخيراً حين وردوا كربلاء أنّ المعنيّ بقول أمير المؤمنينعليه السلام أنّ المقتول من أهل البيت بكربلاء هو الحسينعليه السلام».

٥ ـ خطبة «خُطّ الموت...»

«خُطّ الموت علىٰ ولد آدم مخطّ القلادة علىٰ جيد الفتاة، وما أولهني إلىٰ اشتياق أسلافي اشتياق يعقوب إلىٰ يوسف، وخُيِّر لي مصرع أنا لاقيه، كأنّي بأوصالي تقطّعها عُسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء، فيملأن منّي أكراشاً جوفاً وأجربة سغبا، لا محيص عن يوم خُطّ بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر علىٰ بلائه، ويوفّينا أُجور الصابرين، لن تشذّ عن رسول الله لحمته، بل هي مجموعة له في حظيرة القدس، تقرّبهم عينه وينجز بهم وعده، من كان باذلاً فينا مهجته وموطّناً علىٰ لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فإنّي راحل مصبحاً إن شاء الله»[١].

أفلا تفيد هذه العبارة «كأنّي بأوصالي...» التي أوردها الإمام في

(١) الملهوف لابن طاووس: ١٢٦، مثير الأحزان: ٤١، كشف الغمّة ٢: ٢٩، وعنها بحار الأنوار ٤٤: ٣٦٦ـ٣٦٧.

مكّة ـ حسب ما نقل في اللهوف ـ علم الإمام بمصيره؟ وإضافة إلىٰ ذلك، ألا تكشف عن مكان مصرعه وشهادته؟ قد يُقال بأنّ الإمام إنّما أورد هذه الخطبة في يوم عاشوراء حين أصبحت شهادته حتمية، لا أنّه أوردها في مكّة فنقول: لعلّ الإمام عليه السلام أورد خطبتين: أحدهما حسب نقل اللهوف في مكة، والأُخرىٰ حسب مقتل الخوارزمي[1] في كربلاء، ولعلّ الاختلاف في المضمون يؤيّد ما ذهبنا إليه، وكما ترد نفس المضامين والألفاظ مع قليل من التغيير في القرآن ونهج البلاغة؛ فإنّ هذا الأمر يفيد مقصوداً آخر يختلف عن السابق، ولعلّ خطبة الإمام عليه السلام تكرّرت من أجل إفادة مقصد خاصّ، كما يمكننا القول بأنّ الخطبة واحدة وقد أوردت في مكّة، وهنالك عدّة أُمور للترجيح منها:ـ

١) تصريح صاحب اللهوف بإيراد الخطبة في مكّة، بينما لا يصرّح الخوارزمي بإيرادها في عاشوراء، بل أوردها ضمن أحداث عاشوراء.

٢) ما المرجّح لنقل الخوارزمي علىٰ نقل اللهوف، بحيث يميل المؤلّف إلىٰ صدورها في عاشوراء؟ بل الترجيح للّهوف حيث نقل المحقّق الجليل والفقيه الكبير والمحدّث الشامخ المرحوم الحاج الميرزا محمّد أرباب الإشراقي في كتابه القيّم «الأربعين الحسينية» أنّ هذه الخطبة قد رُويت عن عدد كثير من عُلماء الإمامية ومنهم السيد بن طاووس في كتاب اللهوف والشيخ جعفر بن محمّد المعروف بابن نما والشيخ علي بن عيسىٰ في كتاب كشف الغمّة، وقد صرّح الجميع بأنّ الإمام عليه السلام ألقىٰ هذه الخطبة حين عزم علىٰ الخروج من مكّة إلىٰ العراق.

---

(١) «أيُّها الناس خطّ الموت علىٰ بني آدم كمخطّ القلادة علىٰ جيد الفتاة، وما أولعني بالشوق إلىٰ أسلافي اشتياق يعقوب إلىٰ يوسف؛ وإنّ لي مصرعاً أنا لاقيه كأنّي أنظر إلىٰ أوصالي تقطّعها وحوش الفلوات غبراً وعفراً، قد ملأت منّي أكراشها، رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر علىٰ بلائه ليوفّينا أجور الصابرين، لن تشذّ عن رسول الله لحمته وعترته، ولن تفارقه أعضاءه، وهي مجموعة له في حظيرة القدس تقرّ بها عينه، وتنجز له فيه عدته. (مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي ٢: ٨).

٣ ـ يحكم الذوق السليم والمعرفة بالفصاحة العربية بأنّ عبارة اللهوف أفصح وأقدم من عبارة الخوارزمي، فإسنادها إلىٰ الإمام أنسب، كما أنّ ابن طاووس صرّح بأنّ الخطبة قد وردت في مكّة، ولا يسع المؤلّف إلّا أن يقول بأنّ العبارة التي وردت في اللهوف «فإنّي راحل مصبحاً» دليل علىٰ أنّ الخطبة أو البعض منها «مَن كان باذلاً مهجته» ـ التي وردت في اللهوف ولم ترد في الخوارزمي ـ لم ترد في مكّة، وذلك لأنّ حركة الإمامعليه‌السلام كانت عند زوال يوم التروية لا صباحاً، إضافة إلىٰ أنّ الحركة لم تقرّر قبل ليلة، بل بحكم الجبر والاضطرار فإنّ الإمام عزم علىٰ الحركة فجأة، ولم تكن هناك من وقفة بين العزم والحركة.

ونقول في الجواب: ليس هناك من منافاة بين الحركة عند الزوال وكلمة «مصبحاً»؛ لأنّ هذه الكلمة كثيرة الاستعمال بمعنى «غداً» ومن أين يعلم أنّ الإمامعليه‌السلام لم يعزم علىٰ الحركة عندما رأىٰ نفسه مضطرّاً؟ بل كان الإمام مستعدّاً للإتيان بمناسك الحجّ والتوجّه إلىٰ عرفة، ولم يكن هنالك أيّ قرار مسبق بالحركة إلىٰ العراق قبل زوال يوم التروية، لقد نقلت أنت هذا الموضوع من إرشاد المفيد والطبري، والحال أنّه:

أوّلاً: في قبال المفيدرحمه‌الله والطبري هناك عدد كبير من العلماء والفضلاء ـ ممّن ذكرناهم سابقاً ـ صرّحوا بأنّ العزم علىٰ الحركة كان منذ الليلة التي سبقتها، وليس هنالك ما يدعونا لاعتماد نقل المفيد وإهمال نقل اللهوف وسائر المشاهير.

ثانياً: ما يفيده الإرشاد وتأريخ الطبري أنّ حركة الإمام كانت عند زوال يوم التروية بعد الخروج من الإحرام، وليس هنالك من تعرّض إلىٰ وقت العزم علىٰ الحركة وزمان الخروج من مكّة، بل نقل الطبري عن أبي مخنف أنّ حسيناً لمّا أجمع المسير إلىٰ الكوفة أتاه عبدالله بن عباس فقال: يابن عمّ، أُشيع بين الناس أنّك ذاهب إلىٰ العراق؟ فأجابهعليه‌السلام: لقد عزمت علىٰ المسير منذ اليوم أو يومين إن شاء

الله. فتكلّم ابن عباس عن هذا الأمر وانصرف، ثمّ عاد إليه عند الليل أو الغد وأبدىٰ له نصائحه بالانصراف عن هذا السفر[١]. أوَلا تصرّح هذه القصّة ـ التي نقلها الطبري عن أبي مخنف ـ بأنّ العزم علىٰ الحركة كان قبل يوم أو يومين؟ فلماذا نقول: كانت الحركة مفاجأة وقد دفعه الاضطرار إلىٰ ذلك، حيث كان قصده الأساسي الإتيان بمناسك الحجّ، وعليه: يمكن الجمع بين إيراد الخطبة في الليل مع الحركة صباحاً والعزم عليها، وهذا ما حصل في الواقع، وذلك لأنّه عزم علىٰ الحركة في الليل وأورد الخطبة.

سؤال:

إذا كان الإمام عليه السلام عازماً على الحركة قبل يوم أو يومين وكان يعلم أنّه لا يتوقّف في مكّة حتّى إتمام مناسك الحجّ، فلِمَ أحرم للحجّ واتّجه إلى عرفة؟

جوابه:

أنّ عمل الإمام عليه السلام هذا يستند إلىٰ مصلحة، ورغم أنّه قرّر الحركة وكان يعلم بعدم أدائه لكافّة أعمال الحجّ، كان من الضروري أن يحرم للحجّ وينضمّ إلى الجماعة الإسلاميّة في تلك المراسم، ثمّ يبدّل إحرام الحجّ عمرة ليعلم الناس أن ليس هنالك من حصانة له في ظلّ هذه الحكومة الغاشمة، وليس له أمن في الحرم الآمن الذي تؤمن فيه الحيوانات، وهكذا يكشف الإمام عليه السلام عن بعض خطط هذه الحكومة ومؤامراتها والتي تهدف إلى إحياء العهد الجاهلي، ولتعلم الأجيال الإسلامية القادمة بسلب أمن الحرم من قبل هذه الحكومة، وأنّها لم تمهله حتّى لأداء مناسك الحجّ. أضف إلى ذلك أنّه ليس من المعلوم أنّ الإمام عليه السلام أحرم للحجّ،

(١) تاريخ الطبري ٤: ٢٨٧.

بل يستفاد من رواياتنا وكذلك تأريخ الطبري[1] أنّه أحرم للعمرة، ولم يكن قد عزم على الحجّ منذ البداية.

أجل، فإنّ هذا الكلام يفيد عدم الترديد في خطبة «خطّ الموت...» حسب نقل اللهوف.

المؤلّف والإقرار بالعلم:

نفترض ـ مماشاة للمؤلّف ـ أنّ هناك تقطيعاً في الخطبة وأنّ الإمام عليه السلام لم يورد «من كان باذلاً فينا مهجته» في مكّة، إلّا أنّه يتّفق معنا في أنّ هذه العبارة «وكأنّي بأوصالي...» قد أوردها في مكّة، وهنا نسأل المؤلّف: أو لا تدلّ هذه العبارة علىٰ شهادة الإمام في هذه الحركة؟ أو لا تكشف أيضاً عن موضع الشهادة؟ هل هناك

(١) ١ ـ جاء في كتاب وسائل الشيعة ج ١٤ ص ٣١٠ عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن محمّد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان، عن حمّاد بن عيسى، عن إبراهيم بن عمر اليماني، عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه سُئل عن رجل خرج في أشهر الحجّ معتمراً ثمّ خرج إلىٰ بلاده، قال: لا بأس، وإن حجّ من عامه ذلك وأفرد الحجّ فليس عليه دم، وإنّ الحسين بن عليّ عليهما السلام خرج يوم التروية إلى العراق وكان معتمراً.

٢ ـ وعنه، عن أبيه، عن إسماعيل بن مرار، عن يونس، عن معاوية بن عمّار، قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: من أين افترق المتمتّع والمعتمر؟ فقال: إنّ المتمتّع مرتبط بالحجّ، والمعتمر إذا فرغ منها ذهب حيث شاء وقد اعتمر الحسين عليه السلام في ذي الحجّة ثمّ راح يوم التروية إلى العراق والناس يروحون إلىٰ منى، ولابأس بالعمرة في ذي الحجّة لمن لا يريد الحجّ.

٣ ـ في تاريخ الطبري ٤: ٢٨٩ أنّه وروي أبو مخنف أنّ الحسين عليه السلام طاف عند الظهر بالبيت وبين الصفا والمروة وقصّ من شعره وحلّ من عمرته، ثم توجّه نحو الكوفة.

نعم، يشمّ من عبارة المفيد في الإرشاد ٢: ٦٧، أنّ الحسين عليه السلام أحرم للحجّ ثمّ أبدلها للعمرة، ولكن لا اعتبار لهذه الرواية أمام الروايات المذكورة، فإحرام الإمام عليه السلام كان للعمرة ولم يبدأ بمناسك الحجّ، وقد حصل مراد الإمام عليه السلام، لأنّ عدم الاشتراك في مراسم الحجّ لمن أقام أشهراً في مكّة ولا تستغرق المناسك سوىٰ بضعة أيّام يفيد إبرازه لموقفه حيال الجهاز الحاكم وفضح سياسة يزيد القائمة على أساس انتهاك الحرمات وسلب الحرم الإلٰهي أمنه، فأفهم عليه السلام الأمّة أنّ يزيد وبدلاً من إحياء شعائر الله وتعظيمها يهدف ترويع ابن رسول الله صلى الله عليه وآله في مركز التوحيد لا لذنب سوى اتّباعه للحقّ والقرآن.

من معنىٰ لأن يقول الإمام في عاشوراء: «كأنّي بأوصالي تقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء؟!» أو ليست العبارة تكهّن ونبوءة عن أمر خفيّ سيحدث قريباً بين النواويس وكربلاء؟

وهنا نسأل: أو لا تدلّ هذه العبارة علىٰ علم الإمام عليه السلام؟ لو كانت هذه الحادثة ستقع بعد عشر سنوات فهل يصحّ من الإمام أن يطلق الآن في حركته عبارة «كأنّي بأوصالي...»؟ بل هل يعقل إطلاق مثل هذه العبارة في هذا الوقت؟

إذا كان الأمر كذلك فإنّ لسان حال الإمام هو أنّي سأتّجه إلىٰ الكوفة من أجل الإطاحة بحكومة يزيد، ولا أدري هل سأحقّق هذا الهدف أم لا؟، إلّا أنّي أرجو النصر، أيّها الناس ـ الذين تهبّون لنصرتي ـ اعلموا بأنّي سأُقتل بعد عشر سنوات في كربلاء.

نحن لا يسعنا أن نتأمّل خطبة الإمام عليه السلام بهذا الشكل، فكيف تقيّم أنت الخطبة؟ علىٰ كلّ حال؛ فإنّ خطبة «خُطّ الموت...» قد أوردت في مكّة، وقد صرّحت بذلك رواية اللهوف الموثوقة، وأنّ الإمام قد قال في مكّة: «وكأنّي بأوصالي...» التي تفيد علم الإمام التامّ بحادثة كربلاء، والسلام علىٰ من اتّبع الهدىٰ.

٦ ـ قال المُفيد في الإرشاد: «روىٰ سفيان بن عيينة، عن عليّ بن يزيد، عن عليّ بن الحسين عليه السلام قال: خرجنا مع الحسين عليه السلام فما نزل منزلاً ولا ارتحل منه إلّا ذكر يحيىٰ بن زكريا وقتله، وقال يوماً: ومن هوان الدنيا علىٰ الله أنّ رأس يحيىٰ بن زكريا أُهدي إلىٰ بغيّ من بغايا بني إسرائيل»[1].

فالرواية تكشف عن حرارة مستعرة داخل الإمام قد ملأت قلبه الشريف حزناً وألماً حين يصوّر قتل يحيىٰ، كما ألمّت هذه الكلمات قلب ولده علي بن

(١) الإرشاد للمفيد ٢: ١٣٢.

الحسين. كان الإمام عالماً بمصيره ناعياً نفسه في هذه الحركة، ولكن كيف له بالتصريح علناً وعلي بن الحسين وزينب الكبرىٰ يسمعان ما يقول؟ وما عساه أن يفعل والحادثة وشيكة الوقوع.

فالإمامعليه السلام يرىٰ ميدان كربلاء وقد أحاط به جيش عبيدالله بن زياد وهم متعطّشون للارتواء من دمه الطاهر، كما يرىٰ سهام الغدر التي ستصوّب إلىٰ نحر ولده الرضيع وسائر الفتية الذين يضرّجون عمّا قريب بدمائهم، بل يرىٰ حوافر الخيل التي ترضّ صدره ثمّ يحزّ رأسه ويُهدىٰ من العراق إلىٰ الشام إلىٰ باغٍ من بُغاة بني أُمية.

ليت شعري ماذا عسىٰ الإمام أن يفعل، فإن أماط اللثام وصوّر الأحداث تعالت الأصوات بالنحيب والبُكاء الذي يرقّ له قلبه، وإن فضّل السكوت فلا مناص من حركة تلك القافلة التي ستُواجه تلك الأحداث المروّعة دون أن تكون قد تصوّرتها وتأهّبت لها، ولم يكن من أُسلوب يمكن اتّباعه بهذا الشأن سوىٰ ذلك الذي اعتمده الإمام، فلم يكن أن تسير القافلة غافلة عمّا سيواجهها، لابدّ من لفت انتباه القافلة لتلك الأحداث ليستعدّ البعض للقتال الذي تطيح دونه الرؤوس، كما تتأهّب النساء للسبي والأسر. فكيف يبدأ وماذا يقول؟ ليس هنالك أفضل من التذكير بحادثة النبيّ يحيىٰ التي من شأنها علاج هذه المشكلة.

نعم، بإمكان حادثة يحيىٰعليه السلام أن تكون الفصل الأوّل من قصّة حادثة الطفّ، وهل نذكر تلك الحادثة جملة واحدة ونلفت النظر إلىٰ تكرار حوادث التأريخ؟ كلّا. فالقول مرّة واحدة قد لا يؤتي أُكله ولابدّ أن أثير تلك الحادثة في عدّة منازل، ليعلم الركب ويستعدّ لتلقّي الأخبار المؤلمة التي سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنينعليه السلام فقد آن أوانها.

وهنا نتساءل لماذا لا يتحدّث هذا الزعيم الذي ينهض بمسؤولية إمرة الجيش

وقيادته من أجل تحقيق النصر، عن معارك الإسلام والانـتصارات البـاهرة التي حققّها جدّه وأبوه في تلك المعارك، لم لا يتحدّث عن معركة الجمل؟ لو كان يأمل بالنصر لكان من المناسب الحديث عن تلك المعارك لا عن حادثة يحيىٰ! الإمام عليه السلام يمثّل قمّة الأدب والبلاغة، وعليه أن يتكلّم بما ينسجم ومقتضىٰ الحال، لو كان هناك من أمل بالغلبة والنصر؛ فإنّ مقتضىٰ الحال يتطلّب من الإمام التحدّث عن قضية أبناء الطلقاء عند فتح مكّة وكسر شوكة أبي سفيان، ليشـتدّ عـزم الأصـحاب في خوض المعركة، فيزيد ابن ذلك المدحور المهزوم في معارك الإسلام. إذن، فإثارة الإمام لحادثة يحيىٰ تفيد شيئاً آخر يجعل الحسين عليه السلام يحثّ الخُطىٰ لاستقباله.

نعم، هذه هي الطريقة التي تجعل سيد الشُهـداء عليه السلام يحـطّم حـاجز الصـمت ويخرج من تلك الحيرة العظيمة، ولذلك يتكلّم خلال المسيرة عن الموت والشهادة إلىٰ صحبه، ثمّ أخذ الإمام يخوض في التفاصيل أكثر فأكثر كلّما اقترب من أرض كربلاء. فقد نقل مثلاً رؤياه إلىٰ ولده عليّ بن الحسين وهو يسـترجـع كـثيراً، ثمّ أخبره بأنّه سمع منادياً ينادي «القوم يسيرون والمنايا تسري إليهم»[1]. ونرىٰ أنّ الإمام إنّما يهدف من هذه الكلمات إلىٰ إعـداد صـحبه ولاسـيّما أهـل بـيته إلىٰ مـا سيواجههم من حوادث، ولذلك يردّ عليه «لا نبالي نموت محقّين»[2].

نعم، كان الإمام عليه السلام يعلن عن هذه الأحداث رغم أنّ المسافة كـانت بـعيدة نسبياً عن يوم عاشوراء وأرض كربلاء. علىٰ كلّ حال أدرك الجميع أنّه آن الأوان لتلك الروايات والأحاديث والأخـبار التي صرّح بهـا النـبيّ الأكـرم صلى الله عليه وآله وأمـير المؤمنين عليه السلام.

ثمّ تحدّث الإمام عن الموت أيضاً حين التقىٰ الحرّ بن يزيد ـ طبق نقل الطبري

(١، ٢) تاريخ الطبري ٤: ٣٠٨.

في ذي حُسم وعذيب الهجانات بعد وصول رسالة عبيدالله إلىٰ الحر [١]. وتأكيده علىٰ التضييق علىٰ الحسين حسب نقل اللهوف. فقال: «فإنّي لا أرىٰ الموت إلّا سعادة، والحياة مع الظالمين إلّا برما» [٢].

نعم كان محور الكلام هو الموت، فقد قال في مكّة: «كأنّي بأوصالي تقطّعها عسلان الفلوات» ويتكلّم خلال مسيرته عن شهادة يحيىٰ بن زكريا، ويمرّ بقصر بني مقاتل فيخبر ولده عليّاً برؤياه وحديثه عن الشهادة. ويواصل حديثه عن الشهادة في عذيب الهجانات وذي حُسم. فلمّا دخل كربلاء أخبرهم عن مصارعهم وقال: «هاهنا والله محطّ رحالنا ومسفك دمائنا» [٣].

وليت شعري لماذا يصرّ البعض علىٰ أنّ ابن الأعثم الكاذب هو الذي نسبها إلىٰ الحسين عليه السلام. وعلىٰ فرض كذب ابن الأعثم، فإن نسب إلىٰ الإمام عبارة تؤيّدها جميع القرائن القطعية والشواهد، فهل نصّ علىٰ أنّ الإمام لم يقلها حتّىٰ ولو كانت قريبة من حادثة عاشوراء التي زعمتم بأنّ شهادته أصبحت فيها حتمية!.

أيّها المؤلّف العزيز ناشدتك الله أن تعيد النظر في ما أوردت ولا تفرّط بالحسين عليه السلام، فليس لنا من عزّة وعظمة سوىٰ في الحسين عليه السلام، ليس لنا من سبيل لإيقاظ الأُمّة سوىٰ الحسين عليه السلام، كما ليست لنا من مجالس يمكنها النهوض بأهداف الإسلام سوىٰ مجالس الحسين عليه السلام. فالعنصر المقتدر الذي من شأنه حشد الطاقات وصهرها في بوتقة واحدة وهو أبو الأحرار سيد الشهداء عليه السلام. ليس هناك من ملاذ لما نواجه من مخاطر وصعاب في حركتنا الإسلامية سوىٰ مصائب الحسين عليه السلام، بل

---

(١) تاريخ الطبري: ٤ / ٣٠٥.

(٢) الملهوف لابن طاووس: ١٣٨.

(٣) نفس المصدر: ١٣٩.

ليس لنا من سبيل إلىٰ النصر ودحر العدوّ سوىٰ الحسين عليه السلام، وكلّ من تخلّف عن الحسين عليه السلام فلن يشمّ رائحة النصر «مَن لم يلحق بي لم يدرك الفتح والسلام»[١] فالشعار الحسيني حيّ في جميع الضمائر ولا يقتصر علىٰ بني هاشم ومَن خوطب في زمانه، فالحسين عليه السلام مظهر الحرّية ورفض الظلم والجور، الحسين عليه السلام ثورة مفعمة بالدم تجري من عيون عشّاقه ومواليه.

ثالثاً: الأحاديث التي وصلتنا عن أهل بيت الرسالة عليهم السلام بشأن نهضة الحسين وعلمه بشهادته، نكتفي بذكر طائفة منها:

الحديث الأوّل:

الحديث الذي نقله الشيخ محمّدبن يعقوب الكليني في كتابه الكافي، المعتبر السند المؤيّد من قِبل العلّامة المرحوم المجلسي في كتابه «مرآة العقول»[٢] وهذا نصّه:

محمّد بن يحيىٰ، عن أحمد بن محمّد، عن ابن محبوب، عن ابن رئاب، عن ضريس الكناسي قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول ـ وعنده أُناس من أصحابه ـ: «عجبت من قوم يتولّونا، ويجعلونا أئمّة ويصفون أنّ طاعتنا مفترضة عليهم كطاعة رسول الله صلى الله عليه وآله، ثمّ يكسرون حجّتهم ويخصمون أنفسهم بضعف قلوبهم، فينقصونا حقّنا ويعيبون ذلك علىٰ من أعطاه الله برهان حقّ معرفتنا والتسليم لأمرنا؛ أترون أنّ الله تبارك وتعالىٰ افترض طاعة أوليائه علىٰ عباده ثمّ يخفي عنهم أخبار السمٰوات والأرض، ويقطع عنهم موادّ العلم فيما يرد عليهم ممّا فيه قوام دينهم؟!

فقال له حمران: جعلت فداك أرأيت ما كان من أمر قيام علي بن أبي طالب

---

(١) يأتي في ص ٢٤٧.

(٢) مرآة العقول ٣: ١٣١ ح ٤.

والحسن والحسين عليهما السلام وخروجهم وقيامهم بدين الله عزّ ذكره، وما أُصيبوا من قتل الطواغيت إيّاهم والظفر بهم حتّى قتلوا وغلبوا؟

فقال أبو جعفر عليه السلام: يا حمران إنّ الله تبارك وتعالى قد كان قدّر ذلك عليهم وقضاه وأمضاه وحتمه على سبيل الاختيار[1] ثمّ أجراه، فبتقدّم علم إليهم من رسول الله صلى الله عليه وآله قام علي والحسن والحسين عليهم السلام وبعلم صمت من صمت منّا، ولو أنّهم يا حمران حيث نزل بهم ما نزل من أمر الله ـ عزّوجل ـ وإظهار الطواغيت عليهم سألوا الله ـ عزّوجل ـ أن يدفع عنهم ذلك، وألحّوا عليه في طلب إزالة ملك الطواغيت وذهاب ملكهم، إذن لأجابهم ودفع ذلك عنهم، ثمّ كان انقضاء مدّة الطواغيت وذهاب ملكهم أسرع من سلك منظوم انقطع فتبدّد، وما كان ذلك الذي أصابهم يا حمران لذنب اقترفوه، ولا لعقوبة معصية خالفوا الله فيها، ولكن لمنازل وكرامة من الله أراد أن يبلغوها، فلا تذهبنّ بك المذاهب فيهم»[2].

مناقشة الحديث:

لا يسع المقام الخوض في تفاصيل هذا الحديث المعتبر الوارد عن الإمام الباقر عليه السلام، وسنقتصر على الإشارة إلى بعض النقاط المهمة:

١ ـ تعتبر ولاية الأئمّة الأطهار عليهم السلام من القضايا المسلّمة لدى شيعة أهل البيت عليهم السلام وأنصارهم.

٢ ـ تجب طاعة الأئمّة على المسلمين كوجوب طاعتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله، فطاعتهم وطاعته من سنخ واحد.

٣ ـ لا تجب طاعتهم لكونهم قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله، بل كونهم زُعماء يتحلّون

---

(١) في نسخة أخرى: «الاختبار».

(٢) الكافي ١: ٢٦١ ـ ٢٦٢ باب أنّ الأئمة عليهم السلام يعلمون علم ما كان... ح ٤.

بكافّة الصفات والشرائط اللازمة لإمامة الأُمّة، وفي مقدّمة هذه الشرائط العلم والإحاطة التامّة بكافّة الموضوعات والحوادث والوقائع ذات الصلة بحياة الأُمّة الإسلامية وسبل سعادتها وفلاحها.

ومن هنا يتبيّن أنّ هؤلاء الزعماء ـ المتمثّلين بالأئمّة الأطهار عليهم السلام ـ لابدّ أن يكونوا عالمين بجميع خفايا الحوادث والأُمور المتعلّقة بمصير الإسلام والمسلمين، والله سبحانه هو الذي يفيض عليهم ـ برحمته ـ هذه العلوم.

٤ ـ لم تكن نهضة أمير المؤمنين والحسن والحسين عليهم السلام نهضة قائمة علىٰ أساس الجبر والاضطرار، ولم يخوضوا المعارك مرغمين، بل كلّ ذلك يجري وفق خطّة مدروسة معلومة سلفاً، وقد قلّدهم رسول الله صلى الله عليه وآله هذه المسؤولية، إلىٰ جانب اطّلاعهم علىٰ التفاصيل. وعليه: فالقيام وظيفة لبعضهم، قد حمّلهم إيّاها رسول الله صلى الله عليه وآله عن البارئ سبحانه وتعالىٰ، وذلك لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[1] فمن قام من الأئمّة عليهم السلام كان عالماً بعواقب الأمر غير متفاجئ بها، وقد كلّف بهذه الوظيفة رغم علمه بما ستجرّه عليه من مصائب وويلات، ولم يتحمّلوا هذه الحوادث المريرة إكراهاً، بل كانوا مُختارين في أصل نهضتهم وتحمّل تبعاتها، وهم يرون الشهادة كمالاً لهم تجعلهم يقتفون أثر رسول الله صلى الله عليه وآله في السموّ والتكامل وبلوغ ذروة الإنسانية.

والآن نطرح هذا السؤال: أوليس الإمام الحسين عليه السلام هو أحد هؤلاء الزعماء؟ فقد عدّه الحديث السابق في مصافّ أمير المؤمنين وسائر الأئمّة عليهم السلام، أولم تكن كربلاء من الحوادث المرتبطة بمصير الإسلام والمسلمين؟ إذن، فبنصّ الحديث لابدّ أن يكون الإمام عالماً بكافّة تفاصيل حادثة كربلاء، وبنصّ الحديث فإنّ قيام الإمام يستند إلىٰ علم سابق، ذكره رسول الله صلى الله عليه وآله وكلّف به الإمام عليه السلام. وهذا غير ما

---

(١) سورة النجم: الآيتان ٣ ـ ٤.

ذكرنا من أنّ الإمام يقتصر في علمه بالشهادة علىٰ ما أخبره به رسول الله صلى الله عليه وآله.

وبناءً علىٰ هذا فلو ناقشنا الرؤيا التي نقلت عن ابن الأعثم[(١)]، فإنّ مضمون هذا الحديث إزاء وظيفة الإمام هو نفس المضمون «يا حسين اخرج إلىٰ العراق» مع الفارق في الإجمال والتفصيل، بل يمكن القول بأنّ قيام الإمام عليه السلام كان بوحي من الله بفعل إخبار النبي صلى الله عليه وآله، كما فهمنا من الحديث أنّ قيام الحسين عليه السلام لم يكن اضطراراً بل جرىٰ وفق خطّة مدروسة وعلم سابق، كما فهمنا أنّ سكوت بعض الأئـمّة عليهم السلام كان يستند لهذه الرسالة والوظيفة.

فمن اعتقد بغير هذا لا يسعه أن يعقل مضمون الحديث بلزوم طاعة أئـمّة الدين، وهذا ما تطرّقنا إليه سابقاً، فكيف نعتقد بأنّ الإمام مفترض الطاعة في حين نعترف بخطأه في التشخيص أو وقوع الحوادث علىٰ عكس ما كان يتصوّر؟ كيف يجب اتّباع الإمام علىٰ مثل عبيدالله الحر الجعفي بينما كان يعتقد بأنّ مسلم كان ينتظر هزيمة منكرة. نعم الإمام عليه السلام لا يخطأ في تشخيصه أبداً وهو عالم بكلّ خفايا الأحداث.

الحديث الثاني:

وهو الحديث الذي نقله الشيخ جعفر بن محمّد بن قولويه المتوفّى عام ٣٦٨هـ.ق ـ أُستاذ الشيخ المفيد رحمه الله ـ في كتابه «كامل الزيارات»، والكتاب المذكور أحد كتب الإماميّة المهمّة الذي يحظىٰ باعتماد علماء الحديث والمتخصّصين بعلم

(١) لا يخفى أنّ المحور الأصلي هو بحث أسس ومباني كتاب «شهيد جاويد» ولذلك لم نبحث الأُمور الجزئية من قَبيل هل أنّ ابن الأعثم موثوق في نقله أم لا، ولذلك فإنّ فرض المناقشة في نقل رؤياه لا يعني أنّنا نؤيّد المناقشة، بل أنّ هذا الفرض ليس بدليل علىٰ الانسجام مع الكتاب؛ لأنّه خارج عن الحدود الأصلية في الكتاب المذكور.

الرواية، وهو يصرّح في مقدّمة الكتاب بأنّه لا يورد إلّا الموثوق من الأفراد، ولذلك استدلّ كبار فقهاؤنا بهذه الروايات. وإليك نصّ الحديث:

قال: حدّثني أبي رحمه الله ومحمّد بن الحسين، عن سعد بن عبدالله، عن أحمد بن محمّد، عن علي بن الحكم، عن أبيه، عن أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنّ الحسين عليه السلام خرج من مكّة قبل التروية بيوم، فشيّعه عبدالله بن الزبير فقال: يا أبا عبدالله لقد حضر الحج وتدعه وتأتي العراق، فقال: يابن الزبير لأن أُدفن بشاطئ الفرات أحبّ إليّ من أن أُدفن بفناء الكعبة»[1].

وقفة مع الحديث:

لقد شعر عبدالله بن الزبير بالذهول والدهشة من حركة الإمام إبّان الحجّ فسأله: هذه مناسك الحجّ التي حضرها المسلمون من أكناف الدنيا وأطرافها، فما الذي حدث ليترك الإمام ـ وهو الأعرف أكثر من غيره بمنزلة الحجّ وعظمة تلك المواقف ـ الحجاز ويتحرّك صوب العراق؟! ولاسيّما أنّ الإمام عليه السلام قد توقّف قبل عدّة شهور في مكّة ولا تستغرق مناسك الحجّ وقتاً طويلاً.

طبعاً، عبدالله بن الزبير يعلم أفضل من غيره أنّ الإمام لا يتخلّىٰ عبثاً عن ذلك الأمر، ولابدّ أن يكون هنالك دافع أشدّ قوّة جعله يحثّ الخطى لإدراك ما خفي كنهه، ولعلّه أعتقد بل جزم أن ليس هنالك ما يدعو لحركة الإمام سوىٰ الشعور بالخطر المحدق به، إلّا أنّه كان يرغب بسماع القضية من الإمام وهل أنّ الخطر واقع عن قريب لا محالة؟ وأنّ الإمام يمكن أن يتعرّض إلىٰ الاغتيال في جوف الكعبة؟ لقد شعر الإمام بما يجول في فكر ابن الزبير فأجابه علىٰ الفور: أنّ مصرعي في كربلاء «شاطئ الفرات» لا حرم الكعبة الأمن.

---

(١) كامل الزيارات: ١٥١ ح ١٨٤، وعنه بحار الأنوار ٤٥: ٨٦ ح ١٨.

سؤال: لعلّ هناك من يسأل: من أين فهمتم أنّ الحديث يتضمّن الإخبار بشهادة الإمام في كربلاء؟ فلم يقل الإمام سوىٰ أنّه سيستشهد وأنّ الشهادة في كربلاء أحبّ إليه من اللجوء إلىٰ الكعبة؟ فهل هناك من منافاة بين هذا الأمر وعدم حدوث واقعة كربلاء أو وقوعها بعد سنوات؟

الجواب: لقد لفت الإمام انتباه ابن الزبير في جوابه إلىٰ وقوع حادثة، وكأنّه أراد أن يقول عليه السلام: هناك حادثة لا مفرّ منها، ولا أرغب أن تقع هذه الحادثة في بيت الله، بل سأتّجه لمواجهتها هناك.

سؤال آخر: لم يتّضح ممّا قلت سوىٰ أنّ هناك حادثة لا مفرّ منها، إلّا أنّ إمكان وقوعها في مكّة لم يزل، وهذا ما يفهم تلويحاً من جواب الإمام، ولنا أن نسأل هنا: هل الإمام عليه السلام موقن من قتله في كربلاء رغم احتمالية وقوع الحادثة في مكّة؟

الجواب: لا يريد الإمام أن يقول: إنّي أحتمل أن تقع هذه الحادثة في مكّة، بل أراد أن يفهم ابن الزبير بأنّ جلاوزة يزيد يترصّدونه وهم عازمون علىٰ قتله، وهو ليس بغافل عن دسائسهم، ولذلك فهو يختار كربلاء من أجل الفوز بالشهادة وإحباط مخطّطاتهم، وإلّا لو كان الإمام يحتمل وقوعها في مكّة أو مئات المناطق الأُخرىٰ، لم ينتخب شاطئ الفرات من بين جميع هذه الاحتمالات، أضف إلىٰ ذلك أنّه قد أعلن بأنّي أحبّ أن أُدفن في الفرات رغم بعده مئات الأميال، وماذا يعني بإخباره عن هذا المكان غير المتوقّع؟ إذن، فذكر اسم شاطئ الفرات والرغبة الشديدة للاستشهاد فيه لا يفيد إلّا وقوع حادثة مأساوية حتميّة هناك، ثمّ تصبح تلك المنطقة موضع مرقده الشريف.

الحديث الثالث:

الحديث الذي نقله الشيخ الثقة جعفر بن محمّد بن قولويه أيضاً في كتاب

«كامل الزيارات»، وقد ذكرنا سابقاً أنّ أحاديث هذا الكتاب معتبرة وموثوقة لا يمكن الطعن في سندها. قال: حدّثني أبي رحمه الله وجماعة مشايخي عن سعد بن عبدالله، عن علي بن إسماعيل بن عيسىٰ ومحمّد بن الحسين بن أبي الخطاب عن محمّد بن عمرو بن سعيد الزيّات، عن عبدالله بن بكير، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «كتب الحسين بن علي من مكّة إلىٰ محمّد بن علي: بسم الله الرحمن الرحيم من الحسين بن علي إلىٰ محمّد بن علي ومَن قِبله من بني هاشم، أمّا بعد فإنّ من لحق بي استشهد، ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح والسلام»[1].

وقد نقل صاحب كتاب «بصائر الدرجات» عن الإمام الصادق عليه السلام نظير هذه الرواية، حدّثنا أيّوب بن نوح، عن صفوان بن يحيىٰ، عن مروان بن إسماعيل، عن حمزة بن حمران، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: ذكرنا خروج الحسين وتخلف ابن الحنفية عنه، قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «يا حمزة إنّي سأُحدّثك في هذا بحديث لا تسأل عنه بعد مجلسنا هذا: إنّ الحسين لمـّا فصل متوجّهاً دعا بقرطاس وكتب: بسم الله الرحمن الرحيم من الحسين بن علي بن أبي طالب إلىٰ بني هاشم، أمّا بعد فإنّه من لحق بي منكم استشهد معي، ومن تخلّف لم يبلغ الفتح والسلام»[2].

ما ينبغي الالتفات إليه في الحديثين:

١ ـ ماذا يفهم من كلمة «استشهد»؟

٢ ـ الرسالة إلىٰ محمّد بن الحنفية وسائر بني هاشم هل تتضمّن الإخبار

---

(١) كامل الزيارات: ١٥٧ ح ١٩٥، وعنه بحار الأنوار ٤٥: ٨٧ ح ٢٣.

(٢) بصائر الدرجات: ٥٠٢، وعنه إثبات الهداة ٢: ٥٧٧ ح ١٨ وعن كامل الزيارات والملهوف: ٢٨ ومختصر بصائر الدرجات: ٤٢ ح ٢٥، وفي بحار الأنوار ٤٢: ٨١ ح ١٢ عنه وعن مناقب آل أبي طالب عليهم السلام لابن شهر آشوب ٤: ٧٦.

باستشهاد كلّ من يقف في صفّ المجاهدين، أم شهادة من يلتحق فيما بعد بالإمام من بني هاشم؟

٣ ـ كيف يمكن الجمع بين هذه الرسالة وعدم قتل طائفة من بني هاشم؟

١) كلمة «استشهد»:

كلمة «استشهد» بصيغة المجهول، وإن كانت بصيغة المعلوم فهي تعني طلب الشهادة، وقد وردت بالمعنىٰ الأخير في آيتين من القرآن،

الأُولىٰ في سورة البقرة ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِجَالِكُمْ﴾[١].

والأُخرىٰ في سورة النساء ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾[٢]. وإن جاءت بصيغة المجهول بمعنىٰ القتل والشهادة في سبيل الله.

وفي المنجد أُستشهد: «قتل في سبيل الله»[٣] ولعلّ مناسبة اللفظ لهذا المعنى الوارد في الآيات القرآنية «قَتيل في سبيل الله» هو الشهود ودرك المحضر الربوبي للحقّ جلّ جلاله، والشهيد لا يموت أبداً، بل يحيا في شهادته يفيض حياة وحيوية.

ولا يبعد القول بأنّ الشُهداء لا برزخ لهم، بل تبدأ آخر مراحل حياتهم الملكوتيّة بمجرّد موت الجسد. وهذه هي الحقيقة التي ظهرت في ميدان كربلاء، فهذا علي الأكبر ينادي أباه الحسين في لحظة الوداع قائلاً: «هذا جدّي رسول الله ﷺ قد سقاني بكأسه الأوفى»[٤].

وعلىٰ كلّ حال كلمة «استشهد» في عبارة الإمام عليه السلام ظاهرة بمعنىٰ القتل في سبيل الله، وصرف المعنى عن هذا الظهور ـ دون مسوّغ ـ إنّما يتعارض والعرف السائد في المكالمات والمحاورات المتداولة في الأزقّة والأسواق، وفي حالة الشكّ في

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٥.

(٣) المنجد في اللغة: ٤٠٦.

(٤) بحار الأنوار ٤٥: ٤٤.

أنّ المراد المعنى الحقيقي للشهادة أم المعنى المجازي بمعنى التعرّض للشهادة؟ فيوجد أصل مسلّم يسمّى أصالة الحقيقة حيث يعيّن ويشخّص المعنىٰ الحقيقي، ناهيك عن عدم صحة صرف الكلمة إلىٰ المعنىٰ المجازي دون وجود علاقة، والعلاقة التي يمكن تصوّرها هنا هي علاقة المشارفة، وعلاقة المشارفة تكون في الموارد التي يكون تحقّقها شيئاً قطعياً تقريباً. ولا تطلق علاقة المشارفة علىٰ الأشياء التي يكون وقوعها علىٰ نحو الاحتمال. وعليه فليس هنالك من دليل علىٰ صحّة استعمال «استشهد» بمعنى التعرّض للشهادة واحتمالها.

دليل آخر:

لو كانت «استشهد» بمعنىٰ احتمال الشهادة لكانت عبارة الإمام توضيحاً للواضح؛ لأنّ احتمال الشهادة قائم بالنسبة لكلّ فرد يقوم ضدّ الحكومة الظالمة والحاكم الغاشم، ويهدف إلىٰ الإطاحة بالحكومة وإنشاء الحكومة الإسلامية، ولأنّ مثل هذا القيام إنّما يصحبه صِدام عسكري يؤدّي إلىٰ حالة القتل والاقتتال.

إذن، فلو كانت «استشهد» بمعنىٰ إمكانية الشهادة، فهذا المعنىٰ ليس بخافٍ علىٰ محمّد بن الحنفية وبني هاشم ولا يحتاج إلىٰ تذكير الإمام، وعليه: فليس أمامنا من سبيل سوىٰ القول بأنّ «استشهد» إنّما تعني الشهادة الحتمية، والإخبار الذي صدر عن الإمام عليه السلام كان إخباراً عن أمر مخفي ومصير مجهول.

٢ ـ ماذا نفهم من العبارة «مَن لحق بي استشهد».

هل المراد أن كلّ من يلحق بنا يُقتل؟ أم أنّ العبارة إخبار بشهادة قوم علىٰ الخصوص؟

لا يمكننا أن نقبل الاحتمال الأوّل، وذلك للأسباب التالية:

١ ـ لو كان الأمر كذلك فلو افترضنا التحاق جميع أهل المدينة ومكّة والكوفة

والبصرة وسائر المدن بقافلة الإمام، فإنّهم سيُقتلون، والحال لا يمكن تصوّر هـذا المعنىٰ أبداً.

٢ ـ يلزم من هذا الاحتمال أن يستشهد جميع أفراد ركب الحسينعليه‌السلام بما فـيهم الصبية والنساء والكهول، بينما لم يُقتل من النساء والصبية سوىٰ ثـلاث أو أقـلّ، وعليه: نسأل مؤلّف كتاب «شهيد جاويد» لماذا يستدلّ بـتجاوز المـعنى الحـقيقي لكلمة «استشهد» بسبب بقاء عشرة أفراد من الأصحاب وبني هاشم؟ بل الشاهد الأفضل هو بقاء جميع النسوة و...

ومن هنا يتّضح أنّ معنىٰ الحديث ليس إخبار الإمامعليه‌السلام بمعنىٰ أنّ جميع الركب ومن يلحق به سيستشهد حتى يعترض علىٰ المعنى الحقيقي، بل المعنىٰ هو أنّ كلّ مَن يلحق بنا من بني هاشم سكنة المدينة سيُقتل ويستشهد. والواقع أنّ هذا الإخبار يختصّ فقط بمحمّد بن الحنفية وبني هاشم من أهل المدينة ممّن لم يـلتحق بـالإمام حين حركته، وبالطبع فإنّ الأفراد الذين أرادوا أن يلحقوا منهم إنّما كـانوا أفـراداً بالغين مكلّفين، والدليل علىٰ ذلك:

١ ـ ما ورد في رواية بصائر الدرجات التي أردفت عبارة «من لحق بي» بكلمة «منكم» أي كلّ من يلحق بي منكم يا بني هاشم فإنّه ينال الشهادة، إذن فالخبر في بني هاشم و كلمة «منكم» مختّصة بهم.

٢ ـ ما ورد في كامل الزيارات حول هذه الرواية، أنّ الرسالة من الحسين إلىٰ محمّد بن الحنفية وسائر بني هاشم، أي هؤلاء هم المرادون بالرسالة، فهل يسـعنا بعد ذلك أن نقول بأنّ الخبر وارد بشأن جميع الناس؟!

نتيجة البحث:

نخلص ممّا سبق إلىٰ أنّ العبارة «من لحق بي استشهد» تدلّ علىٰ شهادة كلّ من

بقي من بني هاشم في المدينة إن التحق بركب الحسين عليه السلام، وعليه: فعدم قتل أمثال: غلام عبدالرحمن بن عبد ربّه، والضحّاك بن عبدالله المشرقي، وعقبة بن سمعان، والعشرة الذين ذكرهم صاحب كتاب «شهيد جاويد» لا يقدح بأصالة معنى الإخبار الغيبي للإمام، وكان الأحرىٰ بالمؤلّف أن يتأمّل أكثر ويرىٰ أنّ هذا الإخبار لم يشمل أولئك الأفراد من بني هاشم الذين لحقوا به منذ البداية، فالرسالة قد كتبت من مكّة كما ورد في حديث كامل الزيارات أو أثناء الخروج من المدينة كما صرّحت رواية بصائر الدرجات.

وعلىٰ كلّ حال الرسالة واردة بشأن الأفراد الذين لم يكونوا مع الركب ويمكنهم اللحاق به في ما بعد. إذن فالإمام عليه السلام لم يخبر عن شهادة الأفراد من بني هاشم الذين لم يتخلّفوا عن الركب وواكبوا الإمام منذ بداية الأمر.

مفاد الروايتين:

كلّ مَن التحق بي من بني هاشم ـ سكنة المدينة ـ حين الحركة سيُقتل في سبيل الله وسبيل التوحيد، ومن تخلّف عنّي لأيّ من الأسباب لم يدرك الفتح، وعليه: يمكن القول بأنّ الهدف الأصلي للإمام عليه السلام لا يقتصر علىٰ الإخبار بعاقبة الملتحقين فحسب، بل في نفس الوقت الذي ورد الإخبار من أنّ طريقنا هو الشهادة؛ فإنّه كان ينطوي علىٰ تحريض بني هاشم سكنة المدينة علىٰ اتّباع الإمام من أجل نيل الدرجات الرفيعة: لا يظفر المتخلّفون بشيء ولمن صحبني الجنّة والشهادة، فقوموا وانهضوا يابني هاشم لتنالوا الشهادة في هذه النهضة العظيمة.

وهذا ما جعل الإمام الصادق عليه السلام، وفي هذه الرواية يصرّح خاصّة بعدم استقامة تخلّف محمّد بن الحنفية ويصفه بأنّه حرم من درك السعادة؛ لأنّ الذي يفهم

من عبارة الإمام الحسين عليه السلام هو أنّ من لحق بي فاز بالشهادة، هذه السعادة الكبرىٰ التي تُعتبر فرصة ذهبية لا تسنح دائماً للإنسان، وقد حرم ابن الحنفية نفسه من هذه النعمة العظيمة.

وعلىٰ ضوء ما تقدّم لنا أنّ نطرح هذا السؤال: هل تقدح عدم شهادة أُولئك الأفراد العشرة ـ علىٰ فرض الصحّة ـ بالخبر الغيبي للإمام عليه السلام؟ إذا قال الإمام عليه السلام: كلّ من لحق بنا من بني هاشم في المدينة فإنّه يستشهد، فهل هذا القول لا ينسجم وعدم شهادة أُولئك الأفراد العشرة؟ لنضطرّ لحمل كلمة «استشهد» علىٰ معناها المجازي في احتمال الشهادة؟

٣ ـ الجمع بين الرسالة وعدم قتل جماعة:

اتّضح ممّا مرّ سابقاً أنّ عدم استشهاد جماعة من أصحاب الإمام ـ علىٰ فرض الصحّة ـ لا يضرّ بصحّة إخبار الإمام، وذلك لأنّ إخبار الإمام مختصّ ببني هاشم من سكنة المدينة الذين لم يلحقوا بركب الإمام منذ بداية الأمر، ولم يكن أحد ممّن لم يستشهد من بني هاشم من المتخلّفين، بل كانوا ممّن لحقوا بركبه منذ البداية، ولقد كان بإمكان مؤلّف كتاب «شهيد جاويد» أن يأتي بشاهد أفضل لحمل الرواية علىٰ معناها المجازي، وهو أنّ الإمام زين العابدين عليه السلام كان في القافلة ولم يستشهد. إذن، لمَ يذكر بعض الأفراد الذين لم تتّضح أوضاعهم؟ وجوابنا علىٰ السؤال هو أنّ الإخبار الغيبي مختصّ بجماعة معيّنة.

افتراض آخر:

نفرض أنّ رسالة الحسين عليه السلام تشمل عامّة بني هاشم ولا تختصّ بالمتخلّفين، وعلىٰ ضوء هذا الفرض يكون الجمع بين الرواية وعدم شهادة البعض من بني

هاشم ـ وفي مقدّمتهم علي بن الحسين عليهما السلام ـ بهذا الشكل: مَن تبقّىٰ من ذريّة الإمام الحسن هم:

١ـ عمرو بن الحسن.

٢ـ زيد بن الحسن.

٣ـ الحسن بن الحسن.

أمّا عمرو بن الحسن؛ فإنّه وإن قال أبو الفرج في مقاتل الطالبيين بعدم قتله[١]، إلّا أنّ الطبري صرّح بأنّه لم يقتل لكونه صبيّاً، ومن المعلوم أنّ رسالة الإمام كانت موجّهة للمكلّفين دون غيرهم. وعليه: فعدم قتل عمرو لا يطعن بالخبر الغيبي للإمام عليه السلام.

وأمّا زيد بن الحسن، فبناءً علىٰ المشهور كما ذكر المحدّث القمي رحمه الله أنّه لم يكن ملازماً لعمّه في حركته إلىٰ العراق[٢].

وأمّا الحسن بن الحسن ففيه خلاف، فلم يعدّه الطبري من القتلىٰ لصغر سنّه[٣]، أمّا المفيد فقال في الإرشاد: «حضر مع عمّه الحسين عليه السلام الطفّ، فلمّا قتل الحسين وأسر الباقون من أهله، جاءه أسماء بن خارجة فانتزعه من بين الأسرى وقال: والله لا يوصل إلى ابن خولة أبداً، فقال عمر بن سعد: دعوا لأبي حسّان ابن أُخته»[٤].

وعلىٰ كلّ حال فإنّ الحسن المثنّىٰ رغم بلوغه وتكليفه لم يستشهد، وهو الفرد الوحيد البالغ مع علي بن الحسين الذي لم يقتل من بني هاشم، فلو كانت الرسالة موجّهة لعامّة بني هاشم، لابدّ أن نقول بأنّ قصد الإمام عليه السلام: أنّ سبيلنا هو الشهادة،

(١) مقاتل الطالبيّين: ١١٩.

(٢) منتهى الآمال: ٤٥٩.

(٣) تاريخ الطبري ٤: ٣٥٩.

(٤) الإرشاد للمفيد ٢: ٢٥.

وعليه: فمن نجى فليس ذلك بمستبعد.

بعبارة أُخرىٰ ليس هناك من منافاة بين الخطاب العام في اللحاظ العام باستثناء فرد أو فردين.

إذن، ففحوىٰ رسالة الإمام: قافلتنا تتّجه إلىٰ ميدان الحرب والقتال الذي سيخوضه الغيارىٰ والأحرار من أجل الدفاع عن الحقّ، هؤلاء الغيارىٰ شهداء أدركوا الحقّ، ومن لم يقم ويُدافع عن القرآن لا ينبغي أن يرجو أيّ نصرٍ آخر.

الحديث الرابع:

قال ابن قولويه في كامل الزيارات أيضاً: حدّثني أبي رحمه الله وعلي بن الحسين جميعاً، عن سعد بن عبدالله، عن محمّد بن أبي الصهبان، عن عبدالرحمن بن أبي نجران، عن عاصم بن حميد، عن فضيل الرسان، عن أبي سعيد عقيصا قال: سمعت الحسين بن علي عليهما السلام وخلا به عبدالله بن الزبير وناجاه طويلاً، قال: ثمّ أُقبل الحسين بوجهه إليهم وقال: «إنّ هذا يقول لي: كن حماماً من حمام الحرم، ولأن أُقتل وبيني وبين الحرم باع أحبّ إلي من أن أُقتل وبيني وبينه شبر، ولأن أُقتل بالطفّ أحبّ إليّ من أن أُقتل بالحرم»[1].

تحقيق مختصر:

يرىٰ ابن الزبير أنّ الخطر محدق بالإمام، وهذا ما طرحه علىٰ الإمام، غير أنّه يظنّ بأنّ الحرم من شأنه أن يدفع عنه هذا الخطر، وهذا ما عبّر عنه بقوله: كن حماماً من حمام الحرم، حيث يتمّع الحمام بالأمن في الحرم، وابن رسول الله صلى الله عليه وآله أولىٰ بهذا الأمان. إذن فالبقاء في ذلك الموضع المقدّس هو السبيل الأخير للأمان من المخاطر.

---

(١) كامل الزيارات: ١٥١ ح ١٨٢، وعنه بحار الأنوار ٤٥: ٨٥ ح ١٦.

أمّا الإمام عليه السلام فيرفض هذه النظرية ويطلع ابن الزبير على حتمية وقوع حادثة دون أن يُعرف للمكان من معنى في الحرم أم في موضع آخر. فقد اتّفقت كلمة الظلمة على قتلي وليس بإمكان حتى الحرم أن يمنحني الأمان، وليس من الصواب أن أستجب لوقوع هذه الحادثة في الحرم الإلهي وأنتهك حرمته، بل أنا حريص على عدم انتهاك حرمته ولو على بعد شبر، وعليه: فسأغادر الحرم سريعاً لأدفع بهذه الحادثة الحتمية إلى كربلاء وأضرّج تربتها بدمي، إنّي لأحب أن أستقبل هذه الحادثة التي لا مناص منها في الطفّ، إنّي لأرغب بالشهادة في سبيل اعتلاء الحقّ وكلمة الإسلام على يد الجبابرة فَلِمَ لا أستشهد في كربلاء؟

هذه خلاصة من الحوار الذي دار بين الإمام عليه السلام وابن الزبير، ونبذة عن نظرية الإمام بشأن الحركة والحادثة الحتمية، فهل يسعنا القول بأنّ الإمام كان يرجو النصر بفعل وجود الجيش الكوفي المقتدر والقوات الشعبية؟ لم اختار الإمام كربلاء من بين سائر مئات الأماكن والمواضع المحتملة؟ هناك مسافة شاسعة تمتدّ لمئات الأميال بين مكّة وكربلاء، إمكان وقوع هذه الحادثة على بعد شبر من الحرم حتّى كربلاء قائم.

إذن، فهناك مئات الأماكن التي يحتمل فيها وقوع مثل هذه الحادثة، لم اختار الإمام عليه السلام من بينها ذلك المكان الذي لا يخالج ذهن أيّ فرد؟ لم تكن كربلاء آنذاك أكثر من أرض عادية، وكان لابدّ أن تقع ـ على ضوء الأوضاع الطبيعية ـ تلك الحادثة في الكوفة التي تمثّل آنذاك مركز الخلافة، فلِمَ أحبّ الحسين عليه السلام أن يدفن جسده الطاهر في كربلاء؟ لقد أشار عليه السلام إلى موضع بعيد عن الأذهان، الأمر الذي يكشف أنّ الإمام كان مطّلعاً على تفاصيل الحادثة وما سيواجهه فيها من مصير. فوا أسفاه، ينبري أحدهم ليصرّح أو يحتمل بأنّ الإمام لم يكن عالماً بتلك الأحداث. اللهمّ اجعل في قلوبنا نوراً وبصراً وفهماً وعلماً.

زبدة الكلام:

شاهدنا أنّ أغلب التواريخ المعتبرة والأحاديث الموثّقة كانت أدلّة قطعية وشواهد حيّة علىٰ علم الإمام عليه السلام بشهادته في حركته إلىٰ الكوفة، الكوفة التي لم يكن من المقدّر لها أن تشهد انهيار حكومة يزيد وسقوطها بيد الإمام، إلّا أنّنا نريد أن نختصر الكلام، وإلّا فهناك التواريخ المعتبرة والأحاديث المستفيضة من الفريقين بشأن علم الإمام عليه السلام بحادثة كربلاء، الحادثة الشديدة الصلة والحاسمة في مصير الإسلام وحياة المسلمين. والحق أنّنا نشعر بالخجل بالتحدّث عن علم الإمام عليه السلام والدفاع عن حريم الإمامة في عش آل محمّد (قم المقدّسة) المدينة التي شيّدت قبل ألف عام على دعائم مدرسة أهل البيت عليهم السلام حتّى وصفها أئـمّة الهدىٰ بالمركز الذي يفيض بعلومهم علىٰ العالم، بل نعتوها بأنّها حرم أهل البيت.

يعترينا الخجل أن نهدر وقتنا في التحدّث عن أمر بمثابة الشمس في رابعة النهار. نعم، نشعر بالخجل من أنّ الإمام عليه السلام مصباح الهدىٰ وسفينة النجاة وخليفة رسول الله صلى الله عليه وآله ممّن أمر بطاعته وولايته، في حين يطالعنا من يتفوّه بأنّ الإمام زجّ بلا علم في حادثة مثّلت جوهر الإسلام وارتبطت مباشرة باستقامة الدين، الخجل الذي يدعونا إلىٰ الصمت الذي لا يفرزه سوىٰ الحيرة والذهول والدهشة! إلّا أنّه الصمت والسكوت الذي يتضمّن الإشارة إلىٰ بعض الأدلّة الواردة بشأن علم الإمام عليه السلام:

١) جاء في الكامل لابن الأثير أنّ عمر بن عبدالرحمن نصح الإمام وحذّره من الحركة إلىٰ الكوفة، فجزاه الإمام خيراً وقال: «ومهما يُقضَ من أمر يكن أخذتُ برأيك أو تركته»[1].

٢) قصّة ورود أبي بكر الحارث بن هشام علىٰ الإمام، فقال له الإمام عليه السلام: «جزاك الله خيراً يابن عمّ فقد أجهدك رأيك، ومهما يقضِ الله يكن» فقال: إنّا لله

---

(١) الكامل لابن الأثير ٤: ٣٧.

وعند الله نحتسب ياأبا عبدالله[١].

٣) على ما نقل أرباب المقاتل أنّ عبدالله بن عمر جاء لوداع الإمام في مكّة فقال «استودعك الله من قتيل»[٢].

٤) قال صاحب مجمع البحرين: «روي أنّه عليه السلام اشترىٰ النواحي التي فيها قبره من أهل نينوىٰ والغاضرية بستّين ألف درهم، وتصدّق بها عليهم، وشرط عليهم أن يُرشدوا إلى قبره ويضيّفوا مَن زاره ثلاثة أيّام»[٣]، فهل اشترىٰ الإمام تلك الأرض بعد القتل؟ وهل كان عالماً بمرقده أم لا؟

٥) كتب العلّامة المرحوم السيد محسن الأمين العاملي صاحب أعيان الشيعة في مقتله لواعج الأشجان: «وجاءه عبدالله بن عباس وعبدالله بن الزبير، فأشارا عليه بالإمساك عن المسير إلىٰ الكوفة، فقال لهما: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد أمرني بأمر وأنا ماض فيه، فخرج ابن عبّاس وهو يقول: واحسيناه»[٤].

كان الإمام عليه السلام ينهض بمسؤولية خطيرة كلّفه بها رسول الله صلى الله عليه وآله، إذن فحقيقة الأمر شيء آخر، ولم تكن دعوة أهل الكوفة وآراء خبرائها تشكّل الدوافع الحقيقية لهذه الحركة، ولذلك فهم ابن عباس أنّ السبيل الذي ينتهجه الإمام لا رجعة فيه!

٦) قال الأميني ـ في نفس الصفحة من الكتاب المذكور ـ: «ثمّ جاءه عبدالله بن عمر فأشار عليه بصلح أهل الضلال وحذّره من القتل والقتال، فقال له: يا أباعبدالرحمن أما علمت أنّ من هوان الدنيا علىٰ الله أنّ رأس يحيىٰ بن زكريا أهدي إلىٰ بغيّ من بغايا بني إسرائيل ـ إلىٰ أن قال: ـ وأيم الله لو كنت في جحر هامة من هذه الهوامّ لاستخرجوني حتّى يقتلوني، والله ليعتدنّ عليّ كما اعتدت اليهود في

---

(١) مروج الذهب ٣: ٥٦.

(٢) انظر لواعج الأشجان: ٧٤، بحار الأنوار ٤٤: ٣١٣.

(٣) مجمع البحرين ٣: ١٥٦٠، مادّة «كربل».

(٤) لواعج الأشجان: ٧٢.

السبت، والله لا يدعوني حتّى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي، فإذا فعلوا ذلك سلّط عليهم من يذلّهم حتىٰ يكونوا أذلّ من فرام[١] المرأة»[٢].

فعبدالله يتوقّع حادثة ويقرّ الإمام توقّعه ويفشي له الأسرار. نعم، كلّ من تحدّث عن الشهادة فإنّ الإمام عليه‌السلام كان يؤيّد حديثه ويبيّن المأساة التي ستقع من خلال التصريح أو التلويح، فهل نقول هنا أيضاً بأنّ الإمام قد انطلق راجياً للسفر من مكّة ولم يتبدّل هذا الرجاء يأساً حتّى أواخر حياته الشريفة، اللهمّ إلّا للحظات قبل شهادته؟ هل هذه هي نتيجة التحقيقات؟ وهل مثل هذا الحكم حصيلة للتأمّل والتمعّن في الأدلّة والأخبار؟ هل هذه الصورة وليدة التفكير الصحيح؟ وهل هذه الأفكار نابعة من إدراك للحقائق؟ هل هذه الأُمور من شأنها رفع مقام الإمام عليه‌السلام؟ هل مثل هذا الكتاب يعدّ خدمة للعلم والمعرفة؟ وهل هذه الأفكار ستقضي علىٰ الشبهات؟ وهل وهل... نترك الإجابة إلىٰ الضمائر الحيّة والعقول البعيدة عن التقوقع والتعصّب.

شهادة الإمام في كربلاء على لسان أهل البيت عليهم‌السلام وأتباعهم:

لقد ابتلّت تربة كربلاء بدموع علي بن أبي طالب عليه‌السلام لخمس وعشرين سنة قبل وقوع الحادثة، ولم ينس مسجد الكوفة حديث أمير المؤمنين عليه‌السلام لسعد بن أبي وقّاص في أنّ ولده المشؤوم سيقتل ابنه الحسين عليه‌السلام[٣]. أمّا النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله فقد صدع قبل ولادة يزيد قائلاً: «مالي وليزيد لا بارك الله فيه، اللهمّ العن يزيد»[٤].

وابن عبّاس هو الذي نقل حديث النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله، فكان يعلم علىٰ سبيل الجزم بحادثة

---

(١) الفرام ـ بالفاء المفتوحة ـ: خرقة الحيض.

(٢) لواعج الأشجان: ٧٢ ـ ٧٣.

(٣) كامل الزيارات: ١٥٥ ح ١٩١، الأمالي للصدوق: ١٩٦ مجلس ٢٨ ح ٢٠٧، وعنهما بحار الأنوار ٤٢: ١٤٦ ح ٦ وج ٤٤: ٢٥٦ ح ٥.

(٤) مثير الأحزان لابن نما الحلّي: ٢٢، وعنه بحار الأنوار ٤٤: ٢٦٦ ح ٢٤.

كربلاء وغطرسة يزيد، ومن المُسلّم به أنّه تذكّر قول رسول الله صلى الله عليه وآله فحذّر الإمام.

نعم، لم تكن حادثة كربلاء خافية علىٰ من كان يرتاد أهل بيت النبوّة عليهم السلام، بل كانت هناك عدّة روايات أسهمت كلّ واحدة منها في إزاحة الستار عن بعض مجريات تلك الحادثة بحيث يرىٰ المتتبّع أنّ هذه الحادثة قد بيّنت بجزئيّاتها وتفاصيلها من قِبل رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام، وعليه كان أهل البيت عليهم السلام وأنصارهم عارفين بتفاصيل هذه الحادثة فنقلوها لنا، إذن فهل يعقل القول بأنّها كانت خافية علىٰ شخص الإمام عليه السلام؟

يظنّ البعض أنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يكن يعلم المراد بالفتية الذين قال فيهم أمير المؤمنين عليه السلام حين مرّ بكربلاء في معركة صفّين: «هاهنا مناخ ركابهم، وموضع رحالهم، وهاهنا مهراق دمائهم، فتية من آل محمّد صلى الله عليه وآله يُقتلون بهذه العرصة...»[(١)] ولم يكن يعلم متى يُقتلون؟! وحيث ذكرهم أمير المؤمنين عليه السلام بضمير الجمع الغائب «هم»، فقد رأىٰ الحسين عليه السلام في ميدان كربلاء ذلك اليوم أنّه المصداق علىٰ سبيل الترديد! فقد ذكر المؤلّف في ص ٣٠١ «فهل أُولئك الفتية من آل محمّد التي أخبر عنها أمير المؤمنين عليه السلام هُم الحسين عليه السلام وأهل بيته؟ أفلا ينطبق الخبر الذي ذكره علي عليه السلام قبل أربع وعشرين سنة علىٰ الحسين وأهل بيته؟».

يا له من ظنّ فاسد! ما هي الصورة التي رسمها هؤلاء للإمام حتّى يتحدّثوا عنه بهذا الشكل! لو لم يكن إماماً بل كان فرداً عادياً كمحمد بن الحنفية وسمع هذا الكلام من أبيه وقد واجه عسكر يزيد فهل لنا أن ننسب ابن الحنفية إلىٰ الترديد؟!

نعم، هنا يكمن الخطأ، حيث ظنّ بأنّ إخبار أمير المؤمنين عليه السلام عن تلك الحادثة في معركة صفّين قد اقتصر علىٰ تلك العبارة، رغم أنّه رأىٰ أنّ هذا الكلام

---

(١) دلائل النبوّة لأبي نعيم ٢: ٥٨١ ح ٥٣٠، ذخائر العقبى: ١٧٤، الرياض النضرة ٣: ٢٠١، الفصول المهمّة لابن الصبّاغ ٢: ٧٦١، الخصائص الكبرى للسيوطي ٢: ٢١٤.

لوحده يكفي في العلم بجميع الحادثة بالنسبة لأيّ فرد عاديّ فضلاً عن الإمام عليه السلام.

كلّا، ليس الأمر كذلك، فقد تحدّث علي عليه السلام في معركة صفّين بهذا الشأن وقد ذكر حسيناً صراحة والعطش الذي يصيبه حين يستشهد في أرض كربلاء حتّى لاينبرى لاحقاً مَن يقول: فهل ينطبق حديث الوالد علىٰ الولد أم لا؟

وقد مرّت[1] علينا رواية العلّامة المجلسي في البحار التي أشارت إلىٰ بُكاء علي عليه السلام علىٰ ولده الحسين عليه السلام، الذي سيموت في كربلاء عطشاناً. فهل قول علي عليه السلام في ميدان المعركة في تلك اللحظة الحسّاسة كان همساً في أُذن الراوي ولم يسمعه إلّا عبدالله بن قيس، أم أنّها أخبار قالها علي عليه السلام وسط الميدان عن تلك الحادثة؟ أو لا نفهم من هذه الرواية وأمثالها أنّ حادثة كربلاء كانت حديث الساعة ولم يكن من يتردّد على أهل البيت بعيداً عن تلك الأخبار فضلاً عن أهل الدار.

فهل من المعقول أن نعترف أوّلاً ـ علىٰ ضوء الروايات القطعيّة ـ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد أخبر بشهادة الحسين عليه السلام، وكان الحسين قد سمع الخبر منذ طفوليّته. ثمّ نثبت بعد ذلك من خلال مباحث الكتاب أنّه عليه السلام لم يكن عالماً باستشهاده؟

أمّا الروايات الموثوقة التي وردت في كتاب بحار الأنوار فقد صرّحت بأنّ أمير المؤمنين عليه السلام قد صرّح باسم الحسين عليه السلام في معركة صفّين، حتّى روىٰ ابن عباس أنّ أمير المؤمنين عليه السلام حين مرّ بكربلاء بكى بكاءً شديداً وقال: «ما لي ولآل أبي سفيان! مالي ولآل حرب حزب الشيطان وأولياء الكفر! ـ ثمّ التفت إلىٰ ولده الحسين عليه السلام وقال: ـ صبراً يا أبا عبدالله، فقد لقي أبوك منهم مثل الذي تلق منهم»[2] فهل لأحد أن يقول بعد ذلك: إنّ الحسين عليه السلام احتمل حين وصل كربلاء أنّه المقصود بقول أبيه عليه السلام؟ ولا يسعنا هنا إلّا أن نخوض في بعض التواريخ:

---

(١) في ص ٢١٩.

(٢) بحار الأنوار ٤٤: ٢٥٢ ح ٢ عن أمالي الصدوق: ٦٩٤، مجلس ٨٧ ح ٩٥١، وكمال الدين: ٥٣٢ ب٤٨ ح ١.

فقد نقل مؤلّف كتاب القاموس ـ من الكتب الرجالية الموثّقة الذي طبع أخيراً قصّة عند ذكر إسم حبيب، وقد ذكرت هذه القصّة في سائر كتب التأريخ والرجال ـ أنّه «روىٰ الكشّي عن جبرئيل بن أحمد، عن محمّد بن عبدالله بن مهران، عن أحمد بن النصر عن عبدالله بن يزيد الأسدي، عن فضيل بن الزبير، قال: مرّ ميثم التمار وحبيب بن مظاهر بمجلس بني أسد وهما فارسان، فجعلا يتحدّثان حتّى قال حبيب: لكأنّي بشيخ أصلع قد صلب في حبّ أهل بيت نبيّه عليهم السلام ... فقال ميثم: وإنّي لأعرف رجلاً أحمر له ظفيرتان يخرج لينصر ابن بنت نبيّه صلى الله عليه وآله، فيقتل ويجال برأسه بالكوفة»[1].

لقد أصيب مجلس بني أسد بالذهول لما سمعوا من حوار هذين الوليّين حتّىٰ أجمعت كلمتهم علىٰ أنّهم لم يروا أكذب منهما! وهنا وصل رشيد الهجري فسأل عن ميثم وحبيب، فقال له بنو أسد: كانا هنا، ثمّ أخبروه بما سمعوه منهما، فقال رشيد: لقد قالا حقّاً، إلّا أنّ ميثم نسي أن يقول ويُزيد: من يأتي برأس حبيب مائة درهم! فما كان من أهل المجلس إلّا أن قالوا: إنّ رشيد أكذبهما![2]

بُكاء محمّد بن الحنفية:

نقل الطبري عن أبي مخنف: أنّ الحسين بن علي أقبل بأهله ومحمد بن الحنفية بالمدينة، قال: فبلغه خبر وهو يتوضّأ في طست قال: فبكى حتى سمعت وَكَفَ دموعه في الطست[3]. ولنا أن نسأل: مِمَ بُكاء ابن الحنفية؟ لو كان يأمل النصر كالإمام! لم يكن لذلك الخبر أن يبكيه، فالقضية قضية فتح ونصر والتحاق بالقوىٰ الشعبية الموالية في الكوفة، وليس في الأمر ما يدعو إلىٰ البُكاء!

---

(١) اختيار معرفة الرجال، المعروف بـ«رجال الكشي»: ٧٨ رقم ١٣٣.

(٢) قاموس الرجال ٣: ٩٦ رقم ١٧٦٨، وماذكر نقل بالمضمون.

(٣) تاريخ الطبري ٤: ٢٩٧.

نعم، بكاء ابن الحنفيّة إعلام للمؤلّف الذي اعتقد أنّ الإمام عليه السلام سوف لن يسقط حكومة يزيد، بل سيتعرّض لظلم جيش الكوفة، وهذه هي كربلاء التي ستستضيف الإمام!

بُكاء محمّد بن الحنفية تذكير بحادثة يعرفها كافّة قرابة أهل البيت، أفيكون الإمام غافلاً عنها لا عِلمَ له بها؟! لقد كانت قصّة كربلاء وفصولها الدموية أشهر لاتحتاج إلى بيان، وقد ذكرنا سابقاً أنّ التحاق زهير بن القين كان بسبب حديث سلمان الفارسي أو الباهلي، حيث أورد الطبري وابن أثير أنّ سلمان بشّر زهيراً بإدراكه لشباب آل محمّد، وذلك اليوم هو يوم فرح بالنسبة لزهير.

حديث رائع:

قال مؤلّف كتاب الأربعين الحسينيّة: «ما رواه في الكامل بسنده عن الباقر عليه السلام قال: لمّا همّ الحسين عليه السلام بالشخوص من المدينة أقبلت نساء بني عبدالمطلب فاجتمعن للنياحة حتّى مشىٰ فيهنّ الحسين عليه السلام، فقال: أنشدكنّ الله أن تبدين هذا الأمر معصية لله ولرسوله، فقالت له نساء بني عبدالمطلب: فلمن نستبقي النياحة والبُكاء فهو عندنا كيوم مات فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي وفاطمة ورقيّة وزينب وأُمّ كلثوم، فننشدك الله جعلنا الله فداك من الموت»[1].

إنّ الحسين عليه السلام قرّر الخروج إلىٰ مكّة فما معنى اجتماع الهاشميات من نساء بني عبدالمطلب للنياحة والبُكاء! يخرج إلىٰ مكّة لتنظيم الجيش والقيادة بغية الحركة إلىٰ الكوفة وبالتالي السيطرة علىٰ الحكومة، ومثل هذه الحركة ينبغي أن تدخل الفرح والسرور علىٰ الهاشميات وأهل بيت الرسالة، فقد تمهّدت الأرضية المناسبة لقيام الحكومة، فما هذا البُكاء!

---

(١) الأربعين الحسينيّة: ٥٧ ح٦ عن كامل الزيارات: ١٩٥ ح ٢٧٥.

نعم، إنهنّ يعلمن أنّ الإمام عليه السلام إنّما يتّجه نحو مصرعه الذي ليس فيه أيّ أمل بالنصر ـ النصر الذي يقول به مؤلّف «شهيد جاويد»: لقد سمعن من رسول الله صلى الله عليه وآله سرّاً أنّ ولده الحسين عليه السلام سيُقتل في كربلاء. نعم، لم يطقن سماع حركة الإمام ولم يتمالكن أنفسهنّ، أمّا الإمام فقد خاطبهنّ: أنشدكنّ الله أن تبدين هذا الأمر فهو معصية لله ولرسوله، وهل لمثل هذه النصيحة أن تسكّن من روع تلك القلوب الواهلة المضطربة والعيون العبرىٰ لنساء الرسالة! فهنّ نساء وقلوبهنّ تنبض بحبّ الحسين عليه السلام، ويعلمن أنّ هذه الحركة ستعيد مرارة رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله وشهادة أمير المؤمنين عليه السلام وغربة الزهراء عليها السلام، فأجبنه والدموع جارية علىٰ خدودهنّ: إنّنا نعلم أن لا رجعة من هذه الحركة. نعم، يمكن أن يهدأ روعنا وتسكن فورتنا إن جعلنا الله فداك لتنجو من الموت. فهل يسعنا بعد هذا أن نقول بأنّ الإمام لبّىٰ دعوة الناس أملاً في النصر، أم لابدّ من القول أنّه انطلق أملاً في انتصار الإسلام من خلال الشهادة.

السرّ الأكبر:

لقد وردت حادثة كربلاء في سائر الأديان، ولا أُريد أن أخوض في هذا المجال، إلّا أنّي أكتفي بما أورده الطبري بهذا المجال، قال: «حدّثني العلاء بن أبي عاثة قال: حدّثني رأس الجالوت، عن أبيه قال: ما مررت بكربلاء إلّا وأنا أركض دابّتي حتّى أخلف المكان، قال: قلت: لِمَ؟ قال: كنّا نتحدّث أنّ ولد نبيّ مقتول في ذلك المكان. قال: وكنت أخاف أن أكون أنا، فلمّا قُتل الحسين قلنا: هذا الذي نتحدّث»[1].

فهل يسعنا ـ أيّها القُرّاء الأعزاء ـ أن نقول بأنّ الإمام لم يكن عالماً بحادثة كربلاء وحين بلغ كربلاء احتمل... بينما يتحدّث الآخرون عن هذه النهضة وأنّ كربلاء ستضمّخ بدم الحسين عليه السلام؟!

(١) تاريخ الطبري ٤: ٢٩٦.

الكتاب والخطأ الرئيسي الثاني:

الخطأ الرئيسي الثاني الذي ارتكبه مؤلّف كتاب «شهيد جاويد» هو الضرر الذي ألحقته حادثة كربلاء بالإسلام، ونورد هنا بعض نماذج الكتاب التي تفيد هذا المعنىٰ:

١ ـ قال في جوابه لما قاله محبّ الدين الخطيب من أنّ حركة الحسين بن علي عليهما السلام قد حاقت خسارة بالحسين والإسلام والمسلمين إلىٰ يوم القيامة: «حكومة يزيد لا الحسين بن علي عليهما السلام هي التي وجّهت تلك الضربة للإسلام». وعليه: فهو يقرّ بموضوع الخسارة، إلّا أنّه ينسبها فقط إلىٰ يزيد.

٢ ـ لوّح في النقاط ١، ٢، ٣ ـ في عنوان «هل كان قتل الإمام عليه السلام بنفع الإسلام أم لا ـ إلى أنّ قتل الحسين عليه السلام لم يكن له أثر مطلوب علىٰ الإسلام، وقال: لقد قويت شوكة بني أُميّة وظنّوا أنّ النفع الوحيد الذي جناه الإسلام هو أنّ حكومة يزيد أصبحت ضعيفة لبضعة أيّام إثر قتل الإمام الحسين عليه السلام.

٣ ـ قال في ص٣٧٨ «وإذا كان المراد هو أنّ الشيعة قد انتظمت بقتل الإمام فلابدّ من القول بأنّ الشيعة قد قويت شوكتهم من جانب بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام، وضعفت من جانب آخر... إلى آخره، ثمّ تابع هذا الموضوع في ص٣٧٩.

٤ ـ ثمّ قال في ص٣٨٢ ـ في بحث بعنوان زبدة الكلام ـ: «لا يمكن قبول الفكرة القائلة بأنّ الإسلام قد انتعش بقتل الحسين عليه السلام» ولا يمكنه أن يقول: مرادي أنّ قتل الحسين عليه السلام أدّىٰ إلى الإضرار بالإسلام، من حيث إنّ الجريمة قد ارتكبت من قِبل قاتلي الحسين عليه السلام؛ لأنّنا لا نرىٰ عاقلاً ينكر أنّ قتل الحسين عليه السلام ضرر جسيم وجريمة لا تُغتفر، بل مرادك أنّ حادثة كربلاء وقتل الحسين عليه السلام كانت ضرراً علىٰ الإسلام، وهذا ما أوردته في ردّك علىٰ محبّ الدين في الدفاع عن هذا الضرر بأنّ

يزيد قد وجّه هذه الضربة للإسلام، فهل يمكن نسبة قتل الإمام لنفسه؟ حتّى نتّهم يزيد في مقام تبرئتنا للإمام، وعليه: فقصدك من قتل الإمام شهادته وأنّ تلك الشهادة كانت بضرر الإسلام، حيث قلت: يزيد هو الذي أضرّ بالإسلام.

والشاهد الآخر ما ذكرته في قولك: «لا نفهم ما يُقال من أنّ الإسلام قد استعاد حياته بقتل الحسين عليه السلام»؛ لأنّك لم تفترض الضرر من أجل نفس القتل، بل من أجل القتل وحادثة كربلاء، وهذا ما صرّحت به في ص ٣٨٣ حين قلت: «لا يسعنا أن ندرك هذا الأمر، فكيف للإسلام بالاستقرار والتماسك في فقدانه لزعيمه وناصره».

فالتعبير كان بالفقدان، والفقدان غير القتل، وعلىٰ هذا الضوء فقد ألغيت فريضة الجهاد بالكامل؛ لأنّ المعركة لا تستتبع دسومة، وغالباً ما يؤدّي الجهاد إلى إزهاق أرواح القادة الصلحاء، أو ليس فقدان مثل هؤلاء القادة يضرّ بالإسلام؟ فَلِمَ الجهاد؟ ولعلّ هناك من يقول في الجواب: إنّ فقدان مثل هؤلاء القادة هو دفاع عن الإسلام وهذا الدفاع مفيد.

نعم، قد نقول في الجواب: إنّ الهدف هو الدفاع، ولكنّه يتطلّب التضحية فلا يتحقّق إلّا في فقدان الزعماء الصلحاء، الدفاع هو الذي يروي شجرة الإسلام ويبقي علىٰ حياتها، وعليه: فالإسلام يمكن أن يستعيد حياته بقتل الإمام الحسين عليه السلام، وهذا ليس بممتنع، لنتساءل لاحقاً هل تحقّق هذا الإمكان؟ نعم لقد تحقّق هذا الأمر، شريطة أن لا يقتصر بالنظر علىٰ عصر حكومة بني أُميّة وبني العباس، فالحادثة ـ وكما سنتطرّق إليها لاحقاً ـ قد انطوت منذ يومها الأوّل علىٰ آثار قيّمة وفوائد جمّة.

٥ ـ قال في ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤ تحت عنوان ذلّة الأمّة: «وهنا لابدّ من القول بأنّ الأُمّة الإسلامية بعد قتل الحسين عليه السلام أصبحت أكثر ذلّة و خنوعاً تجاه

حكومة يزيد».

وواضح أنّ هذه العبارة تُفيد أنّ نهضة الحسين وشهادته قد أذلّت الإسلام، غير أنّ الإمام عليه السلام لا ذنب له. نعم، الواقع أنّه لا يمكن إنكار تجبّر يزيد وتنامي شوكته عدّة أيّام بُعيد الحادثة، إلّا أنّها لم تجلب الذلّ والهوان علىٰ الناس، بل كانت الأُمّة تعيش حالة من الذلّ والهوان التي تبددت بفضل تضحية الحسين عليه السلام ودمه الشريف.

هذه بعض النماذج من عبارات الكتاب الذي يعتقد مؤلّفه كالآخرين بأنّ حادثة كربلاء كانت خسارة.

حادثة كربلاء نفخت الروح في جسد الإسلام:

من المُسلّم به أنّ الإسلام أو أيّ قانون يهدف إلىٰ إشاعة الحرّيات والمساواة وإيصال الإنسان إلىٰ الكمال إنّما يرتطم ببعض العوائق والعراقيل المؤلمة، التي لا يمكن تفاديها ألبتّة في هذه المسيرة الشاقّة. فالقوانين الإلهية القائمة علىٰ أساس العدل والعلم ومساواة الضعيف بالقوي وكون الجميع سواسية في الحقوق والواجبات، لا مناص لها من الاصطدام بمصالح الطغاة من أصحاب الطمع والشهوة والعناد والجهل. فهذه القوانين السماوية لا تنسجم والشهوات الطائشة والقدرة الزائفة والعاتية التي تسحق الضعفاء والتي تستند إلىٰ هضم حقوق الأُمّة والتلاعب بمقدّراتها، وعليه: فالمعركة بين الطرفين قائمة علىٰ قدم وساق.

الجهاد في الإسلام:

يسعىٰ الإسلام بادئ الأمر ـ وعلىٰ هامش الحرية الفكرية والإرادة في العمل ـ في التزام منهج الوعظ والنصح للأعداء أملاً في إعادتهم إلىٰ جادّة الصواب،

إلّا أنّ البعض لا يستجيب لمثل هذا الأُسلوب ويوغل في الغيّ والعدوان، وهذا ما تلمسه بوضوح في القرآن الكريم في سرده لقصص الأنبياء مع أُممهم، ثمّ يندفع هؤلاء الأفراد أبعد من ذلك ليخطّطوا لتفنيد تعاليم الأنبياء ونظمهم الاجتماعيّة، وبالتالي إرعاب الأُمّة وزعزعة دعائم الأديان والشرائع. فإذا ما أغلقت جميع الأبواب بوجه الدين وغاب الأمل في هدايتهم، كان لا مناص له من اللجوء إلىٰ القوّة وبروز فلسفة الجهاد بالأموال والأنفس.

نعم، لقد بني الدين علىٰ العفو والرحمة والتساهل والمرونة، إلّا أنّ هذه المفردة مؤطّرة بأطر لا ينبغي أن تتجاوز حدودها، وهذا ما عبّرت عنه الآية الشريفة: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِم مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١).

إذن، فالجهاد في الإسلام وسيلة من أجل الدفاع عن حياض الدين وتحرير الأُمّة من براثن القوىٰ السلطوية الغاشمة، بل الجهاد من الفرائض الواجبة التي يتوقّف عليها وجود الإسلام والمسلمين.

أمّا الأمر الذي ينبغي الالتفات إليه هو أنّ الدفاع يشمل كافّة الوسائل ولا يقتصر علىٰ القتل، لابدّ من القيام مهما كانت النتائج، ومن الخطأ الاعتقاد بأنّ الإسلام أكّد علىٰ قتل الكفّار، ففي قتلهم نفع الإسلام وأنّ فقدان الأولياء ضرر والقتل فيهم ليس بمطلوب.

فهذا القرآن يتبنّى مواقف الشهداء ويشيد بهم ويصرّح بدرجاتهم، فالشهيد قيمة حيّة، والشهيد من يقتل دفاعاً عن الدين. إذن فالقتل من أجل الدفاع

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٠٩.

مطلوب، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً ...﴾[١] فهل الآية الكريمة تأمر بالقتل أم تحضّ علىٰ الشهادة في سبيل الله وإشاعة التوحيد والعبودية؟

نعم، الشهادة محبوبة لدىٰ الله والقرآن، ليس هنالك من سبيل للظفر بشيء دون ضريبة، فالبذرة تدفن نفسها في التراب لتصبح شجرة، وذلك يقتل لتحيا أُمّة وتنعم بالحرّية والسعادة، ولذلك ترىٰ أولياء الله توّاقون للشهادة، فعدمهم يمنحهم ويمنح الآخرين الوجود، فأملهم الدائم «وقتلاً في سبيلك»[٢]، كما تراهم يتسابقون إلىٰ الموت في المعارك وقد مشىٰ إليه بعضهم عن علم بالشهادة. أجل، أولياء الله يعشقون الشهادة، فشجرة الإسلام قد تتطلّب أحياناً سقيها بالدماء، وهذا أمير المؤمنين عليه السلام يُصرّح في عهده الذي عهده إلىٰ مالك الأشتر: «وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة»[٣].

لا يسع البعض أن يستوعبوا حياة الإسلام وتنامي شوكته بسبب فقدان زعمائه وحماته، فهذا القول لا ينطوي سوىٰ علىٰ إنكار فلسفة الحروب والمعارك، وهل الحرب لعبة أو نزهة فلمَ الأمر بالجهاد؟ لِمَ كان الرسول يشترك بنفسه في المعارك؟ لِمَ برز علي بن أبي طالب عليه السلام لعمرو بن عبد ودّ؟ ولِمَ ضُرّج أولياء الله كعمّار بن ياسر بدمائهم في معركة صفّين؟ ولِمَ كان الشهداء في مصاف الأنبياء؟ لِمَ كان الحسين عليه السلام يأذن لفتيته في القتال؟ لِمَ كلّف أخيراً ذلك الصبي الذي لم يكن له سوىٰ ثلاث عشرة سنة بالقتال؟ يُقال: دفاعاً عن الإسلام، فنقول: إذا كانت هذه عاقبة الدفاع عن الإسلام بحيث يؤدّي إلىٰ فقدان الإمام فهذه هي وظيفته، والإسلام عزيز منيع بهذه الوظيفة. أو لم يُقتل أنبياء بني إسرائيل ﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٩.

(٢) إقبال الأعمال ١: ١٤٣، قطعة من دعاء ليالي شهر رمضان.

(٣) نهج البلاغة لمحمد عبده: ٦٢٥.

بِغَيْرِ حَقٍّ﴾(١)، أولم يفكّر الأنبياء بأنّ في قتلهم ضرراً علىٰ المسيرة، كان عليهم أن يسلكوا سبيلاً لا يؤدّي إلىٰ فقدانهم، فيبقىٰ الدين عزيزاً بحياتهم ووجودهم، لكنّا نعلم بأنّهم خاطروا بأنفسهم ووقفوا بوجه المشركين والكافرين حتّىٰ ضحّوا بأنفسهم.

لا يمكن افتراض الحسين عليه السلام إماماً ظاهرياً للمسلمين، وأنّه مبسوط اليد ليخلص إلىٰ نتيجة مفادها: عدم إدراك وقبول إحياء الإسلام بفقدان الزعيم، فالحسين عليه السلام لو هادن يزيد لما عاد إماماً، ولو أكبّ مسيرة يزيد وأضفى الشرعية عليها، فهل في مثل هذا الإمام نفع للإسلام؟ وهل من سبيل أمام الإمام لو لم يهادن ويداهن سوىٰ الشهادة؟ لقد كان عزم يزيد أن يبايعه الحسين عليه السلام لتكون النتيجة اضمحلال الدين، وإلّا حمل إليه رأسه الشريف، الأمر الذي لا يجعل لحياة الإمام من نفع للإسلام.

من هنا كانت وظيفة الإمام التي تكمن في إحياء الإسلام والدفاع عن الحقّ تعني التضحية وعدم مسايرة حكومة بني أُميّة، وسقي شجرة الإسلام بالدماء الطاهرة الزكية.

بنفسه اشترىٰ حياة الدين فيالها من ثمنٍ ثمين(٢)

لقد ظنّ بأنّ حركة الحسين عليه السلام كانت تتجه صوب الكوفة والأخذ بزمام الأُمور والسيطرة علىٰ الحكومة، وهذا الهدف لا ينسجم والعلم بالشهادة، بل لم يكن الإمام يظنّ بأنّه يرد كربلاء ويقتل فيها، وذلك لأنّ هذه الشهادة لم تكن لصالح الإسلام، بينما ليس هناك من منافاة عقلائية بين الحركة إلىٰ الكوفة والعلم بالشهادة، كان عنوان الحركة هو الكوفة والأخذ بزمام الأُمور، كي لا ينبري

(١) سورة النساء: الآية ١٥٥.

(٢) من مراثي آية الله الكمپاني.

أحدهم ويتخرّص بأنّ الأُمّة تأهّبت لامامة الحسينعليه السلام فـرفضها، ولا يـتسرّب الشكّ إلىٰ النفوس بأنّ الزعامة لو كانت حقّاً ثابتاً له لما رفضها، فـقرّر الإمـام أن يخرج إلىٰ الكوفة من أجل إحياء الإسلام، فقد ماتت السُنّة وأُحييت البدعة، ولما كان يعلم بشهادته وعدم درك هدفه، اسـتعدّ للـتضحية والفِـداء، أمّـا الكـوفة ومقاومة حكومة يزيد ليكتب في التأريخ بأنّ الحسينعليه السلام ثـار مـن أجـل إحـياء الإسلام وإمامة الأُمّة وإنقاذها من بؤسها وشقائها، وهذا مـا سـيؤدّي إلىٰ قـتله وفوزه بلقب سيّد الشهداءعليه السلام، ولو صرّح الإمام بأنّي أذهب لأُقتل في كربلاء، لما استطاع التأريخ أن يصيب في تقييم الحادثة وأنّ الهدف هو إحياء الإسلام، في حين يعلم الإمام أنّ هذا الهدف لا يتحقّق إلّا في ظلّ التضحية والشهادة.

المعطيات الخالدة للحادثة:

لقد فتحت حادثة كربلاء منذ انبثاقها الباب علىٰ مـصراعـيه أمـام انـبعاث الإسلام من جديد، أمّا وقوع الحادثة فقد أفرز حقّانية الحسـين وكـونه الإمـام الحقّ، وبطلان حكومة يزيد وكونه إمام الضلالة الذي يهـدف إلىٰ القـضاء عـلىٰ الإسلام، لقد جهدت الأجهزة الإعلامية لحكومة معاوية وابنه يزيد عـلىٰ تـقديم الإمام كفرد خارجي لا يمت بصلة إلىٰ الدين، وقد تفاجأ أهل الشـام لخـبر قـتل أمير المؤمنينعليه السلام في محراب العبادة، ليتساءلوا مع أنفسهم: أفيصلّي علي حتّى يُقتل في المحراب!

كان معاوية ينفق الأموال الطائلة دون حساب من أجل وضع الأحاديث ضدّ أهل البيت عليهم السلام، في حين أثبت الحسينعليه السلام في كـربلاء أنّ أهـل البـيت أصـحاب حقّ، وقد بلغوا كربلاء مظلومين للدفاع عن الدين، يزيد شارب الخـمور وهـو الفاسق عبد الدنيا والشهوة، الذي لا يتحرّج عن سفك دم الرضيع، ويـعمد بـعد

القتل والفتك إلىٰ إحراق خيام النساء وسلبهنّ ما عليهنّ، لقد أحبطت حادثة كربلاء في أوائل أيّامها كافّة دعايات معاوية، كما أفهمت عسكر يزيد أنّ الحسين عليه السلام ضحيّة شهوات يزيد والحقد الدفين لعلي عليه السلام.

لقد كشفت خطبه ذلك اليوم عن كمالات الإمام عليه السلام، عن ولايته وإمامته وصلاحيته وزعامته وعلمه ودرايته وشجاعته وفصاحته وتضحيته وحقّه، بما لا يدع مجالاً لرواسب دعايات الجهاز الأموي. وهذا يزيد الذي جيّش الجيوش وشقّ وحدة الأُمّة الإسلامية في قتاله للحسين عليه السلام! بحيث اندفع البعض لقتاله وهو «يتقرّب إلىٰ الله بدمه»! إلّا أنّ نفس الحادثة والخطابات الحماسية للإمام أزالت الإبهام والغموض وأوضحت الأمر، بما جعل بعض عسكر يزيد يلتحق بركب الإمام، ويرتفع صوت البعض الآخر بالاعتراض والاستنكار.

لقد أثبت الحسين عليه السلام في ذلك اليوم أنّ الباغي هو يزيد، كان لا ينفكّ عن إيراد خطبه وكلماته التي عرّت التيار الأموي وكشفت زيفه للناس، الذين ليس لهم سبيل سوىٰ تصديق ما كان يقوله الإمام.

لقد اذعن العدوّ لصحّة ما أورده الإمام عليه السلام: «إنّ عليّاً كان أوّلهم إسلاماً، وأعلمهم علماً، وأعظمهم حلماً، وأنّه وليّ كلّ مؤمن ومؤمنة»[1].

وهو الذي هتف عالياً أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة»[2].

وأخيراً هو الذي جعل العدوّ يشهد بأنّ حسيناً إنّما يقتل ثأراً من علي عليه السلام وهو الذي جعل الحرّ بن يزيد الرياحي يعيش الخيار بين الجنّة والنار فيلتحق بركب الحسين عليه السلام.

---

(١) الأمالي للصدوق: ٢٢٣ مجلس ٣٠ قطعة من ح ٢٣٩، وعنه بحار الأنوار ٤٤: ٣١٨ قطعة من ح ١.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ٤: ٨ ح ١٠٩٩٩ و ص ١٢٥ ح ١١٩٥٤ و ص ١٢٩ ح ١١٦١٨.

إذن، فقد ذهبت أدراج الرياح جميع تلك المدّة المديدة من الدعايات المسمومة خلال المرحلة الأُولىٰ من حادثة كربلاء، ثمّ اتّضح ظلم يزيد وجوره، وما زالت الحادثة الحسينيّة إلىٰ يومنا هذا تدمع العيون وتجدّد الأحزان كلّ عام كما تجنّد الطاقات وتعبّئها باتجاه العدل والحرّية.

النظرة السطحية:

قد يظنّ البعض بأنّ حادثة كربلاء قد ضاعفت قدرة بني أُميّة، وأنّ فقدان القائد قد أدخل اليأس علىٰ قلوب الناس، كما أدّت بعيالات الحسين عليه السلام إلىٰ الأسر والسبي، دون الالتفات إلىٰ أنّ هذه الحادثة قد هزّت عرش يزيد وقلبت خططه وأفكاره رأساً علىٰ عقب، فكلّنا نعلم أنّ يزيد قد هَمّ بتقويض صرح الإسلام وهدم معالم الدين، وكان يتحيّن الفرص للثأر من بدر وحنين، في حين دفعت كربلاء بيزيد لأن يتظاهر بالدين ويلقي باللائمة علىٰ ابن مرجانة في تعجيله بقتل الحسين عليه السلام.

يأس الأمّة:

أمّا الأُمّة فلم تشعر باليأس بقدر ما عاشت حالة من الثورة والغليان والغضب والنقمة، الأمر الذي تمخّض عن قيام المختار، ولم تستطع الزعامة الغاشمة مواصلة حكومتها إلّا بقوّة الحديد والنار.

نعم، لقد آتت تلك الحادثة أُكُلها منذ لحظاتها الأُولىٰ، ثمّ أعقبتها تلك الحملة الإعلامية التي قادها أهل البيت بعد الحادثة بيومين، لتشهد الكوفة من جديد الهدير العلوي المدوّي علىٰ لسان كريمته زينب الكبرىٰ، ففضحت يزيد وأسقطت الأقنعة عن وجهه الكريه، كيف يزعم أنّ سبي زينب لم يكن من ضمن أهداف

الإمام عليه السلام؟ يا له من زعم أجوف؛ ما الذي حدا بالإمام لاصطحاب النسوة وهو يعلم بقتله في كربلاء؟ ليس هنالك ما يدعو إلىٰ القلق فيما لو بقين في الحرم المكّي الآمن؟ ألا يشعر الإمام بالقلق علىٰ عيالاته بالإتيان بهنّ إلىٰ كربلاء وهو يعلم بقتله، فهل هنالك مثل هذا القلق لو بقين في مكّة؟ لو بقين في مكّة لما كان لهنّ من ملاذ بينما يتمتعنّ بالحصانة السياسية لو رافقن الحسين عليه السلام!! أو لم يبق ابن عباس ومحمّد بن الحنفية في مكّة أو المدينة؟ لو لم يكن الأسر والسبي من ضمن الأهداف، أفلا يعتبر الحسين عليه السلام مُقصّراً؟ فالحسين عليه السلام كان يعلم بأنّه مقتول، أفلم يحتمل أنّ ذلك القتل سيؤدّي إلىٰ سبي عيالاته؟ وعلىٰ فرض هذا الإحتمال فهل هو احتمال منجّز؟ اللهمّ إلّا أن يُقال: إنّ الإمام لم يكن قد تكهّن بعاقبة الأمر!

طبعاً إن كنت ممّن يؤمن بأنّ الإمام معصوم بعيد عن الزلل والخطأ فكيف تحلّ هذا الإشكال؟ وكيف توفّق بين هذه التناقضات؟ نفترض أنّك تعتقد بأنّ الإمام لم يكن عالماً بعاقبة الأمر منذ البداية، ولكن حين اعترضه الحرّ وقد اتّضحت عواقب الأُمور كما ذكرت فلِمَ لَمْ يقترح رجوع نسائه؟ هل كان الحرّ مأموراً بتسليم عيالات الحسين عليه السلام إلىٰ عبيدالله أيضاً؟ لو كان الحسين عليه السلام اقترح علىٰ الحرّ رجوع عيالاته ألم يكن ذلك كافياً في قبول عذر الحرّ عند عبيدالله؟ لقد أقررت بعذره حيث قلت: لو ترك الحرّ الإمامَ يرجع لما آخذه عبيدالله، فلم لم يقترح الإمام رجوع عيالاته؟ ولما شعر بأنّ الخطر قد أحدق به ـ كما زعمت ـ فهل الإصرار علىٰ اصطحاب أولئك الأعزّة يُفيد عدم التنبؤ بوقوع الأحداث؟ إذن لا يمكن القول بأنّ الأسر لم يكن من الأهداف المرسومة، بل من المتيقّن كان جزءاً مكمّلاً للشهادة، فكان لابدّ لتلك القافلة من القيام بمهمّتها الإعلاميّة.

فوظيفة الحسين عليه السلام التضحية من أجل الإسلام، بينما كانت مهمّة زينب تكمن

في تغطية وقائع كربلاء والتعريف بشخص الإمام وفضح يـزيد والحـيلولة دون ضياع دم الإمام وسائر الشهداء.

خطبة زينب الكبرىٰ:

لقد فهمت الأُمّة من خطبة زينب في الكوفة أنّ حكومة يزيد إنّما استهدفت القضاء علىٰ الإسلام ومحو آثار الرسالة، وقد حال الحسينعليه السلام بدمه الشريف دون هذا الهدف، فالحسينعليه السلام لم يمت، فهو قتيل في سبيل الله ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1] بل يـزيد هـو الذي قـتل وقذف بنفسه في الهاوية، فالإسلام باق ويزيد زائل.

وهذا هو المنطق الذي نهجه علي بن الحسينعليه السلام في مسجد الشام، لـمّا سمع الأذان وأقرّ الشهادة الثانية بلحمه ودمه وجسمه وكلّ شيء في جسده، ليـثبت حياته من خلال حياة الرسالة والشهادة بالنبوّة لجدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، ولم يفلح يزيد في محوه للرسالة، وعليه: فقد كانت حادثة كربلاء ـ منذ انـعقاد نـطفتها ومـروراً بأحداثها وما أعقبها من سبي وأسر ـ عنصر فاعل يفيض حيويّة علىٰ الإسلام.

المنطق الغاشم:

طبعاً، يمكن لمنطق القوّة ـ الذي يستند إلىٰ القمع وكَمّ الأفواه والتلويح بالحديد والنار ـ أن يشيع الخوف والهلع والرعب والاضطراب كسحابة في سماء الأُمّة، إلّا أنّ فجر الحرية والعدالة إنّما يشقّ لا محالة عباب هذه السحب الزائفة، فينهض حماة الدين ليحطّموا تلك القوىٰ الفارغة.

وعوداً علىٰ بدء فإنّ المؤلّف قد ساء فهم وجود الإمام وعدمه، فقد افترض

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٩.

أنّ الإمام لو كان حيّاً وأصبح زعيماً للمسلمين ودارت القيادة الإسلاميّة حول محوره، لساد العدل والقسط ربوع العالم الإسلامي، وبالتالي لتحقّقت حكومة العدل التي نتطلّع إلىٰ تشكيلها من قِبل إمام العصر والزمان عجّل الله تعالىٰ فرجه الشريف، فتزول الفرقية الطارئة علىٰ الدين ولا تبقىٰ إلّا الطائفة الإمامية الحقّة التي تمثّل الدين، وحين افترض فقدان الإمام وعدمه ظنّ بأنّ هذا العدم يتضمّن زوال كلّ شيء بما فيه الإسلام واستفحال الظلم والجور والطغيان اليزيدي!

وعليه: فيخلص من خلال الفرضين إلىٰ أنّ شهادة الإمام قد أدّت إلىٰ ضرر عظيم لحق بالإسلام العزيز. وهنا يكمن الخطأ الذي ارتكبه المؤلّف في إطلاق العنان لخياله في أن يسرح ويمرح كما يشاء.

لنفترض أنّ الحسين عليه السلام قد انتصر ـ عسكرياً ـ علىٰ يزيد وتولّى الحكم، فهل ستسود الأحكام الإسلامية والتعاليم القرآنية حقّاً على جميع أنحاء المعمورة، بحيث يشهد العالم الإسلامي المترامي الأطراف اندحار الجهل والاضطراب والظلم والفوضىٰ وسيادة العدل والمواساة والمساواة والأمن والاستقرار و...؟

لا نعتقد بأنّ الأمر كذلك. وبالطبع فإنّ هذا ليس بمتعذّر علىٰ الإمام الحسين عليه السلام في أن يملأ العالم بهذه المفاهيم السامية، إلّا أنّ هذا الأمل مشروط باندحار الأشقياء والجهّال والطغاة وإزالة كافّة العراقيل التي تعترض سبيل الإمام، ولا نرىٰ لحدّ الآن مَن تمكّن من مثل هؤلاء الزعماء من اجتثاث جذور الظلم والجور وإبادة صروح الجهل والحمق وتطهير المجتمع من دنس الأرذال والأوباش والأشقياء وإخضاعهم لمنطقهم وسلطنتهم.

فأيّ من أنبياء الله طبّق مثل هذه المفاهيم والأهداف؟ هل استطاع موسىٰ عليه السلام بيده البيضاء وعصاه أن يخلق من بني إسرائيل مجتمعاً دينياً متطوّراً ويجتثّ جذور الوثنية والسامرية؟ فلم تجفّ أرجلهم من الماء حتّى طلبوا من موسىٰ عليه السلام أن يجعل

لهم إلهاً كما كان للآخرين، وفي نهاية الأمر يخبر القرآن عنهم بقوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾(١).

وهذا نبيّ الإسلام أعظم زعيم عرفه العالم الإنساني، فرغم جهوده الجبّارة ونجاحه في نشر رسالة السماء في أنحاء العالم، إلّا أنّه لم يستطع أن يجعل الإسلام بكماله وتمامه هو الحاكم المطلق للعالم. هل استطاع نبيّ الإسلام إبّان حياته أن يضع الأئمّة الأطهار عليهم السلام صراحة في مواقعهم؟ نعم، بعد كلّ تلك المدّة من الزعامة والجهود المضنية في رفع مستوىٰ الأُمّة وتعويدها علىٰ ممارسات الدين ومفاهيمه وربطها بعجلة الحضارة والرقيّ والتمدّن وإنقاذها من الجهل والوثنية والتعنّت والتعصّب والمنطق الغاشم لأمثال أبي سفيان وصنمية أمثال أبي جهل، طرح أواخر حياته الشريفة قضية الغدير التي صرّحت بخلافة علي عليه السلام، فأطلق ذلك الرجل الذي كان قربه ـ وقد تغذّىٰ علىٰ مفاهيم الإسلام ـ عبارته المعروفة «إنّ الرجل ليهجر»(٢)!

هل استطاع الإسلام آنذاك إجتثاث جذور اليهود؟ هل استقطب إليه النصارىٰ؟ هل استطاع إفهام تلك البشارة الصريحة والميثاق الغليظ الذي اشتملت عليه التوراة والإنجيل بشأن نبوّة محمّد صلى الله عليه وآله ويجعلهم يذعنون لصحّة ما يقول؟ وهل استطاع النبي صلى الله عليه وآله أن يخضع كافّة تلك الحكومات الجبّارة لحكومته ويجعلها تنضوي تحت لواء الإسلام؟

وهذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ألم يتزعّم الأُمّة ويأخذ بزمام الأُمور؟ ألم تندفع إليه الجماهير وتضطرّه لقبول الخلافة؟ وعليه: فقد امتلك الجيش الجرّار والإمكانات وما من شأنه أن يجعل الحكومة تطبّق الأهداف القرآنية

---

(١) سورة البقرة: الآية ٦١.

(٢) مسند أحمد ١: ٧٦٠ ح ٣٣٣٦.

المقدّسة، أمّا زعامته وعلمه بأوضاع العالم الإسلامي وشجاعته واقتداره وارتشافه من ثدي الوحي وتتلمّذه علىٰ يد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله فحدّث ولا حرج، ولكن ألم تشهد هذه الزعامة منذ انبثاقها ذلك التمرّد والعصيان، ولاسيّما من أولئك الذين لم يروق لهم عدل علي عليه السلام، فرفعوا لواء المعارضة حتّى زجّوا بالإمام إلىٰ ميادين القتال، فكانت أوّلها معركة الجمل، ألم يقل القرآن: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾[1] فهل قرّت عائشة في بيتها أم تزعّمت العسكر لقتال علي عليه السلام، فخاطبها بكلّ حزن وأسىٰ «أهكذا أمرك رسول الله صلى الله عليه وآله؟»[2].

وأخيراً رأينا كيف امتدت زعامة معاوية واتّسعت رقعتها ومدىٰ الدماء الزكيّة التي أُريقت من أجل تلك الزعامة.

والذي نريد أن نخلص إليه هو بطلان تصوّر الموفّقية والنجاح التامّ لأئـمّة الدين في الزعامة، ولو تزعّم الحسين عليه السلام الأمر لعانىٰ ما عانىٰ منه من قبله من الزعماء الربّانيين.

سر عدم النجاح:

لا شكّ أنّ السرّ في عدم موفقيّة هؤلاء القادة هو أنّ الأُمّة ليست توّاقة جميعها للعدالة، كما أنّ الأفكار هي الأُخرىٰ ليست مطهّرة من الشوائب، فسنّة الله لم تجر بأن تبقىٰ البشرية علىٰ فطرتها ولا تتأثّر بعوامل الانحراف، بل غالباً ما تسيطر الشهوات والأطماع والخرافات والجهل علىٰ العقول، وهذه هي العناصر التي تهدّد الحكومات، ولذلك ليس لقوانين السماء حكومة عادلة موفّقة تماماً من أجل بسط العدل والقسط، فهي لا تستطيع أن تقطع دابر المخلّين بالأمن والاستقرار وتحول

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٢) المناقب للخوارزمي: ١٨٩، مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ٣: ١٦١، وعنه بحار الأنوار ٣٢: ١٨٢.

دون جهلهم وأنانيّتهم، بل هذا هو حال الأكثرية دائماً، القوانين السماوية تتضمّن كافّة مفاهيم العدل والكمال والجلال، إلّا أنّها لا تفرض مفاهيمها علىٰ الناس قسراً، فهي تطرح مشاريعها علىٰ الناس «وَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ»(١)، ولا يلومنّ إلّا نفسه.

إنّ هدف الأنبياء هو جمع الناس علىٰ الدين والعبادة التي تكفل الفلاح والسعادة، إلّا أنّ هذا الهدف لم يدخل حيّز التطبيق أبداً: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِن رَسُولٍ يَأْتِيهِمْ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾(٢).

فالدين الإسلامي الذي جاء لتكامل الإنسان إنّما يمتلك الجهاز القيادي الكامل الذي لا يألو جهداً في إشاعة مفاهيم القرآن، إلّا أنّهم وبدءاً برسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام إنّما اصطدموا بجمّ من الحوادث التي تعرقل مشاريعهم وأهدافهم، وقد بلغت هذه الحوادث ذروتها حتّى صوّرها أمير المؤمنين عليه السلام: «فصبرت وفي العين قذىٰ وفي الحلق شجا»(٣).

وحين تدافعت الأُمّة لإمارته، ولم يكن له بدّاً من قبولها رغم نفرته منها قال: «لولا حضور الحاضر وقيام الحجّة بوجود الناصر وما أخذ الله علىٰ العلماء أن لا يقارّوا علىٰ كظّة ظالم ولاسغب مظلوم لألقيت حبلها علىٰ غاربها...»(٤) ألم ينتصر المسلمون في ظلّ قائدته، ويتّسع نور الإسلام في أطراف الدنيا؟ أو يمكن تصوّر تقاعس الإمام عن القيام بوظيفته في الزعامة؟ الواقع هو أنّ الدافع الذي كان يقف وراء رفض الإمام عليه السلام للزعامة هو علمه بهذه الصدور التي ملأت حقداً وغيضاً وطمعاً، فما أكثر أمثال طلحة والزبير ومعاوية، ولم تكن سيرة علي عليه السلام

(١) اقتباس من سورة الكهف: الآية ٢٩.

(٢) سورة يس: الآية ٣٠.

(٣) نهج البلاغة: ٨٣.

(٤) نهج البلاغة: ٩٠.

تنسجم وتأمين الطلبات اللامشروعة، ولذلك كان يعلم بأنّ هذه الخلافة التي تطالبه بالتزام جانب الحقّ والعدل وتطبيق الأحكام الإسلامية والمفاهيم القرآنية ستؤلّب عليه أعداء الدين، وبغضّ النظر عن كلّ ذلك فقد قبل الخلافة وسار بالعدل وربط الأُمّة بدينها وقرآنها إلّا أنّ ثمن ذلك كان باهضاً.

وخلاصة القول هو أنّه لا ينبغي أن يظنّ المؤلف بأنّ الحسينعليه السلام لو أطاح بحكومة يزيد وأخذ بزمام الأمور فإنّه سيتمكّن تماماً من إشاعة الحرية والفضيلة ومفاهيم القرآن وبسط العدل والقسط والمساواة والإنصاف، فلو انتصر الحسينعليه السلام واندحر يزيد، فهناك مئات الأفراد من أمثال يزيد الذين تلبّسوا بلباس الإسلام، وهذا ليس ذنب الأئمّةعليهم السلام، بل ذنب هؤلاء المهووسين الذين يمثّلون عقبة كؤودة في طريق أئمّة الدين وزعماء المسلمين.

وما عليك إلّا أن تتأمّل صرخات الحسينعليه السلام يوم عاشوراء، كان نداء مظلوميّة الإمام: علامَ تقاتلونني، ما ذنبي؟ أو يكون ذنبي في دعوتكم لي ورسائلكم التي وردتني أن أقدم علينا فليس لنا من إمام، فقدمت إليكم؟ لقد صوّرتم برسائلكم مدىٰ الظلم والجور بما يجعلني لا أتريّث في القدوم إليكم، أولم ير المؤلّف أنّ جواب هذه الصرخات المظلومة كان قد تمثّل بالتهليل والتصفير والسخرية والسبّ والشتم.

فغدوا حيارىٰ لا يرون لوعظه سوى الأسنّة والرماح جواباً[1]

فليوقن المؤلّف العزيز بأنّ الإمامعليه السلام حتّى لو فتح الكوفة، لما واجه من أولئك الأقزام سوىٰ ذلك الجواب، طبعاً ستقف الطائفة المؤمنة الغيورة إلىٰ جانب الحسينعليه السلام وتهبّ للدفاع عنه، غير أنّ ناهبي بيت المال وقطّاع الطرق واللصوص

(١) أعيان الشيعة ٧: ٢٦، والقصيدة بكاملها للسيّد رضا بن هاشم الرضوي الموسوي اللكهنوي.

سوف لن يقفوا مكتوفي الأيدي.

إذن، فالصورة الأولىٰ التي رسمها المؤلّف ـ والتي تمثّل حلماً لذيذاً ـ لايمكن قبولها بأيّ شكل من الأشكال.

الصورة الثانية :

نريد أن نرىٰ هل أنّ حادثة كربلاء وفقدان القائد ووقوع الأُمّة في قبضة يزيد كانت ضرراً علىٰ الإسلام أم نفعاً ؟ ولو كانت نفعاً فهل نبارك للأفراد الذين صنعوا هذه الحادثة المؤلمة، أم لابدّ أن ندينهم ونلعنهم إلىٰ يوم القيامة؟

لقد أشرنا باختصار إلى أنّ حادثة كربلاء قد انطلقت لصالح الإسلام منذ ولادتها، وقد فشلت كافّة مخططات معاوية ومؤامراته وأمواله الطائلة التي أنفقها في إطار معاداة عليّ وأهل بيت النبوّة والرسالة عليهم السلام، وكان الفضل في ذلك لركب الأسرىٰ والسبايا الذي خاطب الرأي العام في كلّ مكان وفضح يزيد و كشف مظلومية الحسين عليه السلام، والأهمّ من ذلك ما لعبته هذه الحادثة آنذاك من دور في التسلّل إلىٰ أفكار يزيد، فيزيد كان عازماً ـ منذ اليوم الأوّل لتربّعه علىٰ عرش السلطة ـ علىٰ القضاء علىٰ الإسلام وإبادة القرآن، والتذكير والاعتزاز بعصر الآباء والأجداد، والتغنّي بالأصنام والأوثان، فكان شعاره المشؤوم.

لَعبت هاشمُ بالملك فلا خَبَرٌ جاءَ ولا وَحيٌ نَزَل[١]

إلّا أنّ يزيد نفسه قد استوقف تنفيذ هذه الخطّة بصورة موقّتة، وقد علم بأنّ عليه أن يتحمّل الضربات تلو الضربات وينتظر زعزعة حكمه إذا أراد أن يقضي علىٰ الإسلام ويقتل الحسين عليه السلام، ولاشكّ أنّ ذلك التوقّف كان معلولاً لحادثة

(١) تقدم في ص ٢٠٧.

كربلاء وقافلة الأسرىٰ. وإذا أردت أن تقف علىٰ هذا المعنىٰ فتأمّل ما قاله يزيد بعد شهادة الحسين عليه السلام وهو يقارن بينه وبين الإمام: «فلعمري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرىٰ لرسول الله فينا عدلاً ولا ندّاً»[1]. لاشكّ أنّ يزيد ينطق بذلك خداعاً، فهو لا يؤمن برسول الله صلى الله عليه وآله إلّا أنّ الحادثة اضطرّته إلىٰ ذلك ليثني علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله، وإلّا فقد أنشد:

لعبت هاشمٌ بالملك فلا … خَبَرٌ جاءَ ولا وحيٌ نَزَلْ
لَستُ من خَندف إن لم أنتقم … من بني أحمد ما كان فَعَل[2]

نعم، كلّما قام زُعماء الدين وإن قتلوا ومن معهم من أتباعهم فإنّ أهدافهم ومشاريعهم دخلت حيّز العمل والتطبيق، غاية ما في الأمر أنّ ذلك يستتبع التضحية والفداء وفقد الأحبّة، وإلّا فالشهادة هي تحقيق الهدف، لقد استشهد الحسين عليه السلام إحياءً للسنّة، وحقّاً كان إحياؤها بشهادته، لو لم ينهض الإمام ويتحمّل بصبر تلك المصائب وقتل الأحبّة وسبي النساء، لما بقي من الإسلام إلّا اسمه، ومن القرآن إلّا رسمه ولعلا صرح يزيد وعبيدالله وتحطّم صرح الدين، نهضة الحسين عليه السلام وتضحياته العظيمة هي التي حالت دون بلورة خطط يزيد، بل نهضة الحسين عليه السلام فضحت حكومة بني أُميّة وعرفت الأُمّة بشخصية يزيد، ونهضة الإمام الحسين عليه السلام أثبتت أصالة الإسلام وحفظت القرآن. وهذا غيض من فيض آثار تلك الشهادة في أوائل واقعة كربلاء الأليمة.

معطيات الحادثة بعد وقوعها:

ربّما لا ينضب الحديث في هذا المجال، فالمدرسة الحسينية مدرسة الحرية

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٥٥.

(٢) تقدم في ص ٢٠٧.

والتحرّر، وكلّ ثائر في الإسلام إنّما يستصغر شأنه ودمه مقارنة بالحسين عليه السلام واستمداداً للعزم منه. المدرسة الحسينية مدرسة الشرف والشجاعة والمساواة والتضحية من أجل إنماء شجرة الإسلام، لقد تعلّم شهداء المدرسة الإسلامية دروس الفداء والتضحية من هذا الرجل الربّاني أبي الأحرار والثورة، والتأمّل في الحديث القائل بأنّ كلّ مسجد إنّما بني بفضل دم شهيد سفك لا يفيد سوىٰ الإقرار والشهادة علىٰ صحّة هذا الحديث، فما المساجد والمعابد التي تشكّل مراكز العبودية إلّا قبسات من شعاع الحسين عليه السلام وتضحياته الحسام، لقد استشهد الحسين عليه السلام، أمّا الإسلام فقد التقط أنفاسه وتجدّدت حياته.

نعم، إنّما أحرقت خيام الحسين عليه السلام لتُقام خيام الإسلام التي تنشر معارف الدين وأحكام القرآن إلىٰ يوم القيامة، لقد أصبح الحسين عليه السلام والإسلام اليوم بمثابة «الصورة والمادّة» وصار الحسين عليه السلام هو الفصل المميّز للإسلام.

الحسين عليه السلام والإسلام:

لا يسع الأحرار من محقّقي الأديان ومفكّريها في بحثهم لحقيقة الدين إلّا من خلال الإمام الباذل لمهجته، وقد تعرّفت الدنيا اليوم ومن خلال دراستها لحادثة كربلاء علىٰ منهج الإسلام ومفاهيم هذا الدين الحنيف، فكانت بركة بطلها هذا التشيّع الذي ساد وما زال يسود كافّة بقاع الأرض، فقد عاش المذهب الاثناعشري ردحاً من الزمن حياته خلف الحُجب ولم يستطع الأئمّة الأطهار عليهم السلام من التعرّض علناً لمسألة من مسائله علىٰ أساس فقههم دون اللجوء إلىٰ التقيّة والحذر من العدوّ، بينما غدا ببركة الحسين عليه السلام مذهباً رسمياً يظهر ملايين البشر من خلاله تشيّعهم ليمارسوا حياتهم وتعاليمهم بالانضواء تحت لواء الإمام الصادق عليه السلام زعيم المذهب.

وبالطبع، لا يمكن أن تورق ثمار هذه الشجرة التي نبتت عروقها من دم الحسين عليه السلام علىٰ مدىٰ الزمن القريب، ولا ينبغي الظنّ بأنّ صرخة الإمام كانت من أجل إنقاذ تلك الثلّة في ذلك الزمان المحدود، أفلا تعلمون أنّ الإمام عليه السلام عظيم وعملاق وعلىٰ سعة من الفكر بحيث يستوعب مليارات الأفراد علىٰ مدىٰ تقادم الزمان، وهذا سرّ تسطيره لتلك الحادثة.

وليت شعري أيّ منطق هذا الذي دعا المؤلّف للخوض في فوائد حادثة كربلاء في ذلك الزمان؟ ليخلص إلىٰ أنّها أدّت إلىٰ زيادة شوكة يزيد وحبس الأنفاس في الصدور وذلّة الأمّة وهوانها تجاه السلطة الأمويّة الغاشمة!

فإذا كان الأمر كذلك، فقل قتال أمير المؤمنين عليه السلام لمعاوية في صفّين قد أذلّ المسلمين وسبّب هوانهم، وعلىٰ ضوء استنتاجك فإنّ صفّين وجّهت صفعة أقوىٰ للإسلام، وجرّت عليه الضرر الأكبر إذا ما نظرت إلىٰ عدد القتلىٰ وفقدان الأولياء وظهور فتنة الخوارج، وأخيراً تفاقم قدرة معاوية واستحكام خلافته دون منازع!!

وهنا يمكنك القول بأنّ علياً عليه السلام قد خاض قتال معاوية قسراً، ولم يكن جهاده ابتدائياً بل كان دفاعاً عن النفس!

ولنا أن نسأل: أليس عليّ إماماً مفترض الطاعة ومصوناً عن الخطأ وعالماً بالأحداث؟ أفَلَم يتّجه لقتال معاوية عالماً عامداً؟

بلى، يبدو أنّ الأمر لم يتمّ لصالح الإمام وقد تمكّن معاوية من اعتماد البدعة والخداع، ولكن ما نتيجة الأمر؟ ألم يكن قتال معاوية ضرورياً؟ كيف نقيم الأحكام التي يصدرها التأريخ اليوم بشأن معاوية؟ ما عاقبة معاوية؟ كيف ينظر العالم لعلي عليه السلام؟ كيف ترىٰ قبر معاوية والمرقد المطهّر لعلي عليه السلام، ماذا يقول القرآن بشأن عليّ عليه السلام؟ هل حفظ عليّ الإسلام أم قضىٰ عليه؟ لو هادن الإمام حكومة

معاوية أكانت تنشب معركة صفّين؟ ولو صغى الإمام لنصيحة المغيرة بن شعبة أكان يسع معاوية في تلك الفرصة المقتضبة أن يطالب بدم عثمان؟ ماذا دهىٰ علي عليه السلام ليجيب المغيرة بهذه القوّة «لا أستعمل معاوية يومين»[١]، كما ردّ علىٰ اقتراح ابن عباس بالإبقاء مؤقّتاً علىٰ معاوية في الشام: «والله لا أعطيه إلّا السيف»[٢].

وأخيراً ماذا قال لشبث بن ربعي حين بعثه مع سعد بن قيس الهمداني وجماعة إلىٰ معاوية وإقراره بطاعة الإمام عليه السلام، فسأله ابن ربعي: وإن لم ينزل علىٰ طاعتك فهل أنت موليه؟ فقال عليه السلام: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ...﴾ الخ[٣][٤].

إذن، فلم تكن معركة صفّين خارجة عن علم الإمام، فالإمام يعلم أنّه لو أطلق العنان لمعاوية في الشام لما فكّر قط بالمطالبة بدم عثمان، الذي كان معاوية حريصاً تماماً علىٰ سفكه، ورغم هذا العلم والاطّلاع لم يكن علي عليه السلام مستعدّاً للإبقاء ولو ليومين علىٰ مهادنة ذلك الجبّار الغاشم المعادي للإسلام والمسلمين، الذي شيّد قصره علىٰ جماجم الضُعفاء والمحرومين وهضمهم حقوقهم ونهب أموالهم واستباح بيت مالهم.

نعم، الذنب ذنب معاوية الذي لم يذعن للحقّ وينقاد له. فلو قلنا بعدم علم الحسين عليه السلام بحادثة كربلاء وأنّها أضرّت بالإسلام وقد اضطرّ الإمام فيها للدفاع عن نفسه، وجب علينا أن نرسم مثل هذه الصورة الزائفة لكافّة معارك أمير المؤمنين عليه السلام وبعض حروب وغزوات النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله!! ولا يسعنا هنا أن نقول إلّا ما قاله الحسين عليه السلام: «فعلىٰ الإسلام السلام»[٥].

(١، ٢) الكامل لابن الأثير ٣: ١٩٧ .

(٣) سورة النمل: الآية: ٨٠ ـ ٨١.

(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤: ١٤ ـ ٢٢ .

(٥) الملهوف: ٩٩، وعنه بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٦.

إلّا أنّ الضمائر الحيّة والأفكار الحرّة لا تتعاطف قطّ وهذه الصورة الفارغة، فالدنيا برمّتها ترىٰ اليوم أنّ حياة الإسلام وعزّة المسلمين مرهونة بتلك النهضة الكبرىٰ وتضحية أُولئك الفتية وسبي تلك الصفوة. نعم، كان الأسر من الأهداف المرسومة للنهضة، والتضحية والفِداء منتهىٰ طموحها، وفي قتل أبي الفضل العباس دروس وعِبَر في تعليم الإخاء والفضل والإباء، وما زالت وستبقىٰ هذه الحادثة تدمع العيون وتبكي القلوب، وإلىٰ جانب هذه الدموع بحار من المحبّة والرحمة التي يسبح فيها المجتمع الشيعي، والحسين عليه السلام بطل الحرية والعدالة هو الذي شقّ عباب هذا البحر وجعل أمواجه تفيض غيرة وحرصاً علىٰ بناء الدين وتماسك قواعده.

نعم، هذا غيض من فيض من معطيات نهضة الحسين عليه السلام وحادثة كربلاء الملحمية، التي تتضاءل لديها الأفكار وتجفّ الأقلام.

سؤال:

لو كانت لحادثة كربلاء مثل هذه المعطيات، وقد أدّت إلىٰ قوّة شوكة الإسلام وانهيار دعائم الظلم والجور، لم اصطلح الأئـمّة عليهم السلام عليها بالمصيبة؟ فقد ورد في زيارة عاشوراء «يالها من مصيبة ما أعظمها وأعظم رزيّتها في الإسلام»[1].

جواب:

طبعاً مصيبتها في أنّها لِمَ حدثت وأَوْدت بحياة هؤلاء الفتية وبتلك الطريقة البشعة التي تدمي القلوب، أمّا ثمرتها فلولا وقوعها لما بقي للإسلام اليوم من أثر، وبتعبير أوضح: مرض عضال مميت، وقد شخّص الطبيب علاجه بقطع الساق اليسرىٰ للمريض وبخلافه يموت، فما عسىٰ أن يشعر به والد المريض ووالدته؟

---

(١) كامل الزيارات: ٣٣٠ ح ٥٥٦.

ليس سوى الحزن والسرور، فالحزن لقطع ساق ولدهم والسرور لعدم موته، فشجرة الإسلام كانت تشهد الذبول والتآكل بسبب حكومات الجور والفساد، وقد اجتهد يزيد وعبيدالله علىٰ اقتلاع شجرة الإسلام المباركة، وليس هناك من وسيلة لحفظها سوىٰ دم الحسين عليه السلام، كانت هذه الأفكار لا تفارق ذهن الإمام التي جعلته يتّجه لعدّة ليال إلىٰ قبر رسول الله صلى الله عليه وآله، ليس هنالك من سبيل سوىٰ «لا أرىٰ الموت إلّا سعادة»[1] وإلّا مات الإسلام، آنذاك ستقطع تلك الأيادي الأثيمة التي تنوي العبث بعروق شجرة الإسلام، وهنا تبلورت حادثة كربلاء، وعلىٰ الإمام أن يُمارس دوره في هذه التربة.

ولم تكن هذه الفكرة مقتصرة علىٰ الإمام عليه السلام، فقد تكهّن بها مسبقاً، لابدّ أن تشهد هذه التربة سفك الدماء المقدّسة لأُولئك الفتية، ليستعيد الإسلام حيويّته، فلتسفك الدماء، وليقف يزيد عند حدّه. ويشاهد أُمناء الإسلام وحماة العقيدة ـ الأئمّة الأطهار عليهم السلام ـ هذه الصورة، فهم مسرورون لبقاء القرآن وديمومة الإسلام، وفي ذات الوقت محزونون لهذه الحادثة والمصاب الجلل.

لِمَ بلغت الأُمور بالإسلام في ظلّ هذه الحكومات الفاسدة هذا المأزق، ولم تعد هنالك من وسيلة لعلاجه وبعث الحياة فيه سوىٰ سفك دم الحسين عليه السلام؟ لم كان الثمن دم هؤلاء الصبية وبتلك الطريقة المروّعة؟ لِمَ كربلاء؟ فالحادثة مصيبة وأعظم مصيبة، وهل من مصيبة أعظم من تلقّي الإسلام للضربات تلو الضربات أو الحيلولة دونها بإراقة دماء الطهر والعفّة والفضيلة بأيدي السفّاحين المتعطّشين للدماء؟

إذن، فكربلاء إذا نظر إليها من تلك الزاوية فهي مصيبة جلل، إلّا أنّها بالنظر إلىٰ هذه الزاوية فتح وانتصار، يوم سرور الإسلام الذي التقط أنفاسه إثر هذه

(١) حلية الأولياء ٢: ٣٩، وعنه مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ٤: ٦٨.

الحادثة. إذن، يمكن النظر إلىٰ هذه الحادثة من زاويتين:

١ـ النظر إليها من ذلك الجانب الفاسد الذي يسدّد الضربات الموجعة والمؤلمة، والتي لا يمكن تفاديها إلّا من خلال تضحية الإمام!

٢ـ النظر إلىٰ المعطيات الدائمة التي أفرزتها النهضة وتمخّضت عنها تلك الحادثة.

فالحادثة علىٰ ضوء النظرة الأُولىٰ مصيبة ورزيّة، بينما علىٰ أساس النظرة الثانية نعمة وسلامة، وعليه: فالأئمّة عليهم السلام إنّما يستندون إلىٰ النظرة الأُولىٰ ـ لا الثانية ـ في وصفهم لتلك الحادثة بالمصيبة.

وعليه: فلا منافاة بين نعتها بالمصيبة من قبل الإمام مع تلك المعطيات التي لم تفرزها سوىٰ طبيعة تلك الحادثة، وأمّا علىٰ ضوء النظرة الثانية فكربلاء لوحة عشق تفيض عذوبة ورقّة ونوراً، ستسطع أشعّته إلىٰ الأبد، وقد أشرقت في أُفقها شمس الإمام لتُنير كلّ دياجير الظلام، الأمر الذي يجعل الأئمّة عليهم السلام ينظرون إليها بعين الفرح والسرور.

ولا بأس هنا بسماع الكلمات الناطقة بإسم أهل البيت، مخدّرة حيدر وبطلة كربلاء وزعيمة ركب الأُسارىٰ، وهي تذكّر الأُمّة بصولات علي عليه السلام وخطبه في الكوفة، ولا عجب فقد رضعت هي الأُخرىٰ من ثدي الوحي، الأمر الذي جعل لها مكانة خاصّة عند الحسين عليه السلام، لقد تمثّل الملعون يزيد بأشعار ابن الزبعرىٰ مسروراً بدرك ثأره من تلك المعارك ولاسيّما موقعة بدر، علىٰ أنّه قتل القوم من ساداته وعدله ببدر فاعتدل، فلمّا سمعت زينب مقالته ردّت عليه قائلة بعد أن حمدت الله وأثنت عليه:

«أظننتَ يا يزيد حيث أَخَذْتَ علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا، نُساق كما تُساق الأُسارىٰ، أنّ بنا على الله هواناً، وبك عليه كرامة؟ وأنّ ذلك لعظم

خطرك عنده،... فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك جذلاً مسروراً، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة والأُمور لك متّسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا، مهلاً مهلاً! أنسيتَ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[١]... وشعَ سَعْيَكَ وناصِبْ جَهدك، فوالله لا تمحونّ ذكرنا، ولا تميت وحينا، ولا تدرك أمدنا، ولا ترضى عنك عارها، وهل رأيك إلّا فندا، وأيّامك إلّا عددا، وجمعك إلّا بددا، يوم ينادي المنادي: ألا لعنة الله علىٰ الظالمين»[٢].

ونلاحظ كيف نظرت ربيبة عليّ عليه السلام من خلال اعتماد الزاوية الثانية للحادثة، لتميط اللثام عن وجه يزيد ونيّاته المبيَّنة للإسلام والقرآن، فهي تبطل تصوّره الفاسد بالقضاء علىٰ الإسلام، وتقول له: هل يمكن إماتة الوحي، فليس للقرآن من زوال ما دام في أهل البيت عرق ينبض، إنّ الحسين عليه السلام هو الذي قضىٰ عليك وأفشل مخطّطاتك.

وعليه: فمراد الأئمّة عليهم السلام بكون الحادثة مصيبة هو ما مرّ سابقاً، وإلّا فحادثة كربلاء كانت بمثابة الدم الذي يجري في العروق بالنسبة للإسلام والقرآن.

الكتاب والخطأ الرئيسي الثالث[٣]

الدفاع الشخصي! السلام المشرِّف! الاقتراحات الثلاث! لا يمكن أن تكون ثمرة الدفاع عن النفس هي الشهادة من أجل إحياء الإسلام والقرآن، وليس

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٧٨.

(٢) الملهوف: ٢١٥ ـ ٢١٨، وعنه بحار الأنوار ٤٥: ١٣٣ ـ ١٣٥.

(٣) ألمحنا سابقاً إلىٰ عدم ضرورة إفراد بحث لمناقشة هذا الخطأ، علىٰ أنّ الردّ عليه إنّما يتّضح من الإجابة علىٰ الخطئين الماضيين، ولكن لا بأس بإلقاء المزيد من الضوء علىٰ هذا الموضوع لأهمّيته.

هنالك من مصدر صريح صحيح بشأن السلام المشرّف! كما أنّ ذلك الصلح ليس بمشرِّف! ولا يعقل اقتراح مثل هذا السلام من قِبل الإمام!

كتب المؤلّف في ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥: «حين حُوصر الإمام من قِبل قوّات عبيدالله بن زياد، بعث بكتاب إلىٰ عمر بن سعد يخبره فيه بالرغبة بالاجتماع به ليلاً... عقدت الجلسة السّريّة بين الإمام وابن سعد... وقد استغرقت الجلسة وقتاً طويلاً... ولم يعلم من تلك المفاوضات سوىٰ ثلاثة اقتراحات تقدّم بها الإمام، ومن شأن قبول أيّ واحد منها إقرار الصلح والسلام!

ابن سعد من جانبه أعرب عن ارتياحه لاقتراحات الإمام، فبعث بكتابه إلىٰ عبيدالله بن زياد... وقد كانت اقتراحات الإمام تحمل كلّ معاني الخير والسلام، بحيث كان لها أثر بالغ علىٰ ابن زياد...

وكتب في ص٢٠٦ تحت عنوان «تقرير غلام جاهل»: «روي عن عقبة بن سمعان ـ أحد غلمان قافلة الإمام الحسين عليه السلام ـ أنّه قال: لم يقترح الإمام الحسين علىٰ ابن سعد سوىٰ الرجوع إلىٰ الحجاز.

ملاحظة:

كانت هذه هي العبارات التي سطّرها مؤلّف كتاب «شهيد جاويد» بشأن السلام المشرِّف. وهنا نسأل المؤلّف: ما مرادك باقتراحات الإمام الثلاثة والتي أسميتها في الصفحات اللاحقة بالصلح المشرِّف؟ وهل يمكن صدور مثل هذه الاقتراحات من الإمام؟ وهل يُسمّىٰ ذلك الصلح بالمشرّف[1]؟

ما هي الاقتراحات الثلاث؟

ماذا يقصد المؤلّف بالاقتراحات الثلاث؟ لِمَ لَمْ يذكرها؟!

---

(١) شهيد جاويد: ٢٥١.

الاقتراحات الثلاث علىٰ ضوء نقل الطبري (ج ٤ ص ٣١٣) والكامل لابن الأثير (ج ٤ ص ٥٤) هي عبارة عن:

١ ـ الرجوع إلىٰ مكّة أو المدينة.

٢ ـ أن يضع الإمام يده بيد يزيد ليرىٰ فيه ما يشاء.

٣ ـ يسيروا به إلىٰ أيّ ثغر.

هذه هي اقتراحات الإمام عليه السلام ـ من وجهة نظر أعداء الإمام ـ هل يرىٰ المؤلّف أنّ هذه هي الاقتراحات الثلاث، أم هناك غيرها؟

طبعاً لا يقصد سواها، والدليل ما أورده من قرائن في كلامه من قَبيل: أنّ الإمام فاوض عمر بن سعد، وتقييم ابن سعد للمفاوضات وأنّها إيجابية، وقد وافقه عليها عبيدالله.

نعم، هذه هي القرائن؛ لأنّ عمر بن سعد المراوغ وعبيد الله بن زياد ـ ابن الزنا ـ يريان أنّ ذلّة الإمام مفيدة، وأوضح جميع تلك القرائن هي الهوامش التي ذكرها المؤلّف عن كتاب الطبري والكامل لابن الأثير المختصّة بالصلح والاقتراحات الثلاث.

وبناءً علىٰ ما تقدّم فهذا هو مراد المؤلّف بالاقتراحات الثلاث ـ التي ذكرت بصورة مبهمة وغامضة في الكتاب ـ، إلّا أنّ الأهمّ هو أنّ المؤلّف كان في مقام إثبات صحّة إسناد تلك الاقتراحات إلىٰ الإمام، فأراد أن يقول بأنّ الإمام عليه السلام قد طرح مثل هذه الإقتراحات من أجل الصلح، ولا يقتصر هذا الكلام علىٰ الطبري وابن الأثير، بل إنّ المؤلّف يقول بأنّ هذا النقل صحيح، وأنّ الإمام قد أجرى المفاوضات مع عمر بن سعد بتلك المقترحات من أجل إحلال السلام، وذلك لأنّ المؤلّف شدّد علىٰ متابعة عقبة بن سمعان علىٰ أنّه غلام جاهل، لا اطّلاع له، وهو غلام مُطيع، وقلّما يقوم الغلمان الذين تقتصر وظائفهم علىٰ الطاعة والخدمة بنقل

وقائع المفاوضات السرّيّة، وليس لعقبة من ذنب في هذه الحملة الشعواء والاستخفاف سوىٰ أنّه قال: «صحبت حسيناً فخرجت معه من المدينة إلى مكّة، ومن مكّة إلى العراق ولم أفارقه حتّى قتل، وليس من مخاطبته الناس كلمة بالمدينة ولا بمكّة ولا في الطريق ولا في العراق ولا في عسكر إلى يوم مقتله إلّا وقد سمعتها، ألا والله ما أعطاهم ما يتذاكر الناس وما يزعمون من أن يضع يده في يد يزيدبن معاوية، ولا أن يسيّروه إلى ثغر من ثغور المسلمين، ولكنّه قال: دعوني فلأذهب في هذه الأرض العريضة حتّى ننظر ما يصير أمر الناس»[1].

أضف إلىٰ ذلك فإنّ المؤلّف يستدلّ بعبارة للحرّ يوم عاشوراء من أجل البرهنة علىٰ استدلاله وعدم اطّلاع عقبة.

إذن، لابدّ من الجزم بأنّ قصد المؤلّف من الاقتراحات المبهمة هو تلك الاقتراحات، وقد أيقن بصدورها من الإمام عليه السلام، وأنّ هذا ما قاله الإمام لابن سعد وصدق الطبري وابن الأثير في نقلها.

جدير بالذكر أنّ المفاوضات مع ابن سعد كانت في اليوم السابع لثلاث قبل عاشوراء حسب قول الطبري وابن الأثير، بحيث سدّت شريعة الماء علىٰ الحسين عليه السلام، ولم يعد هنالك من أمل بالنصر، ولا يستبعد أن يكون الإمام قد عقد جلسة سرّيّة مع عمر بن سعد ليلة عاشوراء.

ملاحظة:

تضمّنت الصفحات (٢١٣، ٢١٤، ٢١٥) ثلاثة أُمور مطلوبة من قِبل الإمام:

١ـ الطلب الأوّل للإمام: إنشاء الحكومة الإسلامية و...

٢ـ الطلب الثاني ـ بعد اليأس من إنشاء الحكومة والشعور بالفشل ـ: الصلح

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣١٣، الكامل لابن الأثير ٤: ٥٤ باختلاف.

المشرِّف، وهذا طلب اضطراري قطعاً.

٣ـ الطلب الثالث: الدفاع عن النفس بحكم الضرورة والإضطرار.

ماذا يقصد المؤلّف بالصلح المشرّف؟ هل هي الاقتراحات الثلاث من قِبل الإمام الحسين عليه السلام علىٰ عمر بن سعد؟

نقول بقوّة: ليس سوىٰ ذلك، لأنّ الطلب الثاني بعد اليأس من النصر، واليأس من النصر ـ حسب زعم المؤلّف ـ حصل عند مفاوضة عمر بن سعد بشأن الصلح؛ لأنّه يقول: «يبدو أنّ هذا الأمر طبيعي جدّاً، حيث سعىٰ الإمام في مفاوضاته السرّيّة الأُولىٰ أن يقنع عمر بن سعد بالالتحاق بمعسكره والانطلاق معاً إلىٰ الكوفة».

وعليه: فاليأس المطلق من النصر كان حين حُوصر الإمام عليه السلام من قِبل جيش عبيدالله بقيادة عمر بن سعد ولم يعد هنالك من أمل. وهنا تتّضح حقيقة الطلب الثاني للإمام الذي يسمّى بالصلح المشرِّف، ويمكن تسميته بالطلب الاضطراري، وهذا الصلح هو في الواقع المقترحات الثلاث التي نقلها ابن الأثير والطبري.

ولمّا كان المؤلّف يعتقد بأنّ هذه المقترحات صدرت من الإمام حين اليأس من النصر، فلابدّ أن يعتبر الصلح المشرف هو هذه المقترحات الثلاث التي تمثّل الطلب الثاني للإمام!!

أمّا الشهادة فهي الطلب الثالث للإمام عليه السلام، ويوضّح المؤلّف هذه العبارة قائلاً: «أي بعد أن رفض أعوان يزيد اقتراح الصلح وأيقن الإمام بأنّه إذا استسلم سيُقتل ذليلاً كما فُعل بمسلم بن عقيل، لم يكن من الإمام لـمّا تعرّض لهجوم الأعداء سوىٰ الدفاع عن نفسه حتّىٰ استشهد».

«رفض أعوان يزيد الصلح» يعني لو وضع الإمام يده بيد يزيد فإنّ ذلك لا يروق لأعوان يزيد، ولـمّا رفضوا استسلم الإمام دون قيد أو شرط ـ العياذ بالله ـ،

لقد رأىٰ أنّ قتله حتميّ؛ لأنّه إن استسلم فهو مقتول أيضاً، آنذاك دفعه الاضطرار لقتالهم حتّى نال الشهادة.

هذه خلاصة أفكار المؤلّف حول الشهادة، وأسمينا هذه المعركة دفاعاً عن النفس، وبناءً علىٰ زعمه هذا، لم يكن قتل الإمام في كربلاء أكثر من دفاع عن النفس، وأيّ دفاع؟ دفاع بعد الاستسلام والذلّة ـ نعوذ بالله ـ التي لم تَرُق لأعوان يزيد.

تكرار:

لقد اتّضحت أفكار المؤلّف بشأن صلح الإمام والاضطرار إلىٰ الدفاع في يوم عاشوراء، مع ذلك نعرض بصورة سريعة إلىٰ آراء المؤلّف.

كانت نهضة الحسين عليه السلام تهدف إلىٰ الإطاحة بحكومة يزيد والأخذ بزمام الأُمور، وقد فشلت هذه النهضة رغم استنادها إلىٰ بعض العناصر المعتمدة، وذلك لأنّ الآمال تبدّدت وتحوّلت إلىٰ يأس، ولاسيّما بعد مفاوضة عمر بن سعد واقتراح الإمام عليه سرّاً الالتحاق بصفّه والانطلاق نحو السيطرة علىٰ الكوفة. إذ ذاك تغيّرت خطّة الإمام، فاقترح الصلح سرّاً علىٰ عمر بن سعد.

كانت بنود الصلح تتضمّن ثلاث مقترحات وللحكومة العمل بأيّ منها: أمّا أن يسمح للإمام بالعودة إلىٰ المدينة! أو أن يضع يده الشريفة بيد يزيد! هذه هي المقترحات المشرّفة التي لا تتنافى وشأن الإمام! إلّا أنّ عمر بن سعد رغم اعتباره مفاوضة الحسين عليه السلام مفيدة ورغم موافقة ابن زياد بعد اطّلاعه علىٰ الأمر من قِبل ابن سعد، إلّا أنّ القوّة الحاكمة رفضت اقتراحات الإمام، ولم يتمكّن الإمام بحسن نيّته من حسم المشكلة.

لقد فشلت خطّة السلام المقترحة من قِبل الإمام، وعليه: فلابدّ من اختيار الطريق الثالث. وهل هنالك سوىٰ إظهار العجز والاستسلام؟ هذه هي الفكرة التي

خطرت علىٰ ذهن الإمام، إلّا أنّ هذه الفكرة ليست صحيحة، فأبن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله قد رأىٰ بعينه بأنّ مسلم‌بن عقيل قد قُتل رغم استسلامه، وعليه: فإذا استسلم هو قتل! فهل من سبيل سوىٰ الدفاع عن النفس إلىٰ آخر قطرة دم؟ أم يستسلم للقتل بهذه السهولة دون الدفاع عن نفسه!

إذن لو كان الإمام عليه السلام يرىٰ خلاصه في الاستسلام لما قاتل! قاتل حيث لم يكن من سبيل سوىٰ القتال! قاتل دفاعاً عن نفسه! ومرادنا من «الدفاع عن النفس» الذي يقول به مؤلّف «شهيد جاويد» هو هذا المعنىٰ كما تثبته دراساته وتأمّلاته لحادثة كربلاء وقتال الإمام الحسين عليه السلام!!

ولا ندري أنردّ علىٰ هذه الترّهات أم نترك ذلك للإخوة القرّاء الأعزاء. ونرىٰ أن نردّ عسىٰ المؤلّف المحترم يتدارك ما فرط من أمره ويطهّر كتابه من تلك الشوائب. إلّا أنّنا سنردّ بصورة مختصرة.

هل للإمام أكثر من هدف؟

ليس للإمام عليه السلام في نهضته أكثر من هدف، واحد، وهو إحياء الحقّ وإزهاق الباطل. بعبارة أُخرىٰ: إحياء سيرة النبي وسنّته وإماتة البدع والشهوات التي تلاعبت بمصير المسلمين بإسم الدين، وهذا ما جرىٰ كِراراً ومِراراً علىٰ لسان الإمام في خطبه التي أوردها خلال حركته، كانت نهضة الإمام عليه السلام تهدف إلىٰ إيقاف الظالمين عند حدودهم وإزالة آثار الفساد والانحراف، وإشاعة مفاهيم القرآن في الحلال والحرام، والوقوف بوجه الحكومات الجائرة من عبدة الأهواء والشهوات، وإنقاذ المسلمين من براثن حكومة يزيد الفاجر، هذا هو هدف الإمام.

ولتسليط المزيد من الضوء علىٰ هدف الإمام، نرىٰ من الضروري التعرّف علىٰ بعض خطب الإمام عليه السلام خلال المسيرة.

قال الإمام عليه السلام مخاطباً أصحابه وعسكر الحرّ في «البيضة»: «ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء؛ وأحلّوا حرام الله وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ من غيّر....»[١].

وخطب في «ذي حُسم» فقال: «ألا ترون أنّ الحقّ لا يُعمل به، وأنّ الباطل لايُتناهىٰ عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقّاً، فإنّي لا أرىٰ الموت إلّا شهادة ولا الحياة مع الظالمين إلّا برماً»[٢].

فقد اتّضحت بجلاء خلال هاتين الخطبتين دوافع النهضة، وهدف الإمام منها، فليس للإمام عليه السلام سوىٰ هدف واحد، ولم يخطّط سوىٰ من أجل تحقيق هذا الهدف، وخطّته قتال السلطة اليزيدية الحاكمة حتّى الموت ونيل الشهادة واختيار مجاورة الرحمن.

إذن، فالهدف واحد، والخطّة اللازمة لتحقيق هذا الهدف لابدّ أن تكون واحدة أيضاً، وهي «القتال حتّىٰ الشهادة» فالخطبتان كانتا إجابة لذلك السؤال.

وهنا يبرز هذا السؤال: لم تُسفر هذه الدراسة إلّا عن نتيجة واحدة، وهي أنّ هدف الإمام من هذه النهضة هو الوقوف بوجه الفساد والانحراف وإحياء سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله، إلّا أنّ الإمام اعتمد ثلاثة مشاريع من أجل تحقيق هذا الهدف:

١) السيطرة علىٰ الحكومة ، ٢) الصلح المشرِّف! ، ٣) الدفاع !

فلو سيطر الإمام علىٰ الحكومة لظفر ببغيته، وإلّا فالصلح المشرِّف، ثمّ إعادة تنظيم القوّة والاستعداد من جديد للقتال، فإن لم يكن ذلك فالدفاع عن النفس حتّى نيل الشهادة. إذن فقد كان للإمام عليه السلام ثلاث خطط من أجل تحقيق هدف واحد، ألا وهو إحياء السُنّة وإماتة البدعة.

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٠٤.

(٢) تاريخ الطبري ٤: ٣٠٥.

جواب:

هل من عبارة بشأن الصلح في خطب الإمام؟ وهل يفكّر في الصلح ـ ولو بصورة موقّتة ـ من يقول: إنّ حكومة يزيد لزمت طاعة الشيطان وتركت طاعة الرحمن، وأظهرت الفساد وعطّلت الحدود، وأحلّت حرام الله وحرّمت حلاله؟ وأيّ صلح هذا؟ الصلح المشين! ولو قال هذا الإمام الهمام: أنا مستعدّ لأن أضع يدي بيد يزيد وأسلّم لكلّ ما يريد! فهل هذا صلح أم ذلّة؟ وهل يفكّر في الصلح كوسيلة لتحقيق الهدف من تصدح حنجرته «هيهات منّا الذلّة»؟

وبناءً علىٰ ما تقدّم من مفاد الخطبتين فإنّ الإمام كان قد عقد العزم علىٰ القتال حتّىٰ الشهادة التي لا يراها إلّا سعادة، وعليه: فلم يعد هنالك من معنى ومفهوم للصلح في قاموس النهضة الحسينية.

الصلح المشرِّف!

إنّ الخطبتين المذكورتين وإن كانتا كافيتين لأن نقول ـ بصفتنا غلمان الحسين وجرياً علىٰ ما قاله غلامه عقبة بن سمعان ـ بأنّ نسبة مثل هذا الصلح إلىٰ الإمام كذب محض، مع ذلك نقف أكثر عند هذا الصلح لنؤدّي وظيفتنا كغلمان للإمام الحسين. لا ندري لِمَ اصطلح المؤلّف علىٰ الاستسلام دون قيد أو شرط بالصلح المشرِّف، فهل الاقتراحات الثلاث ـ التي استندتَ فيها إلىٰ الطبري ولم يسمح لك كذبها وزيفها بذكرها تعني استسلام الإمام ليزيد ليفعل ما يحلو له؟

فهل للإمام أن يُصالح من ينعته بشارب الخمور والمتجاهر بالفسق وناهب بيت المال وعبد الشيطان والمشرّع لما يخالف القرآن؟ وهل هذا صلح مشرِّف!

وهل يتقدّم الإمام إلىٰ مثل هذا الصلح وهو القائل: أُريد أن آمر بالمعروف

وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله وأبي عليّ بن أبي طالب عليه السلام[١]؟ وهل يعقل أن يُصالح الإمام عليه السلام من يتفوّه.

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل[٢]

وهو يهدّد بالقضاء على الدين والقرآن والمسلمين ومحمّد صلى الله عليه وآله؟

نحن لا نرىٰ معقولية صدور مثل هذا الصلح عن الإمام، ونسأل من يقول: إنّ الإمام أراد أن يدّخر القوىٰ ليوظّفها في المستقبل بما ينفع الإسلام. أيّ قوىٰ هذه؟ هل المراد بها القوىٰ التي واكبت الإمام في مسيرته إلىٰ كربلاء بما فيها النساء والصبية والكهول كمسلم بن عوسجة وحبيب بن مظاهر؟ أم قوّات الكوفة الشعبية! الكوفة التي يشهد المؤلّف بأنّها واقعة في قبضة عبيدالله، أم القوّات التي ستتشكّل لاحقاً؟

وهل هنالك من أمل في تشكيل قوّات من شأنها القتال في سبيل الله إلىٰ جانب الإمام بعد انسحابه إلىٰ أحد الثغور ـ طبق البند الثالث المقترح ـ وذلك الضغط الشديد والهوّة بين الإمام والأُمّة واليأس والسيطرة التامّة لعبيد الله بن زياد علىٰ العراق، الذي يمثّل مركز ثقل أنصار أهل البيت عليهم السلام؟ والإمام يستريح قليلاً ويلتقط أنفاسه ويضع يده بيد يزيد ويتنزّه في قصوره الفخمة ريثما تنتظم القوّات الشعبية فيشنّ حملته ضدّ حكومة يزيد! هل هذه التصوّرات معقولة؟ وهل يفكّر مصباح الهدىٰ ـ الإمام ـ بهذه الطريقة وليتوصّل بالتالي إلىٰ «الصلح الاضطراري»؟

نعم، هذا ليس بصلح معقول ولا يمكن نسبته إلىٰ ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله والاصطلاح عليه بالصلح المشرّف. وبغضّ النظر عمّا مضىٰ فهل من سند لهذا الصلح المقترح؟

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩ـ ٣٣٠.

(٢) تقدّم في ص ٢٠٧.

نعم، سنده الكامل لابن الأثير وتأريخ الطبري، أمّا عبارة الكامل فهي: «ثمّ بعث الحسين إلى عمر بن سعد عمرو بن قرظة أن القني الليلة بين عسكري وعسكرك، فخرج إليه عمر فاجتمعا وتحادثا طويلاً وقد استغرقت المفاوضات السرّيّة للطرفين وقتاً طويلاً، وكثر حديث الناس، فكان الظنّ الغالب هو أنّ الإمام طلب من عمر بن سعد نصرته... نعم، لقد ظنّت الأكثرية ذلك، وهنا قال فرد مجهول: لا، فقد اقترح الإمام علىٰ عمر ثلاث مقترحات على أن يقبل أحدها» فهل لنقل ابن الأثير هذا سند؟ وهل يعتمد نفس ابن الأثير على نقل فرد مجهول غير معروف ظنّ أنّ اقتراح الإمامعليه السلام علىٰ عمر كان ذلك الصلح المشرّف، ولمزيد من الاطمئنان نورد عبارة الكامل حيث قال:

«وقيل: بل قال له: اختاروا منّي واحدة من ثلاث: إمّا أن أرجع... وإمّا أن أضع يدي في يد يزيد... وإمّا أن تسيروا بي إلىٰ أيّ ثغر...»[١].

ويلتفت أهل العلم إلىٰ أنّ نقل حديث الشخصيات العلمية أو التأريخية أو السياسية لا يقال فيه أبداً «قيل» بل يقال: «قال»، وإذا ذكر في موضع كلمة «قيل» فإنّ ذلك دليل علىٰ عدم الاعتناء بحديثه وأنّه مجهول بحيث لا يذكر اسمه، ولـمّا عبّر ابن الأثير بـ«قيل» فإنّ الشخص الذي ظنّ أنّ حديث الإمامعليه السلام مع عمر بن سعد كان يتمثّل بالاقتراحات الثلاث ممّن لا يمكن الاعتماد علىٰ ظنّه والاعتناء بحديثه، ولا يمكن أن يحظىٰ باهتمام حتّى مؤلّف كتاب الكامل فضلاً عن الباحثين والمحقّقين.

وبغضّ النظر عن هذا، ألم يكذّب عقبة بن سمعان ـ الغلام الخاصّ للإمام عليه السلام ـ هذا الاقتراح، وقد نقل عنه الطبري والكامل أنّه قال: فوالله ما أعطاهم ما يتذاكر الناس أنّه يضع يده في يد يزيد ولا أن يسيّره إلى ثغر من ثغور المسلمين...[٢].

(١) الكامل لابن الأثير ٤: ٥٤.

(٢) الكامل لابن الأثير ٤: ٥٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٣.

ولا يمكن القول أنّ عقبة ـ الذي كان غلاماً للإمام عليه السلام ـ لم يكن مطّلعاً علىٰ الأوضاع؛ لأنّ هذا الغلام حامل الأسرار، ويفهم من كلامه أنّه كان معتمداً من قِبل الإمام، وأنّه لم يفارق مولاه خلال مسيره من المدينة حتّى يوم شهادته.

وإذا قيل: لقد أشار الحرّ بن يزيد الرياحي ضمن اعتراضه علىٰ ابن سعد إلىٰ هذا الاقتراح، ويتبيّن أنّ الحرّ كان مطّلعاً أيضاً، واطّلاعه مقدّم علىٰ الاطّلاع الهشّ للغلام عقبة بن سمعان. فنقول:

أوّلاً: أنّ الحرّ لا يقول بأنّ الإمام طرح مثل هذا الاقتراح علىٰ عمر بن سعد وأعوان يزيد، بل خاطب الناس قائلاً: «ألا تقبلون من الحسين خصلة من هذه الخِصال التي عرضها عليكم...»[1].

وثانياً: لم يرد ذكر للمقترحات.

ثالثاً: لا يعلم هل كانت ثلاث مقترحات أم أكثر.

ورابعاً: أشار الحرّ في حديثه إلىٰ خطبة الإمام عليه السلام بالناس، فسمعه الحرّ يقول: «لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل...»[2].

وعليه: فلا يمكن القول بأنّ الخِصال التي ذكرها الحرّ هي تلك الاقتراحات علىٰ عمر بن سعد، وأنّه كان مطّلعاً علىٰ الصلح المشرِّف، ولا يمكننا رفض قول عقبة بن سمعان بتكذيب هذا الصلح المشرّف، بحجّة كونه غلاماً، فهل كونه غلاماً ذنب يدعو إلىٰ عدم الوثوق بإخباره ونقله؟

وخامساً: يقوىٰ الظن بأنّ الخصال التي أوردها الحرّ في حديثه هي تلك الاستفهامات التي طرحها الإمام من قَبيل: ألم تكتبوا إليّ رسائلكم؟ ألستُ ابن بنت نبيّكم؟ ألستُ سيد شباب أهل الجنّة؟ ألم يقل جدّي: «الحسن والحسين سيّدا

---

(١) الكامل لابن الأثير ٤: ٦٤.

(٢) تاريخ الطبري ٤: ٣٢٣، بحار الأنوار ٤٥: ٧.

شباب أهل الجنّة»؟ أتطلبوني بمال أخذته؟ أم دم سفكته؟[١]

هذه الخِصال التي لو صدّقوا واحدةً منها وكانت لهم ذرّة من ضمير، لما صوّب أهل الكوفة سهامهم وحِرابهم إلىٰ الإمام، ولما تمكّن بعد ذلك عبيدالله وعمر بن سعد من مواجهة أبي الفضل العباس وليوث كربلاء.

ولذلك نرىٰ الحرّ يلتفت إلىٰ نفس هذا الأمر فيقول في آخر حديثه: «ألا تقبلون من حسين خصلة من هذه الخصال التي عرض عليكم فيعافيكم الله من حربه وقتاله؟... إذ دعوتموه حتّىٰ إذا أتاكم أسلمتموه، وزعمتم أنّكم قاتلو أنفسكم دونه ثمّ عدوتم عليه لتقتلوه»[٢].

وعليه: فهو يلقي بالتبعة علىٰ جيش الكوفة الذي أراده الإمام عوناً فتحوّل إلىٰ فرعون لموسى كربلاء: الحسين عليه السلام.

سؤال:

لعلّ هناك من يقول بأنّه ليس من الصواب الإستناد إلىٰ ابن الأثير في تلك المقترحات، وحتىٰ ابن الأثير لا يعتقد بأنّ الإمام طرح تلك الاقتراحات، غير أنّ سندنا تأريخ الطبري، فقد نقل الطبري عن أبي مخنف، عن عدد من المحدّثين أنّ الإمام طرح المقترح الفلاني علىٰ عمر بن سعد.

جواب:

أوّلاً: كانت مفاوضات الإمام عليه السلام ـ حتّى بقول الطبري[٣] ـ مع عمر بن سعد سرّيّة، ولا يمكن التنبّؤ بكنهها إلّا من خلال الحدس والظنّ، ولو استند الدليل إلىٰ

(١) أُنظر مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف (وقعة الطف): ٢٠٦ـ٢٠٧.

(٢) مقتل الحسين لأبي مخنف (وقعة الطف): ٢١٥.

(٣) تاريخ الطبري ٤: ٣١٢ـ٣١٣.

الحدس فقد اعتباره، علاوة علىٰ ذلك فقد قال الطبري: ظن أغلب الناس أنّ الإمام لم يطرح أكثر من اقتراح علىٰ عمر بن سعد.

وثانياً: رغم أنّ الطبري ينقل عن أبي مخنف، وهذا عن عدد من المحدّثين في أنّ مقترحات الإمام عليه السلام ثلاث، إلّا أنّ نفس أبي مخنف ـ علىٰ قول الطبري ـ روىٰ عن عقبة بن سمعان: «ألا والله ما أعطاهم ما يتذاكر الناس، وما يزعمون من أن يضع يده في يد يزيد بن معاوية، ولا أن يسيّروه إلى ثغر من ثغور المسلمين، ولكنّه قال: دعوني فلأذهب في هذه الأرض العريضة حتّى ننظر ما يصير أمر الناس»[1]، أمّا ما شاع بين الناس من الاقتراحات الثلاث فهي ظنون لا أساس لها.

وثالثاً: الطبري هو الآخر نقل حدسيات الناس وكذلك قول المحدّثين وكلام عقبة بن سمعان، أفلا يدلّ هذا النقل علىٰ عدم اعتناء الطبري بقول المحدّثين؟ بل دليل علىٰ عدم إصداره حكماً يعتقد به. وإذا غضضنا الطرف عن هذا، فما الذي يفيده نقل الطبري؟ هل يفيد أكثر من كون المفاوضات كانت سرّيّة وأنّ الناس أبدت ظنونها وحدسها بهذا المجال؟

فقد قال البعض: إنّ الإمام لم يتقدّم بأكثر من اقتراح واحد، وقال البعض الآخر: بل كانت ثلاث اقتراحات، ولعلّ هذا رأي الأكثرية، كما أشار إلىٰ ذلك عقبة بن سمعان، فقد صرّح بأنّها لم تكن سوىٰ شائعات جوفاء لا أساس لها، ولم يقل الإمام عليه السلام سوىٰ: «دعوني فلأذهب...».

وعلىٰ هذا الضوء ألا يمكن الظنّ بأنّه ليس هنالك من سند لقول المحدّثين عن العامّة التي نقل عنها أبو مخنف سوىٰ ظنّ الناس وحدسهم البعيد عن مفاوضات الإمام عليه السلام وعمر بن سعد؟ وعليه: فهل يمكن الاستدلال بقول المحدّثين؟ وهل لهذا القول من اعتبار حتّى من وجهة نظر أبي مخنف؟

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣١٣.

إذن، فتأريخ الطبري ليس من شأنه أن يفيدكم ولا يمكنكم جعله دليلاً للاستنباط، وبغضّ النظر عن هذا، ولنفرض أنّ الطبري يعتقد بأنّ الإمام قد اقترح البنود الثلاث، فهل يمكن الاستناد إلىٰ قول الطبري في أن نقول: «يوجد هنا بعض المطالب المسلّمة... الرابع: أنّ الإمام تقدّم بثلاثة اقتراحات لو طبّق أيّ واحد منها لتمّ عقد الصلح دون ترديد؟...».

أوليس قول الطبري يتعارض وقول ابن الأثير؟ الذي قال: وقيل: بل قال له: اختاروا منّي... أي أنّ المحدّثين لم يقولوا، ولم يكن ذلك شائعاً بين الناس في أنّ الإمام قاله، بل هذا قول مجهول. إذن لا يمكن الاستدلال بقول الطبري طالما كان متعارضاً مع كلام ابن الأثير.

الأهمّ من كلّ هذه الأقوال:

الأهمّ من كلّ ما ذكر روحية الإمامعليه السلام وهدفه المقدّس وعزمه الفولاذي ورسالته التأريخية وعلمه الثاقب بمصير الأُمور وشوقه للقاء الله و وظيفته الربّانية، كزعيم للأُمّة وخطبه الملحمية: «لا والله لا أعطيهم بيدي إِعطاء الذليل...»[1].

«هيهات منّا الذلّة»[2].

«إنّ الله لا يغلب علىٰ أمره...»[3].

«وكأنّي وأوصالي يتقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا»[4].

«من لحقَ بي استشهد»[5].

(١) مقتل الحسينعليه السلام لأبي مخنف (وقعة الطف): ٢٠٩.

(٢) تحف العقول: ٢٤١، الاحتجاج ٢: ٩٩، مثير الأحزان: ٥٥.

(٣) الإرشاد للمفيد: ٢ / ٧٦، وعنه بحار الأنوار ٤٤: ٣٧٥.

(٤) مثير الأحزان: ٤١.

(٥) كامل الزيارات: ١٥٧ ح ١٩٥.

«هاهنا والله محطّ ركابنا وسفك دمائنا...»(١).

كلّ هذه الشواهد ومئات القرائن الأُخرىٰ تدعو إلىٰ الجزم بأنّ الإمام عليه السلام لم يتقدّم قطّ بتلك المقترحات الثلاث إلىٰ حكومة يزيد الخزي والعار، ولا سيّما أنّ الإمام عليه السلام أعرف من الجميع بمدىٰ إصرار يزيد علىٰ حزّ رأسه وابن مرجانة الذي غالباً ما كان يناديه الإمام بابن الزانية! ورغم كلّ ذلك، فإذا كان هناك من يشعر بالترديد فإنّا نقول له ـ وفرض المحال ليس بمحال ـ: لو كان هناك من اقتراح فإنّما طرح علىٰ الناس بهدف إتمام الحجّة وكشف النقاب عن روحية أهل الكوفة المتعطّشة لإراقة الدماء وإفهام الدنيا بأنّ الإمام لا يحمل سوىٰ رسالة الصلح والسلام التي اندفع إليها بكلّ ما أُوتي من قوّة، إلىٰ الحدّ الذي جعله يقدّم مثل هذه التنازلات حرصاً علىٰ سلامة الأُمّة وعدم سفك دمائها، في حين لم تجبه حكومة الجبابرة وكانت مصرّة علىٰ قتله، وإلّا فكيان الإمام عليه السلام كان مفعماً بصرخات «هيهات منّا الذلّة».

سؤال:

ربما كان هناك من يقول: المراد بالصلح المشرّف هو ذلك الاقتراح ذكره عقبة بن سمعان، في أنّ الإمام قال لهم: «دعوني فلأذهب في هذه الأرض العريضة». وقد أورد الإمام مثل هذا الاقتراح يوم عاشوراء، وإذا تجاهل المؤلّف قول عقبة، فليس له أن ينكر مثل هذا المضمون الذي صرّح به الإمام عليه السلام يوم عاشوراء.

إذن، فالصلح المشرّف هو هذا الاقتراح. ولابدّ من القول بأنّه مشرّف لكون الإمام لا يرضىٰ بالقِتال وإراقة الدماء.

---

(١) الملهوف: ١٣٩.

جواب:

كان الاقتراح علىٰ الناس لا أعوان الحكومة، بينما حديث المؤلّف عن الصلح كان علىٰ أساس مفاوضة أعوان الحكومة، فقد كتب المؤلّف في ص ٢١٥: «وبعد أن رفض أعوان الحكـومة عـقد الصـلح...» أوليس الصـلح الذي رفـضه أعـوان الحكومة هو تلك المقترحات الثلاث؟ إذن، فهذا الصلح لم يكن ذلك المقترح الذي نقله عقبةبن سمعان.

نعم، لو تحدّث الإمامعليه السلام إلىٰ الناس، كان لابدّ من القول حقّاً أنّ هذا حديث الإمام واقتراحه علىٰ الناس، وهو جدير بأن يُسمّىٰ بالصلح المشرّف، وذلك لأنّه مشروع يحول دون إراقة الدماء ويكشف عن حرص الإمامعليه السلام علىٰ سلامة الأُمّة، رغم علمنا أنّ تلك الأُمّة ليس لها ولا لدمائها من قيمة واعتبار من وجهة نظر الإسلام، غير أنّ رأفة الإمامعليه السلام ورحمته وحلمه لم تدعه يسمح بإراقـة دمـاء حـتّى تـلك العصبة المراوغة الكاذبة الغادرة، والحقّ أنّ هذا الصلح لما كان يهدف إلىٰ سـلامة الأُمّة فهو صلح مشرّف لا ذلّة فيه، كما يمكن القول في نفس الوقت أنّه اقتراح لترك المخاصمة وكاشف عن عظمة الإمام، ولكن وعلىٰ أساس ما ذكر سابقاً، لا يمكنه أن يكون كاشفاً عن الإرادة الجديّة للإمام بمصالحة الأُمّة، وذلك لأنّ الإمام يعلم أنّ هذه الأُمّة مغلوبة علىٰ أمرها وليس لها من إرادة، فهي حفنة جنود تزجّ بـنفسها جهلاً بالمعركة أملاً في الحصول علىٰ حطام الدنيا وما يـمنّيهم به أسـيادهم، وليس للجندي من حقّ في اتّخاذ القرار أو المشاركة في مفاوضات الصلح وما شاكل ذلك ـ طبعاً هذا في الأنظمة غير الإسلامية، وإلّا فهو صاحب قرار في الإسلام علىٰ ضوء المقرّرات والضوابط الإسلامية ـ كما كان الإمام عالماً بشهادته، وهذا العلم يـمنعنا من القول بأنّ إرادة الإمامعليه السلام الحقيقية كانت الدعوة إلىٰ المصالحة.

وبناءً علىٰ هذا فإنّ طرح الاقـتراح بهـذه الجـديّة لم يكـن وارداً، فـلايمكن

للإمام عليه السلام أن يُطالب جدّياً بإخلاء سبيله، ولعلّ مراده هدف أسمىٰ من ذلك، كأن يُفهم العالم أنّنا لسنا طلّاب حرب، وأنّنا حريصون علىٰ الصلح والسلام إلىٰ أبعد الحدود وهذا ما أبلغنا به الأُمّة، إلّا أنّ دعوتنا لم تلق آذاناً صاغية، وحتّى لا ينبري أحد ليقول: لِمَ ألقى الإمام بنفسه في التهلكة؟ ليس للإمام من عداء لأحد من أبناء الأُمّة وقد حلّ عليها ضيفاً بعد أن دعته، رغم علمه بعاقبة هذه الضيافة التي ستكون مائدتها رؤوس يطاح بها ودم عزيز يُسفك، فهذا ما أوصاه به جدّه وأبوه من إجابة دعوة الناس.

إذن، فالهدف الرئيسي للإمام عليه السلام هو إعلان الصلح والسلام وإماطة اللثام عن نيّات السوء التي يبيّتها يزيد ومردة الكوفة، وإلّا فالحسين عليه السلام كان يعلم بأنّ جيش عبيدالله بن زياد كان مسلوب الإرادة، وحتّى لو افترض لهم ثمّة إرادة، مع ذلك كانوا من المردة والغدرة الفجرة الذين هبّوا لضيافة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله بتلك الطريقة اللئيمة، كان الإمام عليه السلام عالماً بأنّ تربة كربلاء ستشهد ذلك النزيف الدموي الطاهر، وعليه: فاقتراح الإمام لم يكن سوى تعبيراً عن حبّه وحرصه على الإنسانيّة، وبيان ذلّة ودناءة جيش ابن زياد، وإتمام الحجّة على مَن شهد فصول ذلك المشهد الدامي في صحراء كربلاء.

ثورة الإمام عليه السلام ليست دفاعاً عن النفس

قيل: إنّ الهدف الذي يحظىٰ باهتمام الإمام بالدرجة الثانية هو الصلح، وحيث فشل الصلح فيأتي دور الاستسلام ووضع اليد بيد يزيد و... ورفض من قبل أعوان يزيد، فقد انبثق الهدف الثالث: «الدفاع» وقال المؤلّف في وصفه للدفاع: «أيقن الإمام بأنّه إذا استسلم فسيُقتل بنفس الطريقة الذليلة التي قُتل بها مسلم بن عقيل، وعليه: فليس له من سبيل أمام هجوم الأعداء سوىٰ الدفاع...».

إنّا وإن أوردنا هذه العبارة سابقاً إلّا أنّنا نروم من تكرارها، لتسهيل الوقوف علىٰ بعض الأُمور، فالعبارة تُفيد أنّ عملية الدفاع قد ظهرت بعد فشل مشروع الاستسلام وهجوم العدو. وعليه: فالدفاع جاء بعد سلسلة من الفشل والهزيمة، الفشل في تزعّم الأُمور والسيطرة علىٰ الكوفة والفشل في تحقيق الصلح المشرّف، والفشل في التسليم إلىٰ العدوّ، وبالتالي عزم العدو علىٰ قتل الإمام عليه السلام!! فهل مثل هذا الدفاع مشرّف؟ وهل هذا الدفاع المشرّف شهادة؟ أم دفاع عن النفس؟

بعبارة أُخرىٰ: هل أنّ شهادة الإمام كانت بهدف إحياء الإسلام وإماتة البدع وتحرير الأُمّة من براثن الطغاة؟ أم أفرزته الضرورة والاضطرار بعد فشل مشروع الاستسلام؟

ولو لم يدافع فماذا عساه أن يفعل؟ لا يسعنا أن نسمّي مثل هذه الشهادة سوىٰ الدفاع عن النفس، ونعتقد أنّ الإمام بريء من مثل هذه النهضة والثورة، ونرى أنّ هناك خطّة عظيمة وراء قتل الحسين عليه السلام في كربلا، خطّة مدروسة سلفاً جرىٰ بها القلم، وعلىٰ الإمام عليه السلام تنفيذها شاء أم أبىٰ في كربلاء، وعليه أن يتضرّج بدمه فداءً للقرآن والإسلام. فقد قال الباقر عليه السلام: «يا حمران إنّ الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ قد كان قدّر ذلك عليهم وقضاه»[1].

أمّا الدفاع عن النفس فلا يعني سوىٰ الاضطرار للقتل؛ لأنّه من المفروض أنّ الإمام حتّى إذا استسلم فإنّه سوف يُقتل، ولم يكن قد تكهّن بعاقبة الحركة حتّى زُجّ به في كربلاء زجّاً!! إذ ذاك لابدّ من إبطال كافّة كلمات الإمام ـ والعياذ بالله ـ التي قالها عليه السلام من قبيل: «لا أرىٰ الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برماً»[2].

وقوله في ذي حسم حين اقترب من كربلاء: «ألا ترون أنّ الحقّ لا يعمل به

---

(١) الكافي ١: ٢٦٢ باب أنّ الأئمّة يعلمون علم ما كان... ح ٤.

(٢) الملهوف: ١٣٨، وعنه بحار الأنوار ٤٤: ٣٨١.

وأنّ الباطل لا يُتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقّاً، فإنّي لا أرى الموت إلّا سعادة...»[١].

هذا هو الهدف الذي جعل الإمامعليه السلام يُقاتل حتّى الموت ويضحّي بالغالي والنفيس من أجل الشهادة.

الشهادة من أجل أهدافه السامية، لا من أجل الدفاع عن النفس، الإمام يريد نفسه لهدفه، للإبقاء علىٰ اسم رسول اللهصلى الله عليه وآله وحفظ القرآن والدفاع عن المظلومين والوقوف بوجه الظالمين، هذه الأهداف أعزّ علىٰ الإمام من نفسه، فهو القائل: «ألا ترون أنّ الحقّ لا يُعمل به وأنّ الباطل لا يتناهىٰ عنه، فليرغب المؤمن في لقاء ربّه» ليس هنالك من معنى للحياة في قاموس الإمامعليه السلام إذا ساد الباطل وضاع الحقّ.

إذن، فهدف الإمامعليه السلام منذ البداية هو الشهادة من أجل الحقّ، ومَن شكّ فليراجع تاريخ الطبري[٢] ليرىٰ كيف أعلن الإمام عزمه في ذي الحسم علىٰ الشهادة، ولا نرىٰ أيّ عقل سليم يقول بأنّ الإمام إنّما قرّر هذه الشهادة يوم عاشوراء بعد أن فشلت جميع مشاريعه الاستسلامية وذلك الذلّ والهوان في مهادنة يزيد، أملاً في الحصول علىٰ بضعة أيّام، فالإمامعليه السلام صمّم علىٰ الشهادة مسبقاً؛ وهو الذي قال في مكّة: «وكأنّي وأوصالي يتقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا»[٣].

وقد بلغ به العزم والإرادة درجة جعلته لم يكترث لنصح ابن عباس وابن الحنفية وسائر بني هاشم، كما لم يزحزحه عن موقفه ما أشار به عليه عبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر، إلىٰ جانب تحذير عبدالله بن جعفر ومنع عبدالله بن المطيع الإمامَ من الحركة، إضافة إلىٰ آراء العارفين بأوضاع الكوفة الذين أوجزوا له حالة

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٠٥، وفيه: شهادة بدل «سعادة».

(٢) تاريخ الطبري ٤: ٣٠٥.

(٣) تقدم في ص ٣٠٢.

أهل الكوفة بأنّ «سيوفهم عليه»[١].

فلم تتمكّن كلّ هذه المحاولات الواقعية من ثني الإمام عن عزمه، فواصل مسيرته وهو يقول: «إنّ الله لا يغلب علىٰ أمره»[٢] ولمّا بلغ موضع «البيضة» خطب الناس وعسكر الحرّ بن يزيد وكشف النقاب عن أهدافه، فأيقن الحرّ بعدما رأىٰ من عزم الإمام عليه السلام وشدّة حملته علىٰ يزيد وأذنابه أنّه مقتول لا محالة، فحذّره الحرّ بعد أن لمس استعداد الإمام عليه السلام للتضحية والقِتال، أراد الحرّ أن يخوّف الإمام بالموت، وهل يهاب الموت مثل الإمام؟ ثمّ أنشده الإمام ذلك الشعر الذي ارتجز به الأوسي لابن عمّه حين همّ بنصرة رسول الله صلى الله عليه وآله:

سأمضي وما بالموت عار علىٰ الفتىٰ
إذا ما نوىٰ خيراً وجاهد مُسلما[٣]

نعم، فقد جرت عادة أئمتنا عليهم السلام علىٰ تذكير الناس بالموت، وليس لنصح المشفقين ولا خوف المرعوبين ولا تهديد الجبّارين أن يثنيهم عن عادتهم، فهم ممّن يستبشرون بالموت والشهادة، الموت من أجل حياة القرآن والإسلام، الموت من أجل بقاء اسم صاحب الرسالة محمّد صلى الله عليه وآله، وإذا كان حالهم هكذا فكيف يزعم المؤلّف أنّ شهادته لم تكن سوىٰ الدفاع عن النفس، وخاصّة حين يئس تماماً من الحياة وأغلقت عليه جميع منافذها!

إنّنا نلهج بخطاب الإمام عليه السلام: يا أبا الأحرار، يا قبلة الثوّار، يا مصباح الهدىٰ وسفينة النجاة، يا محيي القرآن والسنّة، مدرستك مدرسة الجهاد والتضحية والشجاعة والقيم الإنسانية، مدرسة التوحيد والإخلاص والعبودية، مدرسة

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٦٤.

(٢) تقدّم في ص ٣٠٢.

(٣) الكامل لابن الأثير ٤: ٤٩.

العلم والحلم والسماحة والزهد والعزّة والكرامة ونصرة المظلوم ودحر الظالم.

وأنت تخاطب الإمام؛ يا عصارة الكمال، أيّها الربّاني، يا أبا الأحرار، ويا أيّها المجاهد... وعليه: فنحن متّفقون وإيّاك في أنّه أبو الأحرار والجهاد والثورة.

ولكن الاتّفاق هذا هل من شأنه أن يستمرّ؟ طبعاً لا، إنّ هذا الاتّفاق يجعلنا وإيّاك نقف علىٰ مفترق طرق، فأنت تضيف مخاطباً الإمام بأنّك لم تكن علىٰ علم بحادثة كربلا، وهذا ما أوقع عيالاتك في الأسر دون علم، أنت الإمام الرؤوف العطوف إلّا أنّ كربلائك أضرّت بالإسلام وأذاقت صحبك الذلّ والهوان! وهذا ليس ذنبك بل ذنب يزيد، يا أبا الأحرار لقد استسملت لعساكر يزيد بعد أن يئست من النصر، ورأيت كثرة عدّة وعدد عدوّك وخانتك القوّات الموالية، فاقترحت وضع يدك بيد يزيد، ورغم هذه الذلّة والهوان لم يوافقك يزيد، بل كنت مستعدّاً لركوب العار لو أيقنت بعدم القتل ولم يكن أمامك أيّها الثائر سوىٰ الدفاع عن نفسك العزيزة لا من أجل وظيفة سماوية أو مهمّة إنسانية علّك تنجو من الموت.

أمّا نحن فنقول:

يا حسين، يا أبا الأحرار، يا قبلة الثوّار، يا مدافِعاً عن القرآن، يا محرّر المظلومين، يا باب نجاة الأُمّة، ويا مصباح الهدىٰ

أنت الحرّ الذي نهضت عن علم ودراية من أجل كسر القيود والأغلال التي كُبِّل بها الناس، وإيصالهم إلىٰ السموّ والكمال، وإنقاذ المظلومين من نير المستكبرين يزيد وأعوانه الملعونين، وقد اجتهدتَ في تحقيق أهدافك حتّى آثرت التضحية والشهادة وسبي أهل بيتك علىٰ الحياة التي اعتبرتها بَرَمَاً. لقد نهضت بالأمر من أجل إحياء السنّة وإماتة البدعة ولم يكن همّك سوىٰ الحقّ، فلم تنفك عن ترديد «ألا ترون أنّ الحقّ لا يُعمل به» فكأنّي بك تقول: ما أصنع بالحياة هي خالية من مفردات الحقّ والقرآن والإسلام؟

لقد سطّرت بدمك الزكي ملحمة لم ولن يشهد التأريخ مثيلاً لها، لتبقىٰ صرخاتك تدوّي في نفوس الثوّار، وليردّد من خلفك المؤمنون «لا نرىٰ الموت إلّا سعادة» ولينهضوا بالأمر أينما طالعهم عدم العمل بالحقّ والتناهي عن الباطل.

فالموت من أجل الإسلام ليس بموت، وكيف تموت أُمّة تحيا في أعماقها روح محمّد وعليّ والحسين عليهم السلام، ستبقىٰ كعبة تزورك الثوّار وهي تلهج بقلوبها ومشاعرها قبل لسانها:

نشهد أنّك جاهدتَ في الله حقّ جهاده وصبرت علىٰ الأذىٰ في جنبه واستنقذت العِباد من الجهالة وحَيرة الضلالة. ونشهد أنّك نور الله الذي لم يطفأ ولن يطفأ أبداً، وأنّك وجه الله الذي لم يهلك ولن يهلك أبداً.

وهذا ليس صوتنا بل صوت القرآن الحكيم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[١].

وأخيراً نرجو من جميع الإخوة القرّاء أن ينظروا بعين العفو والصفح لما كان قد بدر منّا من زلل وخطأ وأن يتحفونا بما لديهم من آراء ومقترحات من شأنها خدمة الإسلام والمسلمين، كما نودّ أن نلفت انتباه الإخوة إلىٰ أنّنا كنّا ننوي أن نجعل بحث «آية التطهير» من ضمن مباحث هذا الكتاب إلّا أنّنا تحاشينا زيادة حجم الكتاب عن الحدّ المتعارف، وقد قمنا بطبع هذا البحث بصورة مستقلّة ليطّلع عليها القرّاء الأعزّاء. وما توفيقي إلّا بالله العزيز، عليه توكّلتُ وإليه أُنيب.

الإشراقي ـ اللنكراني

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩٦.

مصادر التحقيق

١ ـ **اثبات الهداة**، لمحمد بن الحسن بن علي بن محمد بن الحسين، المعروف بالحرّ العـاملي (١٠٣٣ ـ ١١٠٤) المطبعة العلميّة، قم، ١٤٠٤هـ.

٢ ـ **الأحاديث الغيبيّة**، تأليف ونشر مؤسّسة المعارف الإسلاميّة، قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٥.

٣ ـ **الاحتجاج**، لأبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (من أعلام القرن السـادس) دار الأسوة، قم، الطبعة الثالثة، ١٤٢٢هـ.

٤ ـ **الاختصاص**، لأبي عبدالله محمد بن محمد بن النعمان العُكبري البغدادي، المعروف بالشيخ المفيد (٣٣٦ ـ ٤١٢) دار المفيد، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

٥ ـ **اختيار معرفة الرجال**، المعروف برجال الكشي، لشيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن بن عليّ الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠) جامعة مشهد، ١٣٤٨ش.

٦ ـ **الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد**، لأبي عبدالله محمد بن محمد بـن النـعمان العُكـبري البغدادي، المعروف بالشيخ المفيد (٣٣٦ ـ ٤١٢) مؤسّسة آل البيت عليهم السلام، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

٧ ـ **إعلام الورى بأعلام الهدى**، لأمين الإسلام أبو علي الفضل بن الحسن بـن الفـضل الطـبرسي (م ٥٤٨) مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٧هـ.

٨ ـ **أعيان الشيعة**، للسيّد محسن بن عبد الكريم بن عليّ بن محمد الأمين الحسيني العاملي (١٢٨١ ـ ١٣٧١) دار التعاريف، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٢٠هـ.

٩ ـ **إقبال الأعمال**، للسيّد رضيّ الدين عليّ بن موسى بن جعفر بن طاووس (٥٨٩ ـ ٦٦٤) نشر مكتبة الإعلام الإسلامي، قم، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ.

١٠ ـ **الأمالي**، للشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن عليّ بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي (م ٣٨١) مؤسّسة البعثة، قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٧هـ.

١١ ـ **الأمالي**، لشيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن بن عليّ بن الحسن الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠) مؤسّسة البعثة، قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٤هـ.

١٢ ـ **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار** عليهم السلام، للعلّامة المولى محمد باقر بن محمد تقي المجلسي (١٠٣٧ ـ ١١١٠، ١١١١) دار الكتب الإسلامية، طهران.

١٣ ـ **بصائر الدرجات في فضائل آل محمد** عليهم السلام، لأبي جعفر محمد بن الحسن بن فروخ الصفّار (م ٢٩٠) مكتبة آية الله المرعشي النجفي، قم المقدّسة، ١٤٠٤هـ.

١٤ ـ **تاج العروس**، لأبي الفيض محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الزبيدي الحسيني، الملقّب بمرتضى (١١٤٥ ـ ١٢٠٥) دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ.

١٥ ـ **تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)**، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ ـ ٣١٠) مطبعة الإستقامة، القاهرة، ١٣٥٧هـ.

١٦ ـ **تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة**، للسيد شرف الدين عليّ الحسيني الأسترابادي النجفي، (من مفاخر أعلام القرن العاشر) مؤسّسة الإمام المهدي عليه السلام، قم المقدّسة، الطبعة الأُولى، ١٤٠٧هـ.

١٧ ـ **التبيان في تفسير القرآن**، لشيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن بن علي بن الحسن الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠) مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت بالأُفست عن مكتبة الأمين في النجف الأشرف.

١٨ ـ **تحف العقول عن آل الرسول** صلى الله عليه وآله، لأبي محمد الحسن بن عليّ بن الحسين بن شعبة الحرّاني الحلبي (من أعلام القرن الرابع) مؤسّسة النشر الإسلامي، قم، الطبعة الخامسة، ١٤١٧هـ.

١٩ ـ **تفسير العيّاشي**، لأبي النضر محمد بن مسعود بن محمد بن عيّاش السلمي السمرقندي، المعروف

بالعيّاشي (من أعلام القرن الثالث الهجري) المكتبة العلميّة الإسلاميّة، طهران، الطبعة الأُولى، ١٣٨١ هـ.

٢٠ ـ تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي الشافعي، المعروف بابن كثير (٧٠٠ ـ ٧٧٤) دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤٠٦ هـ.

٢١ ـ تفسير القمي، لأبي الحسن عليّ بن إبراهيم بن هاشم القمّي (من أعلام قرني ٣ و ٤) مطبعة النجف، النجف، ١٣٨٦ هـ. الطبعة الثانية، بيروت، ١٣٨٧ هـ.

٢٢ ـ تفسير فرات، لأبي القاسم فرات بن إبراهيم الكوفي (من أعلام الغيبة الصغرى) مؤسّسة الطباعة والنشر لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران، الطبعة الأُولى، ١٤١٠ هـ.

٢٣ ـ تفسير كنز الدقائق، لميرزا محمد المشهدي ابن محمد رضا بن إسماعيل بن جمال الدين القمّي (م حدود ١١٢٥) مؤسّسة النشر الإسلامي، قم، الطبعة الأُولى، ١٤٠٧ ـ ١٤١٣ هـ.

٢٤ ـ تفسير المنار، لمحمد رشيد بن رضا بن محمد بن محمد بن عليّ القلموني (١٢٨٢ ـ ١٣٥٤) تقريراً لأبحاث استاذه محمد عبده بن حسن خير الله (١٢٦٦ ـ ١٣٢٣) دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية بالأُفست عن الطبعة الأُولى بمطبعة المنار، ١٣٤٢ هـ.

٢٥ ـ تفسير نور الثقلين، لعبد علي بن جمعة العروسي العويزي (م ١١١٢) تحقيق هاشم الرسولي المحلاتي. المطبعة العلميّة، قم، ١٣٨٣ هـ.

٢٦ ـ حلية الأولياء، لأحمد بن عبدالله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران المهراني، المعروف بـ «أبونعيم الأصبهاني» (٣٣٦ ـ ٤٣٠) دار الكتب العلميّة، بيروت.

٢٧ ـ الخرائج والجرائح، لأبي الحسين سعيد بن عبدالله بن الحسين بن هبة الله بن الحسن، الشهير بـ «قطب الدين الراوندي» (م ٥٧٣) مؤسّسة الإمام المهدي عليه السلام، قم المقدّسة، الطبعة الأُولى، ١٤٠٩ هـ.

٢٨ ـ الخصائص الكبرى، لجلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر بن محمد السيوطي المصري الشافعي (٨٤٩ ـ ٩١١) دار الكتب العلميّة، بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤٠٥ هـ.

٢٩ ـ دلائل الإمامة، لأبي جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري (من أعلام القرن الخامس الهجري) مؤسّسة البعثة، قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٣ هـ.

٣٠ ـ دلائل النبوّة، لأحمد بن عبدالله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران المهراني، المعروف بـ «أبو نعيم الأصبهاني (٣٣٦ ـ ٤٣٠) دار النفائس، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ هـ.

٣١ـ ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، لمحبّ الدين أبي العبّاس أحمد بن عبدالله بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن إبراهيم الطبري (٦١٥ ـ ٦٩٤) مكتبة الصحابة، جدّة، مكتبة التابعين، القاهرة، الطبعة الأُولى، ١٤١٥هـ.

٣٢ ـ رجال الطوسي، لشيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن بن عليّ الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٣) مؤسّسة النشر الإسلامي، قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٥هـ.

٣٣ ـ روضة الواعظين، لأبي جعفر الشهيد محمد بن الحسن بن عليّ بن أحمد بن علي بن يوسف الفتّال النيسابوري، المشتهر بابن الفتّال (م ٥٠٨) مطبعة الحكمة، قم.

٣٤ ـ الرياض النضرة، لمحبّ الدين أبي العبّاس أحمد بن عبدالله بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن إبراهيم الطبري (٦١٥ ـ ٦٩٤) دار الكتب العلميّة، بيروت.

٣٥ ـ شرح نهج البلاغة، لعبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين المدائني، المعروف بابن أبي الحديد (٥٨٦ ـ ٦٥٥) مؤسّسة إسماعيليان، قم.

٣٦ ـ الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، لرضيّ الدين أبي القاسم علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن أحمد، المعروف بابن طاووس (٥٨٩ ـ ٦٦٤) مطبعة الخيّام، قم، ١٤٠٠هـ.

٣٧ ـ علل الشرائع، لأبي جعفر محمد بن عليّ بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي، المعروف بالشيخ الصدوق (م ٣٨١) المكتبة الحيدريّة ومطبعتها، النجف، ١٣٨٥هـ.

٣٨ ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام، لأبي جعفر محمد بن عليّ بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي (م ٣٨١) دار العلم، قم، ١٣٧٧هـ.

٣٩ ـ فرائد الأُصول، المعروف بـ الرسائل، للشيخ مرتضى بن محمد أمين الأنصاري (١٢١٤ ـ ١٢٨١) تراث الشيخ الأعظم، قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٩هـ.

٤٠ ـ الفصول المهمّة في معرفة الأئمة عليهم السلام، لعليّ بن محمد بن أحمد بن عبدالله المالكي المكّي، الشهير بابن الصبّاغ (٧٨٤ ـ ٨٥٥) دار الحديث، قم، الطبعة الأُولى، ١٤٢٢هـ.

٤١ ـ الفقيه (من لايحضره الفقيه) ومشيخته، للشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي، (م ٣٨١) دار الكتب الإسلاميّة، طهران، الطبعة الخامسة، ١٣٩٠هـ.

٤٢ ـ قاموس الرجال، للشيخ محمد تقي بن كاظم بن محمد علي بن جعفر التستري، مؤسّسة النشر

الإسلامي، قم، الطبعة الثانية، ١٤١٠ هـ.

٤٣ ـ **الكافي**، لثقة الإسلام أبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، الطبعة الثالثة، ١٣٨٨ ـ ١٣٨٩ هـ.

٤٤ ـ **كامل الزيارات**، لأبي القاسم جعفر بن محمد بن جعفر بن موسى بن قولويه القمّي (م ٣٦٨) نشر الفقاهة، قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٧ هـ.

٤٥ ـ **الكامل في التاريخ**، لعزّ الدين أبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير (٥٥٥ ـ ٦٣٠) دار صادر، بيروت، ١٣٨٥ هـ.

٤٦ ـ **كشف الغمّة في معرفة الأئمّة** عليهم السلام، لبهاء الدين عليّ بن عيسى بن أبي الفتح الإربلي (م ٦٩٣) المطبعة العلميّة، قم، بالأُفست عن مكتبة بني هاشم، تبريز، ١٣٨١ هـ.

٤٧ ـ **كفاية الأثر في النصّ على الأئمّة الإثني عشر**، لأبي القاسم عليّ بن محمد بن عليّ الخزّاز القمّي الرازي (من أعلام القرن الرابع) انتشارات بيدار، مطبعة الخيّام، قم، ١٤٠١ هـ.

٤٨ ـ **كمال الدين وتمام النعمة**، لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي، المعروف بالشيخ الصدوق (م ٣٨١) مؤسّسة النشر الإسلامي، قم، الطبعة الثالثة، ١٤١٦ هـ.

٤٩ ـ **لواعج الأشجان في مقتل الحسين** عليه السلام، للسيد محسن بن عبد الكريم بن علي بن محمد الأمين الحسيني العاملي (١٢٨١ ـ ١٣٧١) نشر مكتبة بصيرتي، قم.

٥٠ ـ **مثير الأحزان**، لنجم الدين محمد بن جعفر بن أبي البقاء هبة الله بن نما بن علي بن حمدون الحلّي (٥٦٧ ـ ٦٤٥) مؤسّسة الإمام المهدي عليه السلام، قم المقدّسة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٦ هـ.

٥١ ـ **مجمع البحرين**، للشيخ فخر الدين بن محمد عليّ بن أحمد بن طريح الرماحي النجفي، المشهور بالطريحي (٩٧٩ ـ ١٠٨٥) مؤسّسة البعثة، الطبعة الأُولى، ١٤١٤ هـ.

٥٢ ـ **مجمع البيان في تفسير القرآن**، لأمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي (حوالي ٤٧٠ ـ ٥٤٨) دار الفكر، بيروت، ١٤١٤ هـ.

٥٣ ـ **محجة البيضاء في تهذيب الأحياء**، لمحمد بن المرتضى المدعو بالمولى محسن الكاشاني، المعروف بالفيض (١٠٠٧ ـ ١٠٩١) مؤسّسة النشر الإسلامي، قم، الطبعة الرابعة، ١٤١٧ هـ.

٥٤ ـ **مختصر بصائر الدرجات**، لأبي محمد الحسن بن سليمان بن محمد بن خالد الحلّي (من أعلام

القرن الثامن الهجري) دار المفيد، بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤٢٣ هـ.

٥٥ ـ **مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول**، للعلّامة المولى محمد باقر بن محمد تقي المجلسي (١٠٣٧ ـ ١١١٠، ١١١١) دار الكتب الإسلامية، طهران، الطبعة الأُولى، ١٤٠٧ هـ.

٥٦ ـ **المراجعات**، للسيد عبد الحسين شرف الدين يوسف بن إسماعيل الموسوي (١٢٩٠ ـ ١٣٧٧) تحقيق حسين الراضي، الجمعيّة الإسلامية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢ هـ.

٥٧ ـ **مروج الذهب**، لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (م ٣٤٦) دار الهجرة، قم، الطبعة الثانية، ١٤٠٤ هـ.

٥٨ ـ **المسند**، لأبي عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني (١٦٤ ـ ٢٤١)، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ.

٥٩ ـ **مقاتل الطالبيّن**، لعليّ بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم بن عبد الرحمان، المعروف بأبي الفرج الأصبهاني (٢٨٤ ـ ٣٥٦) منشورات الشريف الرضي، قم، الطبعة الثانية، ١٤١٦ هـ.

٦٠ ـ **معجم رجال الحديث**، للسيد أبي القاسم بن علي أكبر بن هاشم الموسوي الخوئي (١٣١٧ ـ ١٤١٣) مركز نشر آثار الشيعة، قم، الطبعة الرابعة، ١٤١٠ هـ.

٦١ ـ **مقتل الحسين عليه السلام (وقعة الطف)**، للمؤرّخ لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سليم الأزدي (م ١٥٨) مؤسّسة النشر الإسلامي، قم، الطبعة الأُولى، ١٣٦٧ ش.

٦٢ ـ **الملهوف على قتلى الطفوف**، للسيّد رضي الدين أبي القاسم عليّ بن سعد الدين أبي ابراهيم موسى بن جعفر بن محمد بن أحمد بن محمد بن طاووس (٥٨٩ ـ ٦٦٤) دار الأُسوة، قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٤ هـ.

٦٣ ـ **المناقب**، للحافظ أبو المؤيّد الموفّق بن أحمد بن محمد البكري المكّي الحنفي، المعروف بـ أخطب خوارزم (٤٨٤ ـ ٥٦٨) مكتبة نينوى الحديث، طهران

٦٤ ـ **مناقب آل أبي طالب عليهم السلام**، لأبي جعفر محمّد بن عليّ بن شهر آشوب السروي المازندراني (م ٥٨٨) انتشارات علّامة، المطبعة العلميّة، قم.

٦٥ ـ **منتهى الآمال**، للشيخ عباس القمّي (١٢٩٤ ـ ١٣٥٩)، مؤسّسة النشر الإسلامي، قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٥ هـ.

٦٦ ـ **المنجد في اللغة والأعلام**، لويس معلوف، مؤسّسة انتشارات دار العلم، قم، الطبعة الأُولى، ١٣٨٢ ش.

٦٧ ـ **الميزان في تفسير القرآن**، للعلّامة السيد محمد حسين الطباطبائي (١٣٢١ ـ ١٤٠٣) مؤسّسة مطبوعاتي إسماعيليان، قم، الطبعة الثالثة، ١٣٩٣ هـ.

٦٨ ـ **نهج البلاغة من كلام مولانا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب** عليه السلام، تحقيق الشيخ محمد عبده، الناشر سفارة الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة في دمشق.

٦٩ ـ **نوادر الأخبار**، للعلّامة محمد بن مرتضى المعروف بالمولى محسن، والمشهور بالفيض الكاشاني (١٠٠٧ ـ ١٠٩١) مؤسّسة مطالعات وتحقيقات فرهنگي، طهران، ١٣٧٠ ش.

٧٠ ـ **وسائل الشيعة (تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة)**، للشيخ محمد بن الحسن الحرّ العاملي (١٠٣٣ ـ ١١٠٤) مؤسّسة آل البيت عليهم السلام، قم، الطبعة الأُولى، ١٤٠٩ ـ ١٤١٢ هـ.

٧١ ـ **ينابيع المودّة لذوي القربى**، للشيخ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي (١٢٢٠ ـ ١٢٩٤) مطبعة الأُسوة، قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٦ هـ.

فهرست المطالب

المقدّمة ٧
قيم الأُمم عرى موثقة ٧
قيمة السلعة ٧
السبب الأهمّ ٨
قيمة الشخص ٨
القرآن الكريم ٩
أهل البيت عليهم السلام ١٠
طموحات المجتمعات ١١
مهمّتنا ١١
الدافع من تأليف الكتاب ١٢

الإمامة على ضوء القرآن الكريم

القرآن والإمامة ١٨

الدليل الأوّل من القرآن ٢٠
الهدف من الامتحان ٢١
النبي إبراهيم عليه السلام والتمحيص ٢١
مواد التمحيص ٢٢
الدليل الثاني من القرآن ٢٥
بحث في الآية المباركة ٢٦
لمن الطاعة ؟ ٢٨
خلاصة البحث ٣٠
مزيد من الضوء على آية أُولي الأمر ٣٣
الحديث الأوّل ٣٤
ملاحظة ٣٥
تحقيق آخر في الآية ٣٦
الحديث الثاني ٣٧
الحديث الثالث ٣٨
الحديث الرابع ٤٠
خلاصة التحقيقات ٤١
الإمام في رسالة سيّد الشهداء عليه السلام ٤٣
الدليل الثالث من القرآن ٤٩
توضيح المُراد ٥٠
قضية مهمّة ٥١
إشارة إجمالية إلى بعض الروايات الواردة في تفسير الآيات الدالّة على الإمامة ٥٣
دراسة ضروريّة ٥٦

بحث مختصر ٥٨
خلاصة ما مرّ........ ٦٠
خلاصة البحث........ ٦٤
الدليل الرابع من القرآن........ ٦٧
دعوة النبي إبراهيم عليه السلام........ ٦٨
الآيات والالتفاتات........ ٦٩
دليل حي........ ٧٠
مزيد من التوضيح........ ٧١
كشف النقاب عن أصالة الإمامة........ ٧١
ما نخلص إليه من هذه الآيات........ ٧٢
نتيجة هذه الدراسات........ ٧٢
سؤال يطرح نفسه........ ٧٣
جواب........ ٧٣
حديث مع صاحب تفسير المنار........ ٧٤
سؤال آخر........ ٧٧
إشكال مهمّ........ ٨١
فهرس الكتاب إلى هنا........ ٨٧
سؤال يثير الأسف........ ٨٨
الجواب........ ٨٩

قبسات من شرائط الإمامة

خلاصة شرائط الإمامة........ ٩٢

بحث في تفاصيل هذه الشرائط ٩٢
القرآن وشرائط الإمامة ٩٤
طلب قائد للجيش ٩٩
ملاحظة مهمّة ١٠٠
طالوت ١٠١
خلاصة هذا البحث ١٠٣
التابوت ١٠٣
حديث أبي بصير ١٠٥
قولنا أم قول المفسّرين؟ ١٠٦
الجواب ١٠٧
زبدة الكلام ١٠٨
النسخ ١١٠
النقطة الثانية ١١٣
العنوان الأوّل: قصص الأنبياء عليهم السلام والأُمم الماضية ١١٤
النتيجة ١١٨
خلاصة الحديث ١١٩
نتيجة هاتين النقطتين ١١٩
العنوان الثاني لقصة طالوت ١٢٠
الآيات الثلاث ١٢١
هذه الآيات الثلاث وهدفها ١٢٣
دليلنا ١٢٤
أمير المؤمنين عليه السلام وآيات قصّة طالوت ١٢٥

عود إلى شرائط الإمامة المستفادة من القرآن

آية الاصطفاء ١٣١

الأمر الأوّل ١٣١

رفع إشكال ١٣٢

الأمر الثاني ١٣٣

الجواب ١٣٣

جواب آخر ١٣٤

الأمر الثالث ١٣٤

مَنْ هُم آل إبراهيم ؟ ١٣٥

هدف سامٍ ١٣٦

الأمر الرابع ١٣٧

هدف الآية ١٣٨

نتيجة هذه الأبحاث ١٣٩

الحسين عليه السلام والآية الكريمة ١٤٠

الآية المُباركة وأحاديث الإمامية ١٤٠

خلاصة الآيات والروايات ١٤٢

ملاحظة ١٤٣

علم الإمام عليه السلام

الزعامة في الإسلام ١٤٥

القرآن وعلم الأنبياء عليهم السلام ١٤٦

مفاد الطوائف الثلاث من الآيات ١٥٠

علم الأئمّة عليهم السلام ١٥١
نقطة ضرورية ١٥٢
الآية الأُولىٰ ١٥٤
نظرة أعمق ١٥٥
الآية الثانية ١٥٥
منصب يوسف عليه السلام ١٥٦
الآية الثالثة ١٥٦
الآية الرابعة ١٥٧
ثمرة هذا البحث القرآني ١٥٧
علائم الإمام عليه السلام ١٥٩
التصدّي للانحراف ١٦٠
هدف الآيات النافية لعلم الغيب ١٦١
آيات أُخرىٰ ١٦٣
هدف الأئمّة عليهم السلام من نفي العلم بالغيب ١٦٤
إخبار أمير المؤمنين عليه السلام ١٦٤
الأخبار الغيبية لعلي عليه السلام ١٦٦
الروايات وعلم غيب الأئمّة عليهم السلام ١٦٧
بحث مختصر حول آية قرآنية ١٦٩
علل الزعامة ١٧١
وحدة الموضوع ١٧٢
الذهول والدهشة!! ١٧٢
خلاصة هذا الفصل ١٧٤

ثمرة هذه الخلاصة ١٧٥
رواية عميقة ١٧٥
شرح الرواية ١٧٧
دوافع نفي الإمام عليه السلام علمه بالغيب ١٧٩
الدافع الأوّل ١٧٩
الدافع الثاني ١٨٠
روايتان ١٨٢
ملاحظة ١٨٢
تكرار وتذكير ١٨٣
الدليل الأوّل ١٨٣
الدليل الثاني ١٨٤
الدليل الثالث ١٨٥
دراسة الآية ١٨٦
عباد، أم صفوة مصطفاة من العباد ؟ ١٨٧
مَنْ هُم المصطفون من العباد ؟ ١٨٧
الدليل الدامغ ١٨٧
وارث الكتاب الكريم ١٨٩
كيف يعلم الجميع ؟! ١٩٠
الشواهد الحيّة !!! ١٩١
طرق الأئمّة عليهم السلام في الحصول على العلم ١٩١
أمير المؤمنين عليه السلام والآية الكريمة ١٩٣
المعلّم الأوّل ١٩٥

المعلّم الثاني ١٩٦
الإمام الصادق عليه السلام وعلم الإمام عليه السلام ١٩٦
القرآن وعلم الإمام عليه السلام ١٩٧
أسئلة وأجوبة ١٩٧
العلم الشائي ١٩٩
إيضاح ١٩٩

علم الإمام سيّد الشهداء عليه السلام بحادثة كربلاء

ثلاثة أخطاء رئيسية ٢٠٢
الخطأ الرئيسي الأوّل ٢٠٢
الخطأ الرئيسي الثاني ٢٠٣
الخطأ الرئيسي الثالث ٢٠٤
الكتاب والخطأ الرئيسي الأوّل ٢٠٤
نتيجة الأدلّة ٢١٩
الموضوع الأوّل ٢٢٠
الموضوع الثاني ٢٢٠
جواب الموضوع الأوّل ٢٢٠
جواب الموضوع الثاني ٢٢١
جواب السؤال الثالث ٢٢٢
طريق مغلق ؟! ٢٢٤
خطبة «خُطّ الموت...» ٢٣٢
المؤلّف والإقرار بالعلم ٢٣٦

الحديث الأوّل ٢٤١

مناقشة الحديث ٢٤٢

الحديث الثاني ٢٤٤

وقفة مع الحديث ٢٤٥

الحديث الثالث ٢٤٦

ما ينبغي الالتفات إليه في الحديثين ٢٤٧

دليل آخر ٢٤٩

نتيجة البحث ٢٥٠

مفاد الروايتين ٢٥١

الجمع بين الرسالة وعدم قتل جماعة ٢٥٢

افتراض آخر ٢٥٢

الحديث الرابع ٢٥٤

تحقيق مختصر ٢٥٤

زبدة الكلام ٢٥٦

شهادة الإمامعليه السلام في كربلاء على لسان أهل البيتعليهم السلام وأتباعهم ٢٥٨

بُكاء محمّد بن الحنفية ٢٦١

حديث رائع ٢٦٢

السرّ الأكبر ٢٦٣

الكتاب والخطأ الرئيسي الثاني ٢٦٤

حادثة كربلاء نفخت الروح في جسد الإسلام ٢٦٦

الجهاد في الإسلام ٢٦٦

المعطيات الخالدة للحادثة ٢٧٠

النظرة السطحية ٢٧٢
يأس الأُمّة ٢٧٢
خطبة زينب الكبرىٰ ٢٧٤
المنطق الغاشم ٢٧٤
سر عدم النجاح ٢٧٧
الصورة الثانية ٢٨٠
معطيات الحادثة بعد وقوعها ٢٨١
الحسين عليه السلام والإسلام ٢٨٢
الكتاب والخطأ الرئيسي الثالث ٢٨٨
ملاحظة ٢٨٩
ما هي الاقتراحات الثلاث؟ ٢٨٩
ملاحظة ٢٩١
تكرار ٢٩٣
هل للإمام أكثر من هدف ؟ ٢٩٤
الصلح المشرِّف! ٢٩٦
الأهمّ من كلّ هذه الأقوال ٣٠٢
ثورة الإمام عليه السلام ليست دفاعاً عن النفس ٣٠٥
فهرس مصادر التحقيق ٣١٣